الطريق إلي الرجولة

كيف تكون رجلا؟

بقلم

حاتم إبراهيم سلامة

مقدمة بقلم الكاتب الكبير- خالد الأصور

هذا الكتاب .. وهذا الكاتب

"أنت رجل والرجال قليل".. عبارة جميلة جادة، جرت بها الألسنة في سياق حوار بمسرحية هزلية شهيرة، على لسان ممثل هازل، يخاطب بها ممثلا آخر أكثر هزلا .

وربما كان هذا المشهد الهزلي يمثل تلخيصا لمظاهر الاستخفاف بسمات "الرجولة الحقة" في حياتنا، وفي تنشئتنا لأبنائنا، وما يتشربونه في حياتهم من صفات أغلبها ضد معالم الرجولة، من وسائل الإعلام التي اتسع مداها وأصبحت ملازمة للنشء في حله وترحاله، عبر الكثير من التطبيقات الهزلية التي غالبا ما تُشيع التميع والتخنث، بل عبر الأندية والمدارس والجامعات، بل والبيوت أحيانا.

ورغم أن حلم كل طفل أن يكبر ويصبح "رجلا"، ويتباهى بِطُولِه وخشونة صوته وظهور شاربه، فيتفاخر بـ "رجولته"، لكن ما إن يشب الطفل عن الطوق، ويصبح فتى يافعا، إلا ونجد أغلب المؤثرات والمثيرات من حوله، تحط من قيمة وسمات الرجولة فيه .. هذه الرجولة التي غامت والتبست مفاهيمها الصحيحة، فأصبح الكثيرون اليوم أشباه الرجال ولا رجال!

وإذا كانت اللغة قد عرّفت لفظ الرجل، فهو الذّكر من نوع الإنسان على خلاف المرأة، لكنها لم تعَرّف الرجولة، إذ من البديهي ومن الاشتقاق اللفظي أن يتسم الرجل بالرجولة، وهي غير الذكورة المقابلة للأنوثة، لذا يُوصف من له القدرة على مواجهة الأحداث الجسام في حياته وفي وطنه بـ "رجل الساعة" أو "رجل المرحلة".

وليست الرجولة و"المرجلة"، كما يُراد لأبنائنا أن يفهمونها على هذا النحو، مجرد قوة بدنية وعضلية، مع أهميتها وضرورة الحرص عليها، بل العاصم لهذه القوة، أن تكون في سبيل الخير والحق، والاستماتة في الذود عنهما في كافة مواقف الحياة.

وقد وصف الله تعالى بعض المنافقين: { وإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ } المنافقون: 4، وفي الحديث الشريف: "ليس الشديد بالصُّرَعة، وإنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب" [1]

ولذلك، وفي المقارنة بين الرجل والمرأة ودور كل منهما في الحياة، لم يرد في القرآن الكريم ذكر القوة كعنصر للمفاضلة، بل كانت معايير الرجولة والقوامة، هي الحكمة وحسن التصرف في الأمور والإنفاق والشعور بالمسؤولية، لذلك فقط فإن "الرجال قوامون على النساء".

وما أفقه عمر بن الخطاب، وهو من أعظم من يوصف حقا وصدقا بالرجولة، حين عرّفها وشخّصها، بضرب هذا المثال الرائع، فقد خاطب مَن في مجلسه يوما، فقال: (تمنّوا)

ورغم أن كل من تمنّى رغب في زيادة ماله أضعافاً مضاعفة، لينفقه في سبيل قيم وأهداف نبيلة، تُرضي الله ورسوله، لكن عمر قال: " ..... أما أنا فأتمنّى لو أنَّ هذه الدار مملوءة رجالاً مثلَ أبي عبيدةَ بنِ الجراح ومعاذ بن جبل وسالم مولى أبي حُذيفة وحذيفةَ بن اليمان، فاستعملهم في طاعة الله)[2]

ما أفقهك يا فاروق الأمة، وهو خير من فَقِهَ مقاصد الإسلام، فقد أدرك أن الرجال ذوي الرجولة الحقة، هم أنفس مِن كل ما تمناه مَن في مجلسه، من المال والذهب، ولو أُنفقت في سبيل الله،

[1] - رواه البخاري.
[2] - رواه أحمد

ولذلك وصف الله تعالى الأنبياء وهم صفوة الرجال بقوله:" وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إليهم"[1]

إن هذا الكتاب – وبحق – يُعد إضافة مهمة ونوعية للمكتبة العربية الإسلامية، وقد طَوّف بنا في جولات رحبة بين طياته وصفحاته على معالم ناطقة بالرجولة، ونلاحظ في استعراضه لها توازنا مُحكما بين وحدة الموضوع والتنوع الثري في الاستشهادات والمواقف والرسائل.

ونأمل أن يكون هذا العمل زادا جديدا لتبصير الأجيال الجديدة والقائمين على تنشئتهم وتربيتهم وتوجيههم، بمعاني ومضامين الرجولة الحقة.

هذا عن الكتاب، وأما الكاتب، الأستاذ حاتم سلامة، فهو غني عن التعريف، وله إسهاماته المقدرة في المكتبة العربية الإسلامية، ولا سيما في حقل التربية الإسلامية والأدب والتراجم.

والكاتب هنا في كتابه هذا " الطريق إلى الرجولة .. كيف تكون رجلاً؟ " اختار موضوعًا أخلاقيًا فريدًا، وقلما يتطرق إليه الكُتاب والباحثون، ونادرا ما يتطرقون إليه في صورة كتاب، فغالب ما نقرؤه في هذا الباب، هو مقال هنا ودراسة هناك، في مجلة أو صحيفة.

وليس ذلك بغريب على قلمه وكتاباته الرصينة، وموضوعاته المنتقاة بعناية، الباحث الجاد الحريص على أن يترك أثرًا، بأكثر من حرصه أن يطبع سفرا، يُضاف لسيرته الحافلة بأسفار الكبار.

وفي كتابه هذا، لم يكن الكاتب تقليديا في طريقة عرضه إلى أبواب وفصول وفروع، بل ترك نفسه ليسترسل ومعه القارئ على طريقة تداعي المعاني، ولم يكتف بمدح سمات الرجولة وذم من لا يتحلى بها، بل استحضر أمثلة عملية من واقع الحياة، سمع بها أو كان شاهد عيان عليها.

[1] - سورة يوسف:109

وحَرِص الكاتب على ضرب الأمثلة وسرد المواقف الدالة على الرجولة أو ما يناقضها – فبضدها تتميز الأشياء – من التاريخ أو من الواقع المعاصر، وقبل كل ذلك وبعده استشهد بنصوص من القرآن والسنة والأقوال المأثورة للصحابة والتابعين وعلماء السلف والخلف.

واللهَ تعالى نسأل أن يكون هذا العمل الفريد في بابه ، في ميزان حسناته، إنه سبحانه وتعالى سميع قريب مجيب.

الكاتب والباحث القدير

خالد الأصور

مقدمة المؤلف

لا أعرف هل أتحدث في هذا الكتاب عن الرجولة أم الأخلاق، ولم الحيرة والغرابة، والأخلاق هي الرجولة، والرجولة هي الأخلاق في أسمى معانيها.

لقد رأيت اليوم من واجبي ومن المسؤولية الملقاة على عاتق قلمي، أن يخط اليوم سطوره عن معاني الرجولة، في هذا الزمن والتوقيت والحقبة التي غابت فيها وعنها كثير من ملامح الرجولة المنشودة، والشهامة المأثورة، فالمجتمعات قاطبة كلما غابت عنها سمات الرجولة، كلما تحولت إلى بيئة آسنة، شبت فيها خلال السوء، التي تفسد صورة الإنسان وتسيء إليه ككائن كرمه الله، وما كان له أبدًا أن يكون بهذه الصورة.

والرجولة في حياة أي أمة هي عنصر بقائها وقوتها وعزها، وإذا تجردت منها، فما أيسر أن تنهشها أنياب الغادرين.

وهو السر الكبير الذي أدركه الغرب قديمًا فعمل ونشط على تصديره لأمتنا، واللعب معنا في سبيل تحقيقه، حينما نظر إلى تاريخنا ورأى الرجولة فينا على أسمى وأعز وأوفر ما تكون، فخطط ودبر وتآمر لهدمها ليكون الطريق مفتوحا لانتصاره وسحق وجودنا.

وبدأت مراحل الغزو الفكري التي تعمل ليل نهار، جاهدة في محو هويتنا ومسخ شخوصنا بكثير من الإغراءات والفتن، التي تسلخ المجتمع المسلم من دينه وقيمه، وتدربه على قبول كثير من الطباع والأوضاع والتصرفات التي تجافي الرجولة وصفاتها.

بل إننا اليوم أمام الرجولة والمطالبة بوجودها نجد كثيرًا من العقول والأفهام، تتخبط وتضل في فهم معانيها وتفسير مهمتها، فهي كما قيل: كلمة يساء فهمها دوما.

فمنهم من يظنها في قوة الجسد، أو علو الصوت، أو الاستقواء على الآخرين، أو سيادة الرأي، ومن هنا كان لابد لنا من وضع الأمور في نصابها الصحيح، والعودة بالرجولة إلى موقعها الأثير، وحقيقتها التي عرفها بها التاريخ، ومعناها الواضح المعلوم في حياة الإنسان، وكما قيل: "الرجولة وصف يمس الروح والنفس والخلق، أكثر مما يمس البدن والظاهر، فرب إنسان أوتي بسطة في

الجسم وصحة في البدن، يطيش عقله فيغدو كالهباء، ورب عبد معوق الجسد قعيد البدن وهو مع ذلك يعيش بهمة الرجال، فالرجولة مضمون قبل أن تكون مظهرًا، فابحث عن الجوهر، ودع عنك المظهر؛ فإن أكثر الناس تأسرهم المظاهر ويسحرهم بريقها، فمن يُجلّونه ويقدرونه ليس بالضرورة أهلا للإجلال والتوقير، ومن يحتقرونه ويزدرونه قد يكون من أولياء الله وعباده الصالحين"

يقولون: إنك إذا أردت أن تذم إنسانا بأبلغ الذم، فما عليك إلا أن تنفي عنه الرجولة، وتجرده من الهمة، ليكون ساعتها في أشد أزماته النفسية لأنك طعنته في سر وجوده، وعين كينونته، روى أهل التاريخ والسير في ترجمة الحطيئة – وهو الشاعر المشهور بالهجاء الشديد – أنه قال للزبرقان بن بدر يهجوه :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها ** واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

فلم يحتمل منه الزبرقان بن بدر وهو سيد قومه هذا القول ، فشكاه إلى عمر بن الخطاب ﷺ، فقال عمر: « ما أسمع هجاءً ولكنها معاتبةٌ »، فقال الزبرقان : « وما تبلغ مروءتي إلا أن آكل وألبس؟!، والله يا أمير المؤمنين ما هُجيت ببيت قط أشدّ عليّ منه.. سل ابن الفريعة – يعنى حسان ابن ثابت – فسأله عمر ﷺ. فقال: لم يهجه ولكن سَلَح عليه !! (أي : بال عليه كناية عن شدة الهجاء والإيذاء)

إن غاية منتهى أملك أن تكون شبعاناً كاسياً، وهي التهمة التي كانت في عرفهم سبةٌ لا تغتفر، وهجاءً لا يمحوه إلا الدم! فكيف يكون منتهى أمل الرجل أن يأكل ويشرب ويلبس؟!

هذا هجاء لا يحتمل، وفحش في القول لا يتصور!

وأمام هذا الهول الذي فجع به الخطيئة، ماذا عليه لو علم أنه صار اليوم غاية الناس وآمالهم وأقصى ما يطمحون إلى تحقيقه ووجوده، فالذي يأكل ويشرب اليوم دون عمل أو جهد، كان أسعد الناس وأوفرهم حظا من نعيم الدنيا، غير عابئ بما تعطل لديه من سمات الرجولة.

لقد كان صلى الله عليه وسلم يتطلع إلى ذلك الرجل الذي ينصر الله به الإسلام، فكانت الدعوة من نصيب عمر بن الخطاب ﷺ، وأنت أمام دعوته لا تراه إلا رجلا فردًا واحدًا، فلا هو جيش

من الناس ولا قبيلة من القبائل، ولكنه وبتعبير النبي الكريم رجل، تتحقق على يديه كثير من آمال العزة والنصر، لما يملك من القوة والشجاعة والهمة والقلب الأبي الجسور، وهو ما عبر عنه عبد الله بن مسعود ﷺبقوله: " مازلنا أعزة منذ أسلم عمر" وهو الرجل الذي أبت عليه رجولته كشأن كل المسلمين، أن يهاجر متخفيا، فخرج إلى الملأ وأعلن هجرته متحديًا جموع الشرك أن يكون منهم من يجرؤ على منعه أو اللحوق به.!

بل صاحبته هذه الهمة الرجولية في منذ أول لحظات إسلامه، حينما ألح على النبي الكريم أن يظهر ويخرج إذ قال: " يا رسول الله ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا ؟ قال: "بلى، والذي نفسي بيده إنكم على الحق إن متم وإن حييتم"، قال: ففيم الاختفاء؟ والذي بعثك بالحق لتخرجن" فما كان مثل هذا اليوم أشد كآبة على قريش منه.

وهكذا يكون الرجل الواحد بما تحقق فيه من عناصر الرجولة.. أمة وحده، وجيشا يمنح أمته النصر المظفر.

وبعد.. فما كانت هذه السطور إلا جولة في عالم الرجولة، نرى ونسمع ونقرأ منها وفيها ما يعيد هذا المعنى إلى الأذهان، لتحيا به النفوس، وتتربى عليه الأجيال، وتنشط فينا أخلاق الرجولة، التي ماتت في كثير منا سماتها وأوصافها.

حاتم إبراهيم سلامة

مصر / 2023

للتواصل salama227@gmail.com

ماذا تعني الرجولة ؟

يالضيعة الرجال، ويال مهزلة الذكورة، حينما ذهب صديق لي ليعود جارًا له من أهل السودان مرض مرضًا طفيفًا أقعده لأيام في بيته، يروي لي صديقي أحداث هذه الزيارة، وما لقي فيها وما شاهد أثناءها، كان يخشى أن يكون نوعًا من فتش الخصوصية وفضح الأسرار، ولكنه أمام ما رأى وشاهد من مهزلة الرجولة، لم يتمالك نفسه إلا أن يروي ويتعجب ويتندر.!

دخل صديقي على المريض في حجرته، فوجده ممتدًا بحسده الضخم على سريره، ومن حوله زوار من أهله وعشيرته السودانيين، ومنهم أربعة يفترشون الأرض يلعبون –الكوتشينة– فما كان منهم إلا أن ألحوا عليه أن يشاركهم اللعبة، فنزل وجلس معهم على الأرض حتى يسامرهم مرحهم، ويقضي معهم وقتًا طيبًا، وكان صديقي يرى أن القوم يسلّون أنفسهم بهذه اللعبة ويقضون بعض أوقات فراغهم، أو يشغلون أنفسهم بهذه المباراة تلهية للمريض الذي جاؤوا ليسهروا معه ويؤنسوه في شدته، لكن حدث ما أذهل صديقي وجعله يبكي الرجولة، فما أن انتهى الدور حتى وجد رجلا منهم كبير السن، يخرج أجندة ويسجل فيها ما يلي: في يوم كذا تم هزيمة فلان وفلان في بيت فلان بتاريخ كذا وكذا في دور كوتشينة وقته كذا وكذا لمدة ساعة أو ساعتين، وفي الساعة كذا عصرًا أو ظهرًا أو عشاء.!

دهش الصديق وقال له: ما هذا ياعمنا، ولماذا تكتب ما حدث وهو أمر عارض لا يستحق كل هذا الاهتمام؟ فرد الشيخ وقال له: هذه الأجندة معي من سنة 1984م أسجل فيها النصر والهزيمة في مبارايات الكوتشينة، أسجل المباراة بأسماء اللاعبين ومكسبهم وخسارتهم والتوقيت الذي خسروا فيه أو فازوا، وفي أي مكان كانوا يلعبون، وكيف كانت مباراتهم ووقتها.

حينما روى هذه المهزلة على مسامعي، تحسرت كثيرًا على رجل قضى عمره في هذا الهراء وهذه المسخرة، ويبالغ في الاهتمام بها إلى هذا الحد الذي جعله يعد لها هذا المصنف، ليكون شاهدًا على تفاهته وإهداره لحق الرجولة التي شرخها.!

ما أعلى قدر هذا الرجل لو كانت معه أجندة من هذا العام السحيق، ويكتب ويسجل فيها ما تعلمه من يومه، إن كان قد تعلم شيئا، لا شك أنه ومن هذا الوقت، سيكون من الحكماء أهل البصيرة والوعي والرُشد.

ولا عيب عليه، فإن البيئة التي قام فيها والرجال الذين قام بينهم، بيئة تشجع على هذا الهزل وتثمنه وتتندر به، حتى أوغل فيه إلى هذه الدرجة، ولو كان منهم رجل رشيد، لوعظه ونبهه ووبخه لما يهدره من كرامة الوقت وشرف الرجولة، ومنافسته للصبيان في عالمهم ودنياهم وأفعالهم وحركاتهم.

كنت جالسًا مع شيخ من شيوخي فأخرج أجندتين من القطع الكبير، وقال لي: انظر هاتين الكراستين، إنها بالنسبة لي ثروة لا تقدر بثمن، فقد جمعت فيهما على مدار ثلاثين عامًا، أروع ما سمعت وأجمل ما قرأت من صنوف البيان وأشكال البلاغة والحكمة من العبارات والأشعار والأضابير والحِكم، والمثل والنوادر، ولو أنها طبعت سيكون لها شأن كبير في دنيا الأدب، وحينما تصفحتها وجدتها حقا غنية وافرة مليئة مكتظة بصنوف الحكم والبيان، واليوم ومع حكاية صديقي تذكرت أجندتي الشيخ وقارنتها بأجندة (الزول) سامحه الله، لأقول: ما أبعد الشقة وأفسح البون بين أجندتين.. بل بين رجلين.. بل بين همتين وعزيمتين.!

ويقف الإسلام حول معنى الرجولة يبين أنها لم تكن يوما بالمال والجاه والمناصب، إنما الأعمال الفاضلة والأخلاق الحسنة والإيمان القوي، لقد مرّ رجلٌ على رسول الله ﷺ فقال لأصحابه: «ما

تقولون في هذا؟ قالوا: هذا حريٌ إن خَطَب أن يُنْكح، وإن شَفَع أن يُشَفّع، وإن قال أن يُسْتمع له، قال: ثم سكت، فمر رجل من فقراء المسلمين فقال: ما تقولون في هذا؟ قالوا: هذا حريٌ إن خَطَب أن لا يُنْكح، وإن شَفَع أن لا يُشَفّع، وإن قال أن لا يُسْتمع له، فقال رسول الله ﷺ: «هذا خيرٌ من ملء الأرض من مثل هذا»[1]

إن المظاهر قد تخدعنا إذن عن حقيقة الرجال، تلك الحقيقة التي تمثل قيمة تستقر في النفس، وتبرهن عليها الأفعال والمواقف، لقد علمهم أن الرجولة لا يحكم عليها أبدًا بهذه المظاهر الخادعة.

ولما صعد عبد الله بن مسعود ﷺ على شجرة الآراك ليجلب سواكا لرسول الله ﷺ هبت ريح فكفأته فضحك القوم.

فقال النبي مم تضحكون؟ قالوا: نضحك من رقة ساقيه يا رسول الله. كان نحيف الساق ﷺ، لكنه كان جبلا من جبال الإيمان. ولذلك قال رسول الله: تعجبون من رقة ساق ابن مسعود؟ والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من جبل أحد. الله أكبر!

إن عنوان الرجولة السامية يتجلى في شخص محمد ﷺ، الذي علم الرجال وربى الرجال وكان أول ما علمهم أن الرجل الحقيقي من يركل الدنيا وينتصر للمبادئ، حينما جاءه قومه يساومونه على دينه فقال: «والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن اترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو اهلك فيه ما تركته»[2]

وعلى هذا كان صحبه الميامين ففي دار من دور المدينة المباركة جلس عمر بن الخطاب ﷺ إلى جماعة من أصحابه فقال لهم: تمنوا؛ فقال أحدهم: أتمنى لو أن هذه الدار مملوءةٌ ذهباً أنفقه في سبيل الله. ثم قال عمر: تمنوا، فقال رجل آخر: أتمنى لو أنها مملوءة لؤلؤاً و زبرجداً وجوهراً أنفقه في سبيل الله وأتصدق به. ثم قال: تمنوا، فقالوا: ما ندري ما نقول يا أمير المؤمنين؟ فقال عمر:

[1] - صحيح البخاري
[2] - سيرة ابن هشام 150/1

ولكني أتمنى رجالاً مثلَ أبي عبيدة بنِ الجراح، ومعاذِ بنِ جبلٍ، وسالمٍ مولى أبي حذيفة، فأستعين بهم على إعلاء كلمة الله.

رحم الله عمر الملهم، لقد كان خبيرًا بما تقوم به الحضارات الحقة، وتنهض به الرسالات الكبيرة، وتحيا به الأمم الهامدة.. إنها الرجولة والرجال.

وهذه القصة كما قيل: " تبين لنا أن أغلى ما تملكه أي أمة رجالها، رجالها بمعنى الكلمة لأن هناك الذكور والإناث فليس كل ذكر رجل ، ويقال في لغة العرب عن المرأة (رجلة) إشارة إلى هذا المعنى، وحتى في الكلام الدارج على ألسنة الناس يقولون: امرأة بألف رجل."

لقد حاصر خالد بن الوليد «الحيرة» فطلب من أبي بكر خليفة المسلمين مدداً، فما أمده إلا برجل واحد هو القعقاع بن عمرو التميمي وقال: لا يهزم جيش فيه مثله، وكان يقول: لصوت القعقاع في الجيش خيرٌ من ألف مقاتل!

ولما طلب عمرو بن العاص المدد من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنهما في فتح مصر كتب إليه: "أما بعد: فإني أمددتك بأربعة آلاف رجل، على كل ألف: رجل منهم مقام الألف: الزبير بن العوام، والمقداد بن عمرو، وعبادة بن الصامت، ومسلمة بن مخلد"

فما الذي يا ترى جعل أمثال هؤلاء يعدلون هذه الألوف؟

إنه الإيمان والقوة النفسية، والتربية العالية، والهمة العظيمة، التي تفجرت في ينابيع قلوبهم، فصار الواحد منهم أمة وحدة.

"إن الأمم والرسالات تحتاج إلى المعادن المذخورة، والثروات المنشورة، ولكنها تحتاج قبل ذلك إلى الرؤوس المفكرة التي تستغلها، والقلوب الكبيرة التي ترعاها والعزائم القوية التي تنفذها: إنها تحتاج إلى الرجال.

لرجل واحد أعز من كل معدن نفيس، وأغلى من كل جوهر ثمين، ولذلك كان وجودُه عزيزاً في دنيا الناس، حتى قال رسول الله: (إنما الناس كإبل مائة، لا تكاد تجد فيها راحلة)[1]

[1] - رواه البخاري

الرجل الكفء الصالح هو إكسير الحياة، وروح النهضات، وعماد الرسالات ومحور الإصلاح. أعدّ ما شئت من معامل السلاح والذخيرة، فلن تقتل الأسلحة إلا بالرجل المحارب، صغ ما شئت من القوانين واللوائح، فستظل حبراً على ورق، ما لم تجد الرجل الذي ينفذها، وضع ما شئت من مناهج للتعليم والتربية، فلن يغنى المنهج إلا بالرجل الذي يقوم بتدريسه، وأنشئ ما شئت من لجان، فلن تنجز مشروعاً إذا حُرمت الرجل الغيور!."[1]

وقد يحسب الناس حسبما تملي عليهم أعرافهم، أن الرجولة السن المتقدمة والعمر الكبير، ولكننا كثيرا ما نرى شيوخًا وهمتهم همة الأطفال، نفوسهم تتعلق بما يتعلق به الصغار، فيخيل إليك أنك أمام طفل صغير، في هيئة رجل كبير له لحية وشارب، يقدم على توافه الأمور، وتشعله الصغائر، ضحل الرأي، خامل العزم خائر الجد.

وعلى العكس تماما حينما نرى غلامًا في مقتبل العمر، ولكننا نبصر الرجولة المبكرة في قوله وعمله وتفكيره وخلقه.

قيل ليحيى بن زكريا ـ وهو طفل لم يبلغ الحلم: هيا بنا نلعب؟! قال: ما للعب خلقنا.

ومر عمر ﷺ على ثلة من الصبيان يلعبون فهرولوا، وبقي صبي مفرد في مكانه، هو عبد الله بن الزبير، فسأله عمر: لِمَ لَمْ تعدُ مع أصحابك؟ فقال: يا أمير المؤمنين لم أقترف ذنباً فأخافك، ولم تكن الطريق ضيقةً فأوسعها لك!

ودخل غلام عربي على الخليفة عمر بن عبد العزيز يتحدث باسم قومه، فقال له: ليتقدم من هو أسن منك، فقال: يا أمير المؤمنين، لو كان التقدم بالسن لكان في الأمة من هو أولى منك بالخلافة.

فالرجولة ما كانت في يوم من الأيام بالجسم والسن والعضلات بارزة، والقامة الشاهقة.

وقد ندد الحق تعالى بأمثال هؤلاء فقال:

[1] - من مقال أمنية عمرية أو حاجتنا إلى رجال – د. يوسف القرضاوي

(وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ومع هذا فهم كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ) وفي الحديث الصحيح: (يأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة فلا يزن عند الله جناح بعوضة)[1]، يقول تعالى: (فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً)[2].

وعلى هذا المعنى وبه، نرى الرجولة خلقًا وفضيلة ليست قاصرة على الرجال، فهناك من النساء من يزاحمن الرجال في معاني الرجولة وصفاتها، ويمكن لهن حملها والتزين بها، دون أن تخرق شيئا من أنوثتهن.!

انظر هنا لهذه الصحابية العظيمة،(نسيبة بنت كعب) التي فاقت أفعال الرجال وباعتراف النبي ﷺ وإقراره، فقد شهدت أم عمارة ليلة العقبة وشهدت أحدًا والحديبية ويوم حُنين ويوم اليمامة، وجاهدت وفعلت الأفاعيل، وقُطِعت يدها في الجهاد. قال رسول الله ﷺ: (لَمَقام نسيبة بنت كعب اليوم خيرٌ من مقام فلان وفلان). قال فلان وفلان، أي من الرجال ولم يقل فلانة وفلانة من سيدات جنسها.

وروى عمر بن الخطاب ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: (ما التفتُّ يوم أُحُد يمينًا ولا شمالًا إلا وأراها تقاتل دوني). فلله ما أشجعها وما أشد صلابتها.

وهذه البطلة عمة النبي ﷺ السيدة صفية بنت عبدالمطلب: في غزوة الخندق وضع النبي ﷺ النساء والأطفال في الحصون لحمايتهم، فكانت صفية وأمهات المؤمنين رضي الله عنهن في حصن حسان بن ثابت، وكان من أمنع حصون المدينة، وبينما كان المسلمون منشغلين بقتال عدوهم، تسلل يهودي وطاف بالحصن يتجسس على أخباره، فأدركتْ أنه يريد معرفة أفي الحصن رجال أم أنه لا يضم غير النساء والأطفال، فحملت عمودًا وتلطَّفت حتى كانت في موضع تمكَّنت فيه من عدوها، ضربتْه على رأسه فوقع، فانهالت عليه حتى مات؛ لكي لا ينقل خبرهم إلى قومه، ثم حزَّت رأسه بسكين، وقذفت بها من أعلى الحصن، فطفق يتدحرج حتى

[1] - متفق عليه
[2] - الكهف : 105

استقر بين أيدي يهود كانوا يتربصون في أسفله، فلما رأى اليهود رأس صاحبهم، قالوا: "قد علمنا أن محمدًا لم يكن ليترك النساء والأطفال من غير حُماة"، فعادوا أدراجهم.

يقول كاتب فرنسي "الرجل الحقيقي ليس من يُغري أكثر من امرأة، بل الذي يُغري المرأة ذاتها أكثر من مرة" إنه معنى جميل يعكس المراد مما نريد إظهاره فليست الغاية أن تعجب النساء بمظهرك وجسمك ووسامتك، بل الرجل الحقيقي الذي يبهر امرأة واحد بما يظهر منه من جمال الخلق والسلوك والطبع الحسن.

الرجولة موقف

حدثني أحد أصدقائي من قرية تجاور قريتي: أن رجلا منها، قد قام أحد الكارهين له بالوشاية به لدى الشرطة، وادعى أنه يمتلك سلاحًا أي بندقية؛ يخبئها في زَريبة ماشيته بالحقل.

وفي جنح الليل، فاجأته الشرطة يترأسهم ضابط، ومعه العسس، ومجموعة من الخفر يتزعمهم شيخ الخفر بالقربة.

قبضوا على صاحبنا، فأنكر معرفته بأي شيء، وذهبوا به إلى الحقل، وأحاطوا الزريبة أو الحظيرة، فكلاهما صحيح لغويًا، وأخذوا يفتشون كل مكان وركن فيها، حتى قلبوها عن آخرها، وفي لحظات التفتيش، لمح شيخ الخفر طرفًا من السلاح ظاهرًا في الأرض وعليه حجارتين، فأسرع ووقف عليها ونادى على الضابط بعلو صوته: -أهوة يا باشا فتشنا كل مكان وملقناش حاجة- حتى انصرفت الشرطة وأطلقوا سراح صاحبنا، ليكون البلاغ كيديًا.

وتناقلت القرية كلها حديثها عن شيخ الخفر، وموقفه الشهم، ومروءته وحفاظه على ابن قريته، الذي لم يسلمه للشرطة، حتى يعاقب بقضية ويحكم عليه فيها بالغرامة أو السجن.

كانت القرية كلها تروي الحدث، منبهرة بالصنيع الجميل لشيخ الغفر، الذي حافظ على الأهلية، وراعى الجيرة، واشترى خاطر بلدياته، وحافظ على سلامته، ظلوا يروون النبأ إلى اليوم، رغم تقادم العهد على هذه القصة، وموت صاحبها منذ زمن بعيد، لتكون درسًا في المروءة والنجدة والرجولة والشهامة.

إن الرجولة لا تختص بلدًا دون بلد، ولا بجنس دون جنس، ولا بعرق دون عرق، ولا بأبيض دون أسود، ولا بالغني دون الفقير، ولا بالجميل دون القبيح، ولا بالطويل دون القصير، ولا بالمتعلم دون الجاهل، لأنها عنصر تربوي، وخلق حميد غرسته فيك تربيتك وبيئتك ونشأتك.

فمن الممكن أن تجد متعلما غنيًا جميلا تربى في القصور وحوله الخدم والحشم، ولم تتوفر فيه عناصر الرجولة المطلوبة، ومن ثم لم يكن لها مقياس إلا التربية ومحاضن النشأة والبيئة.

ومن أروع المواقف المشابهة ما حدث مع العلامة الراحل الدكتور (محمد رجب البيومي) طيب الله ثراه حينما كان طالبًا في كلية اللغة العربية بالأزهر الشريف، حيث كان وقتها يكتب في جرائد الإخوان المسلمين، ولما قَتل فرد من الإخوان رئيس وزراء مصر وقتها محمود فهمي النقراشي، توقع البيومي أن يُقبض عليه، لأنه كان ينشر فيها مقالاته الأسبوعية، ويوقعها باسم محمد رجب البيومي، بينما كان اسمه في الكلية، وحسب البطاقة وشهادة الميلاد، محمد أحمد البيومي.

وفعلا حدث ما توقعه حينما أرسلت الداخلية تسأل عنه في الكلية، باسمه المنشور محمد رجب البيومي، ووصلت الرسالة إلى شيخ الكلية الشيخ عبد الجليل عيسى، فأخذته الرحمة عليه، دون أن يكون له به سابق معرفة، واستدعاه بسرعة، وقال له في لهجة أليمة: يا بني إن الداخلية سألت عن محمد رجب البيومي، وليس عندنا هذا الاسم، وهو مخرج نتحلل به مؤقتًا، فقد يفيد في انصراف الطلب عنك، وأنا أعلم أنك لست قاتلا ولا سارقًا ولا زانيًا، ولو كنت كذلك لما

تسترت عليك، ولكني أعرف أنك شاعر تحب الإسلام وتنطق بفضائله، وهذه رسالة الأزهر التي أؤمن بها، وسأكتب بأن هذا الاسم غير موجود لدينا، وعليك فورًا أن تذهب إلى قريتك فتتستر بها دون أن يعرف أحد بمقدمك إليها فيعلن وجودك، ولا تحضر إلى الكلية إلا يوم الامتحان بعد شهرين، وقد تكون الأحوال قد هدأت نوعا ما، هذا ما أشير عليك به، والله المستعان.

وكان هذا الموقف الأبوي الحاني، قد خفف من روع الطالب البيومي بالنبأ الكارثي، وسارع بالذهاب إلى القرية، ودخلها في جنح الليل، وأخبر والديه بما حدث، واختبأ هناك في حجرة فوق السطح ومعه كتبه الدراسية، ولا يدخل عليه أحد إلا والدته بالطعام، وكان والده يصعد إليه بعد العشاء، وقامت والدته بإحراق كل الكتب والمجلات التي يمتلكها، ومن بينها مجلات الإخوان المسلمين، حتى لا تكون هذه المطبوعات إدانة عليه لو جاء البوليس، إلى أن جاء موعد الامتحان، وسافر ليلا إلى القاهرة حتى لا يراه أحد، وأخذ مكانه في القاعة خائفًا يترقب، ودعاه الأستاذ عبد الجليل عيسى، وقال له: ستمر العاصفة، ويكون امتحانك الشفوي بتدبيري في أول يوم لترجع إلى القرية على وجه سريع!

كان هذا الموقف النبيل من الشيخ عيسى، محل تقدير واحترام من البيومي إليه، بل جعله البيومي دينًا وجميلا في عنقه كلما تذكره أو تذكر ما يذكره به.

إن الشيخ عبد الجليل لم ترتعد فرائصه من طلب الداخلية، وكان الأولى به أن يبلغ عن الفتى الشاب، حتى ينجو بنفسه من تهمة التستر على مطلوب للأمن، لقد خاطر بنفسه في نصرة شاب بريء يعلم تمامًا أنه لا علاقة له بشيء، وما مثل هذا الفتى من تطلبه الداخلية أو تدينه بشيء،

وهذا الموقف لا يعبر عن روح الأبوة الحانية، بقدر ما يعبر عن رجل نبيل وشجاع، هو الشيخ عبد الجليل عيسى رحمه الله.

"الرجولة عمل بطولي لا يُصنع في النوادي الرياضية ولا يقاس بأرقام كشوف الحسابات البنكية، لن تصل إليه بالصوت العالي ولن تناله بالاستعلاء على البشر، ليس زرًا تضغط عليه أو ميزة تقتنيها، فأرح نفسك من عناء إثبات رجولتك.. دعك من الرجولة يا سيدي فهي أمر صعب لا يطيقه الكثيرون، إذ لا يمكن لصاحبها أن يعيش على هامش الحياة هائما على وجهه بلا هدف، حياته أسمى من أن تتمحور حول نفسه وأكبر من أن تدور في فلك ممتلكاته، لا خبز له في الادعاء ولا يجيد لعبة الأقنعة ولا يكترث كثيرًا لاعتبارات البشر، يكفيه أن يطرح ما لديه بصدق ولا يهمه بعد ذلك إن صدقته أم لا، فأرح نفسك من عناء إثبات رجولتك.

الرجولة يا سيدي كلمة حق وموقف حق، هي نصرة المظلوم على الظالم وابتغاء وجه الله في كل قول وفعل، هي الأخلاق الكريمة والمعاملة الحسنة، هي الشهامة عند حاجتها والشجاعة في وقتها، هي أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك، هي أن تكون مستعدا للتضحية في سبيل ما تؤمن به، فأرح نفسك من عناء إثبات رجولتك."[1]

انظر إلى دولة مصطفي النحاس باشا وهو الوحيد المتفرد على أرض مصر، أول من سبق اسمه لقب دولة.. كان لقاؤه الأول بسعد زغلول في عام 1909 عندما كان يشغل موضع العضو الشمال في إحدى الدوائر القضائية بمحكمة القاهرة في الدائرة التي يرأسها صالح حقي باشا، وأثناء نظر إحدى القضايا مال رئيس الدائرة علي عضو اليمين وتحدث معه، ثم مال علي عضو الشمال مصطفي النحاس وقال له باستخفاف: سنصدر حكما بكذا ، فقال النحاس: أنا لي رأي آخر، ويجب في هذه الحال الانتقال إلي غرفة المداولة، ولكن حقي باشا لم يستجب لطلب النحاس ونطق بالحكم، فما كان من الأخير إلا أن قال لكاتب الجلسة بصوت عال وعلى مرأى ومسمع من

[1] - من مقال لا تحدثني عن الرجولة – دعني أراها لريم آقبيق بمدونات الجزيرة

جمهور المتقاضين وغيرهم من المواطنين داخل قاعة المحكمة: اكتب أنه لم يؤخذ برأي عضو الشمال في هذا الحكم.

وحدثت ضجة كبري داخل القاعة، مما اضطر حقي باشا إلى رفع الجلسة والانتقال إلى غرفة المداولة، وترتب بعدها بطلان الحكم، ولم يجد حقي باشا ما يشفي غليله إلا أن يشكو النحاس إلى وزير الحقانية وقتها سعد زغلول، الذي استدعي إليه النحاس لتكون المقابلة الأولي بينهما التي أسفرت عن اعتزازه بموقف النحاس، فاصدر قرارًا بنقله قاضيًا جزئيًا تكريمًا وإعجابًا بشجاعته وتمضي مسيرة سعد زغلول الوطنية ليتم تأليف الوفد المصري في نوفمبر 1918 استعدادًا للسفر إلى بريطانيا من ثلاثة من المنتمين للحزب الوطني كان النحاس أحدهم، ومن يومها أصبح النحاس سكرتيرًا عاما للوفد وأقرب الشخصيات إلى قلب سعد.

تربية الرجال

يذكر بعض الكتاب موقفًا مؤثرًا، ومثيرًا للشفقة، وفي ذات الوقت يصدم النفس في مصير الشباب الذين هم عدة الأمة وعماد مستقبلها، صبي في شرخ الشباب يبكي محترق القلب، لأن الفريق الرياضي الذي يشجعه خسر في إحدى مبارياته، ولم يكن مجرد حزن أو بضع دموع قد انحدرت على خديه، وإنما ساقه الأسى لينعقد لسانه عن الرد، حينما حدثه المذيع الذي اندهش من شدة بكائه، كان المشهد عجيبا، فأسرع المذيع إلى الفتى يريد معرفة السبب في هذا البكاء، بل سبقته الشفقة إليه يريد تطييب خاطره ومواساته كما لوكان مات له عزيز قريب، ولكن الحزن القاتم على صدره وقلبه أخرس اللسان، فلم يستطع أن يتم الحديث وترك المُحاور وذهب غارقا في بكائه المر.

إن هذه الصورة المحزنة، لم تكن من تدبير كاتب أو مخيلة قاص، وإنما كانت مشهدا واقعيا يملأ القلوب حسرة على ما وصل إليه حال أبنائنا وغاياتهم وهممهم وتربيتهم، حينما تغيب التربية والقدوة والتدريب على المعالي ومعالم الرجولة المبكرة، غاب كل ذلك فأضحى الكثير منهم فريسة للضياع والتوافه والصغائر، وأصبح من المستحيل عليهم أن يحملوا هم أمة، ومستقبل دين، ونخوة موقف، بطولة ميدان.

"وعلى الجانب الآخر كانت صورة مؤثرة أيضا لكنها مبهرة مدهشة تثير الفخر والإعجاب والطمأنينة والتقدير، لصبي آخر في نفس عمر الصبي الباكي على هزيمة الفريق، كان يبكي كذلك.. لكن بكاءه شأن غير شأن سابقه، فالبكاء هذه المرة "كان في حلقة لختم القرآن الكريم، حين بلغ الصبي المبارك سورة الإخلاص والمعوذات فخنقه البكاء، وسالت عبراته حتى أوقفته مرات عن متابعة القراءة، لقد كانت دموع الشكر لله على نعمته وتوفيقه بختم كتابه وحفظه، دموع الفرح بالطاعة والإحساس بعظمة الإنجاز بعد الجهد المضني والمتابعة الحثيثة، دموع العرفان بالجميل للشيخ المؤدب، والتوقير والتعظيم للوالد المربي، وبمجرد أن انتهى البطل الحقيقي من تلاوته، وفرغ من ختمته، خر ساجدا لله شكرا، وسجد معه أبوه جزاهما الله خيرا، ثم قام الحافظ فقبل رأس شيخه ورأس والده، في مشهد ذرفت له عيون الحاضرين وحق لها أن تدمع.

لكن.. شتان ما بين الصورتين، وما أبعد ما بين الصبيين، وما أعظم الفارق بين الهمتين. وحتى لا يمر الأمر دون فائدة نقول: إن هذه الهمم هي التي تصاغ منها انتصارات الأمم، فقدر كل أمة على قدر همم أهلها، فإذا طغت همة الأول على همة الثاني، فغلبت التفاهات على عظائم الأمور والمهمات، سقطت الأمة وضاعت بين الأمم، ولعل هذا ما يفسر بعض ما نحن فيه من ضعف ووهن وذل وانكسار.

إن عودة إلى جيل النصر وأصحاب التمكين، وخير القرون، وجولة بين همم صبيانهم وشبابهم تبين سبب نصرهم، ومفتاح تمكينهم.. حين كان أبناء السابعة عشرة يقودون الجيوش ويسقطون العروش ويفتحون البلدان، وأبناء الرابعة عشرة والخامسة عشرة يتطاولون بالوقوف على أطراف أصابعهم عند عرضهم على النبي ﷺ خوفا أن يردهم، ويبكون وجلا فوات الجهاد ونيل الشهادة في سبيل الله رب العالمين." [1]

ونفس هذا المشهد ما سجله التاريخ حينما بعث الصليبيون أحد جواسيسهم إلى أرض الأندلس المسلمة، وبينما الجاسوس يتجول في أراضي المسلمين، إذا به يرى غلاما يبكي وأخر بجواره يطيب من خاطره، فسأله الجاسوس: ما الذي يبكي صاحبك؟ فقال الشاب: يبكي لأنه كان يصيب عشرة أسهم من عشرة في الرمي، لكنه اليوم أصاب تسعة من عشرة، فأرسل الجاسوس إلى الصليبيين يخبرهم: (لن تستطيعوا هزيمة هؤلاء القوم فلا تغزوهم).

ومرت الأعوام وتغيرت الأحوال وتبدلت معها الهمم والهموم، وجاء جاسوس صليبي آخر إلى أرض المسلمين مرة أخرى، فرأى شابين أحدهما يبكي والآخر يطيب خاطره، فسأله الجاسوس: ما الذي يبكي صاحبك؟ فأجابه: إنه يبكي لأن فتاته التي يحبها قد هجرته إلى غيره، فأرسل الجاسوس إلى قومه: (أن اغزوهم الآن فإنهم مهزومون(

وكانت امرأة من الأعراب لما سئلت عن تميز ولدها أجابت: "إذا أتم خمس سنين أسلمته إلى المؤدِّب، فحفظ القرآن فتلاه، وعلمه الشعر فرواه، ورُغِّب في مفاخر قومه، ولُقِّن مآثر آبائه وأجداده، فلما بلغ الحلم حملته على أعناق الخيل، فتمرَّس وتفرس، ولبس السلاح ومشى بين بيوت الحي، وأصغى إلى صوت الصارخ"، فهكذا إذًا ينشأ الصبيان على الرجولة، وليس ذلك غريبًا، فقد تسابق لغزوة أحد غلامين، وكانا دون الخامسة عشرة فلم يأذن لهما النبي بالقتال، حتى أُخبر أن أحدهما واسمه رافع رام بالقوس فأجازه، فبكى صاحبه سمرة وقال: يا رسول الله

[1] - من مقال (اغزوهم الآن.. فإنهم مهزومون) موقع إسلام ويب

أتقبل رافعًا ولا تقبلني وأنا أصرعه؟ فتقاتلا فصرع سمرة رافعًا فأجازه النبي، فانظر إلى حماسهما للجهاد والتضحية بأنفسهما في سبيل الله.

وكانت صفية عمة الرسول ﷺتضرب ولدها الزبير وتقسو عليه وهو صغير، فعاتبها أحد أعمامه وقال: ما هكذا يُضرب الولد؛ إنك لتضربينه ضَرْب مُبْغضة فرجزت به صفية:

مَنْ قَالَ إِنِّي أُبْغضه فقد كـذب* وَإِنَّمَا أَضْرِبُهُ لِكَـي يَلَبْ

وَيَهْزِمَ الجَيْشَ وَيَأْتِـي بَالسَّلَبْ* وَلا يَكُن لِمَالِهِ خَبْأٌ مُخَبْ

لقد كان الإسلام عظيما في تربيته للرجال، وتلقين النشء الصاعد معاني الشجاعة والجرأة والفداء والنخوة.. روى البخاري – بسنده- (عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، قَالَ: «إِنِّي لَوَاقِفٌ يَوْمَ بَدْرٍ فِي الصَّفِّ فَنَظَرْتُ عَنْ يَمِينِي وَشِمَالِي فَإِذَا أَنَا بَيْنَ غُلَامَيْنِ مِنَ الْأَنْصَارِ حَدِيثَةٌ أَسْنَانُهُمَا، فَتَمَنَّيْتُ أَنْ أَكُونَ بَيْنَ أَضْلَعَ (أي أقوى) مِنْهُمَا فَغَمَزَنِي أَحَدُهُمَا، فَقَالَ يَا عَمِّ أَتَعْرِفُ أَبَا جَهْلٍ؟ قُلْتُ نَعَمْ، وَمَا حَاجَتُكَ إِلَيْهِ. قَالَ أُخْبِرْتُ أَنَّهُ يَسُبُّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ رَأَيْتُهُ لَا يُفَارِق سَوَادِي سَوَادَهُ حَتَّى يَمُوتَ الْأَعْجَلُ مِنَّا (يُقسِم على قتله) فَتَعَجَّبْتُ لِذَلِكَ، فَغَمَزَنِي الْآخَرُ؛ فَقَالَ لِي مِثْلَهَا؛ فَلَمْ أَنْشِبْ (فلم ألبث) أَنْ نَظَرْتُ إِلَى أَبِي جَهْلٍ يَجُولُ فِي النَّاسِ، فَقُلْتُ: أَلَا تَرَيَانِ، هَذَا صَاحِبُكُمَا الَّذِي تَسْأَلَانِ عَنْهُ، فَابْتَدَرَاهُ (أسرعا إليه) بِسَيْفَيْهِمَا فَضَرَبَاهُ حَتَّى قَتَلَاهُ، ثُمَّ انْصَرَفَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَخْبَرَاهُ، فَقَالَ: أَيُّكُمَا قَتَلَهُ؟ قَالَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا: أَنَا قَتَلْتُهُ، قَالَ هَلْ مَسَحْتُمَا سَيْفَيْكُمَا؟ قَالَا: لَا. قَالَ: فَنَظَرَ فِي السَّيْفَيْنِ، فَقَالَ: كِلَاكُمَا قَتَلَهُ، وَقَضَى بِسَلَبِهِ (أي حكم بالغنيمة منه) لِمُعَاذِ بْنِ عَمْرٍو، وَالْآخَرُ معاذ بن عَفْرَاءَ»[1]

"هكذا ربَّى الإسلام رجالًا، ولم ينتظر هؤلاء حُكم الأيام لتكشف عن رجولتهم فأعلنوها مدويةً لا تلوى على أحد.. لم يهابوا السنان والطُّعان.. بل لم يهابوا حتى ما تعلنه البديهة من أن

[1] - رواه البخاري ومسلم

مطاردة هذا الأبي جهل وهو من هو في حروب العرب ووقائعهم.. مطاردة رجل خطير كهذا هي عمليةٌ استشهاديةٌ بكل المقاييس.. ولكنها الرجولة يُرضعها الإسلام بنيه"[1]

وفي تاريخنا الإسلامي كان الأطفال على مستوى الحدث والقضية، فلم يكونوا في معزل عن ملاحم أمتهم وقضاياها، حينما كانوا يعايشونها ويتفاعلون معها، فقد كان الصبية يتسابقون للمشاركة في الجهاد والغزو مع الرسول ﷺ، لكنه وهو الرحمة المهداة يردهم لصغر سنهم، ويراعي طفولتهم المهيضة، فيرجعون وهم منفطرون بالبكاء.!

وحينما رجع خالد من مؤتة منسحبًا ومحافظًا على جيش المسلمين، كان الأطفال أول من تلقاه وجيشه يعيرونهم بقولهم: يا فرار.! وقف الرسول العظيم ﷺ يردهم عن ذلك ويقول: بل هم الكرار إن شاء الله.

وفي ترجمة عمير بن أبي وقاص عن سعد أخوه قال: رأيت أخي عمير بن أبي وقاص قبل أن يعرضنا رسول الله ﷺ يوم بدر يتوارى فقلت: مالك يا أخي؟ قال: إني أخاف أن يراني رسول الله ﷺ فيستصغرني فيردني، وأنا أحب الخروج لعل الله أن يرزقني الشهادة. قال: فعرض على رسول الله ﷺ فاستصغره فرده فبكى، فأجازه، فكان سعد يقول: فكنت أعقد حمائل سيفه من صغره فقتل وهو ابن ست عشرة سنة.[2]

لقد بدأت طفولة صلاح الدين الأيوبي في العراق، وكان يخرج مع الصبية لكي يلعب، وفي أحد الأيام مر به أبوه وهو يلعب فرفعه للأعلى وقال له: "ما تزوجت أمك وما أنجبتك لكي تلعب مع الصبية، ولكن تزوجت أمك وأنجبتك لكي تحرر المسجد الأقصى" وأسقط به للأرض، فتألّم صلاح الدين، فقال له أباه: "ما كان لمحرر الأقصى أن يصرخ"، فبذلك زرع أباه لديه الهدف النبيل لكي يكبر ويحققه، وفي هذه المرحلة خرج إلى مصر، ليكون بجانب عمه أسد الدين الذي

[1] - من مقال -التربية على الرجولة وبناء الرجال- د. محمد عبد المعطي بموقع الألوكة
[2] - الإصابة في معرفة الصحابة لابن حجر

كان وزيراً، وكان صلاح الدين يحسن التدبير والقدرة على معالجة الأمور بسياسة، لذلك كان يُسير كل أمور الدولة، وبعد وفاة أسد الدين استلم الأمور ليصير السلطان صلاح الدين، والذي كان هدفه محاربة الصليبين، وتحرير بلاد المسلمين من قبضتهم.

أعجبني ما طرحته إحدى التربويات من نصائح وطرق لتلقين النشء معاني الرجولة وتعوديهم عليها، وهي نقاط مهمة أُدرجها هنا لتكون تبصرة لنا ببعض ما يجب علينا فعله نحو الصغار الذين نريد منهم أن يكونوا رجالا نفخر بأخلاقهم وسموهم ومواقفهم.. وحينما نتأمل مثل هذه النقاط ونحاول تطبيقها، فإنها سوف تثمر لا شك عن نفوس سوية مقدرة.

تقول الكاتبة منى إمام:[1]

"اجعله يجلس في مجالس الرجال وتعمد احترامه أمامهم وعدم التقليل من شأنه وإعطائه قدره وعدم توبيخه أمامهم.

- الحفاظ على هويته كرجل، بمعني الحرص علي تجنبه أشكال الميوعة التي نراها الأن مثل الرقص والتمايل مثل النساء وتسريحات الشعر الخاصة بالفتيات.

- أجعله أكثر جرأة في المواقف التي تعزز ثقته في نفسه أكثر مثل أن يأذن أو أن يقيم الصلاة أو أن يتحدث أمام الغير وبالطبع مع تعليمه كيف يتحدث أمام الغير بشكل لائق لكي يكون أكثر ثقة في نفسه.

- تعليم الولد على تحمل المسؤولية حتي وأن كانت في شيء بسيط مثل أن يمسك جزءا من ميزانيه المنزل أو أن تعطي له مصروفه بشكل أسبوعي أو شهري حتي يتعلم كيف يحسن التصرف.

[1] - من مقال بصحيفة أخبار اليوم تحت عنوان (17 قاعدة تساعدك على تربية ابنك على الرجولة) بتاريخ الثلاثاء، 02 فبراير 2021

-لا داعي للتدليل الزائد بمعني لو الأم مريضة تحاول أن تتحمل أكثر من طاقتها لكي تقوم بخدمته رغم عدم القدرة لكن يمكن أن تطلبي منه أن يساعدك ويقوم بعمل أي شيء معك، فهذا يغرس فيه أن مساعده الأم في المنزل أو الزوجة فيما بعد لا ينقص من رجولته شيء.

- تعليم الولد أن كلامه وعد ويجب أن ينفذ ما يقول لكي يفهم أنها صفه مهمه في الرجال.

- تجنب كلمة أنت رجل والرجل لا يبكي حتي لا يتعلم الجمود وتبلد المشاعر، لان الرجل مثل باقي المخلوقات لديه مشاعر يبكي ويحزن.

- تعليم الولد على كيفيه الدفاع عن النفس وهذا لا يعني أن تعلمه أن اللي يضربك أضربه، بالطبع لا ولكن أن يتعلم كيف يدفع الضرر عن نفسه.

- إذا عاد الأب ويحمل طلبات المنزل يتم تعليم الولد أنه يحملها وأنه يقوم بفتح الباب وليس البنت وإذا كان يوجد في المنزل أحد -الصنايعية- يقف معه.

- تعليمه عندما يدخل البيت أي شخص ويخرج منه لا يأتي بسيرة أحد منهم إلا بالخير، وأنه لا يسخر منهم ولا يوصف حياتهم حتى يتعلم أن البيوت لها حرمه.

- تعليمه في حالة الأم حينما تمرض فيدخل يقول لها: ألف سلامه ويكون حنون.

- تعليمه إذا كان الأب مجهدا من عمله يدخل يقول له: سلامتك حتى يتعلم أنه يجبر الخواطر ويراعي المشاعر.

- يعلم الولد أن العمل ليس عيبًا.

- تجنب الطرق المبالغ فيها بمعني أن يكون جميع طلباته مجابه، لأن هذا سوف يجعله لا يستطيع تحمل أعباء الحياه فيما بعد وسوف يظل معتمدا على والديه في تلبيه جميع طلباته.

- نجعله يقرأ قصص الأبطال السابقين مثل خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وغيرهم أو أن يسمع أفلاما عنهم.

- كن قدوه له حاول أن تفعل أمامه ما تود أن يفعله هو في يوم من الأيام، لأن الطفل يحاكي ويقلد، فلا تكذب أمامه وتطلب منه أن يكون صادقاً.

- أجعل ابنك يحبك ولا يخاف منك، لأنه إذا أحبك سوف يقلد كل شيء جميل يراه منك، أما الخوف فسوف يأتي يوم عندما يكبر ويذهب ذلك الخوف وتبقي الكراهية."

أخلاق الفرسان

تعلمنا من الأدب وعرفنا من صفات الفرسان، أن الإنسان الشهم الشريف النبيل هو الذي يرفض أن يجهز على جريح، ويأبى أن يُهاجم أعزلا، ويسوؤه أن يصدر حكمه على ضعيف، أو ينازل مغلولاً أعيته القيود.!

ولعل هذه الصورة القميئة تجدها بوفرة في دنيا الإعلام، وخلف الشاشات التي يديرها فجرة أفاكون، درجوا على تزييف الحقائق ونشر الأباطيل، والنهش في لحوم الأبرياء المستضعفين وهم في قمة عجزهم وغيبتهم، ليعلنوا رحيل الشرف غير مأسوف عليه، وإذا كان هؤلاء في عصر العلم وزمن الحضارة والتقدم، فإن الجاهلية تُعلن بكل جرأة، أنها أشرف وأنبل من زمانهم، حينما فشت فيها الشهامة والمروءة وأخلاق الفروسية السامية.

قرأت يومًا أن (عمرو بن معد يكرب) تقاتل مع أحد أعدائه من الأبطال الأشداء، وحينما كانا يتبارزان، ضرب عمرو سيف خصمه ضربة شديدة فكسره من نصله، فوقف ذلك الرجل ينظر

إلى عمرو مذهولاً خائفاً بين يديه، فأخفض عمرو سيفه وأدخله في غمده وقال للرجل: ليس من المروءة أن أقتلك وقد أصبحت أعزلاً ثم تركه خلفه ومضى.!

وما زلت أتذكر الهزيمة المرة التي تجرعها المسلمون في أحد، فقُتل بعضهم وتفرق البعض الآخر متخفياً في الجبال، وجاء أحدهم إلى أبي سفيان وقال له: يا أبا سفيان إن يثرب الآن سهلة المطلب والمنال غير منيعة، فهلم إليها، فقال له أبو سفيان: وكيف نُهاجم يثرب، وليس فيها سوى النساء والأطفال من بني عمِنا؟[1]

وفي حمأة العداء بين علي ومعاوية رضي الله عنهما، ذُكر أن أحدهم جاء بعد معركة صفين إلى معاوية بن أبي سفيان ﷺ وقال له: اصطنعني، إني خبير في أمور الحروب، وأعرف كيف أتعامل مع شؤون زوارك وندمائك، ولقد جئتك من أجبن الناس وأبخلهم وألكنهم. فقال له معاوية: من تقصد؟ فقال الرجل: أقصد علي بن أبي طالب. فقال له معاوية: كذبت يا فاجر، أمَّا الجبن فلم يك قط فيه، وأمَّا البخل فلو كان له بيتان بيت من تبر وبيت من تبن لأنفق تبره قبل تبنه، وأما اللكن فما رأيت أحداً يخطب أحسن من علي إذا خطب.

ما هذه القيم العظيمة التي تمثل جداراً وحداً فاصلاً لا يجوز هدره أو تعديه، مهما كان الخلاف ومهما كان العداء.. وأين هي اليوم من دنيانا وحياتنا وأخلاقنا؟! ألا ما أحوج الكثيرين اليوم أن يتدبروا هذه المواقف، ويحاولوا تطهير أنفسهم من هذه الأحقاد التي تشوه صورة الإنسان، بل ما أحوجنا أن نخجل من هذه النفوس حينما تفوقت عليها الجاهلية في أشكال المروءة.

بعد قيام انقلاب 52 قامت المحكمة الثورية باستدعاء الأديب الكبير (محمد حسين هيكل) رئيس حزب الأحرار، ليشهد شهادة تدين غريمه (فؤاد سراج الدين) أبرز رموز حزب الوفد، وما بين

[1] - من مقال شرف الخصومة لحسين إبراهيم بمجلة الرأي 26 مارس 2010

الوفد والأحرار، عداء كبير وخصومة عنيفة، وكانت فرصة كبيرة لهيكل حتى يشفي غليله وينتقم لحزبه ويشوه صورة خصمه، لكن هيكل باشا فاجأ من ظنوا فيه تدني الخلق وصغار النفس، فأعلن في صراحة مدوية، بأن منابر المجالس النيابية لم تشهد نائباً ولا شيخاً في ذكاء فؤاد سراج الدين وبراعته، إلا في النادر من الرجال، ولما انتهى من شهادته، هنأه بعض حوارييه في هذا الموقف الشهم فقال له: وهل كنت تنتظر مني غير ذلك؟ أأحارب خصماً وهو في مأزق؟!

وإذا كان هيكل القديم يبهرنا بأخلاق الفارس النبيل، فإن هيكل الجديد، لم يكن على مستوى الحدث حينما ألف كتابه عن قضية (مصطفى أمين) التي اتهم فيها بالتجسس، وسُجن بسببها تسع سنوات في عهد عبد الناصر، حيث كانت بينهما حساسيات، خصوصاً بعد خروج مصطفى أمين من السجن، وهو ما جعل الكثيرين يقدرون كتاب هيكل وتصرفه، بأنه عمل غير أخلاقي، لأن مصطفى أمين رحل عن الحياة، وغير موجود حتى ينافح عن نفسه.!

إن هذه الأخلاق السامية والتصرفات الرجولية، لا يقوى عليها إلا الأوفياء من الرجال أصحاب الخلق الرفيع، والنفوس الحرة والطباع السامية.

مع صفحة جديدة من صفحات الإنصاف، وإن شئت فقل صفحات المروءة والأخلاق والإنسانية والضمير والنزاهة والشهامة والرجولة.

ننظر إلى تلك الصفحات التي تحمل إلينا هذه الأخبار من زمن غابر، وبين ما نجد من عصرنا اليوم لنجد بونا شاسعا بين أخلاق الناس، وطبيعة الزعماء، وديدن الأحزاب المتصارعة.

نتعلم من عصرنا اليوم طبيعة الصراعات السياسية، والتي تتحول إلى عداء وخصومة، لا مثيل لها في درجات البغض والكراهية، حتى أن أحدهم يمكن أن يتحالف مع الشيطان، حتى يغلب

خصمه ويمحو ذكره، السياسة في هذه الأيام، خرقاء لا تتمتع بروح الفروسية وسمات الشهامة، ونجد في أتونها أول تلك التهم التي يجهد الخصوم في اتهام بعضهم بعضا بها، هو الخيانة للوطن والعمالة مع المتآمرين عليه.

لكن الساسة قديما كانوا على أخلاق أخرى غير هذه الأخلاق الوضيعة المنكرة، التي لا يمكن لأصحابها أن يقوم على أيديهم وطن، أو تحيا بهم نهضة، أو تعز برايتهم أمة.

كان هناك صراع كبير بين حزبي الأمة ممثلا في أحمد لطفي السيد، والحزب الوطني ممثلا في مصطفى كامل، فقد كان لكل منهما أسلوبه في التعامل مع المحتل، والتي تختلف عن صاحبه.

ومع الأيام في مستجدات السياسة تأججت الخصومة السياسية بين الحزبين والصحيفتين والرجلين، لقد كانت خصومة حادة عنيفة، وكل منهما يكيل لصاحبه أحدّ الكلمات وأنكى التهم، التي تعجز عن حملها الجبال، ولكنها ورغم شدتها لم تكن تخرج عن نطاق الإنصاف والرجولة، أو تنحدر لتلك الوعور المجردة من الأخلاق، وكما كانت الخصومة تشتد بينهما على الورق، فقد كانت عنيفة لا تفرق عنها في الخطب الساخنة الرنانة.

كان لطفي السيد كما قيل: هادئا عقلانيا متوهج العقل، بينما كان مصطفى كاملا عاطفيا متوهج العاطفة، ولم يتوقف هذا الخلاف والسجال بين الرجلين يوما واحدا.

كان الحزب الوطني- بزعامة مصطفى كامل - يطالب بالجلاء، ويهاجم الاحتلال، ويتبع سياسة المعاندة مع المحتلين على صفحات « اللواء » بينما كان وحزب الأمة، يطالب بالإصلاح التدريجي ويسالم الإنجليز، ويطالب بأن تنفصل مصر عن تركيا، وكان المعبر عن كل هذه الآراء هو« لطفى السيد » فيلسوفه ورئيس تحرير صحيفته «الجريدة »

وفي قمة تلك الخصومة، مات مصطفى كامل، وكان قد نجح قبل وفاته، وبعد نضال شاق، في استصدار قرار بالعفو عن المحكوم عليهم في قضية دنشواي: لهذا جاءت وفاته المفاجئة صدمة قاسية للشعب، وحزنت عليه الأمة وهو في أزهى شبابه لم يتخط الرابعة والثلاثين.

وكان متوقعًا أن ما كان بينه وبين لطفى السيد من خصومة سياسية، يمكن أن تقصر على ما يؤديه على الواجب الإنساني في رثائه، أو مجاملة أسرته، ومجاملة مصر في فقده، ويقول د. هيكل في مذكراته: "إنه حرص على أن يقف من أستاذه شخصيا على حقيقة رأيه في هذه الفاجعة القومية، فذهب غداة مشهد الزعيم الشاب إلى سراى البارودي - مقر الجريدة - وصعد السلم يريد أن يستأذن على لطفى السيد كعادته، وكان عجبه شديدا حين رأى باب حجرته مفتوحا على مصراعيه، و رأى حاجبه لا يمنع أحدًا عن الدخول، ودخل الحجرة فرأى بها عددًا كبيرًا غير مألوف من الزوار الذين أحاطوا بالمنضدة الطويلة الممتدة أمام مقعد لطفى، وكان عجبه أشد من ذلك، حين رأى أستاذه وقد ارتدى السواد، واشتمل عنقه برباط أسود كبير، ووقف وكانه فجع في أعز الناس عليه وأقربهم إليه.

وقف هيكل مبهوتا أمام منظر لم يكن يتوقعه، ثم انسحب ولم يرد أن يطيل السماع لحديث لم يكن يألفه من قبل، لأنه لم يكن حديث المنطق الذي تعوده من لطفي، بل كان حديث مأتم، تجرى فيه العواطف أدمعا أو ما يشبه الأدمع، فلما ظهرت الجريدة بعد ذلك اليوم، كان لطفى السيد أول داع لإقامة تمثال لمصطفي كامل، ولجمع التبرعات الشعبية لهذا الغرض، وأثار هذا عجب د- هيكل، لم يسعفه منطقه الشاب بما يرضاه عقله تفسيرًا لما رأى وما سمع، ولم يستطع أن يقنع نفسه بأن السياسة يمكن أن تبلغ من مخالفة المنطق المتوقع بين الخصمين هذا المبلغ.. فكتم ما في نفسه

حتى أفضى به إلى أستاذه لطفى السيد بعد أيام، فابتسم الأستاذ قائلا له: إنه ما زال صغيرا لا يقدر مثل هذه المواقف.

إنها الإنسانية وإن شئت فقل الأخلاق، وإن شئت فقل الرجولة والإنصاف والشهامة، التي تتغاضى عن كل الخصومات في المحنة الإنسانية، وياله من درس عميق في الفضيلة لا يجب أن يتمثله أصحاب السياسة فقط، وإنما كل إنسان حين يصعب عليه أن يمثل للقيم في وقت الفواجع، التي تلغي وتحذف معها أي شقاق أو خلاف أو عداء.

كان (واصف بطرس غالي) باشا رجلا وطنيا منصفا، ورغم كونه مسيحيًا إلا أن ذلك لم يمنعه أن ينصف في شهادته ومكتوباته، حينما شهد بالمروءة العربية والفروسية الإسلامية الإسلامية، أمام من ينكرونها أو يتغافلون عنها ويتباهون بما أثر عن الغرب، ليثبت أن العرب في ميدان الفروسية من أسبق الأمم وأنصعهم سيرة وأفخرهم مسيرة، فقد ذكر في كتابه تقاليد الفروسية عند العرب سموهم ورفعة نفوسهم.

ذكر مثلا "سماحة الأمير الأندلسي عبد الرحمن الثالث حين أذن لعدوه (سافن) أمير ليون أن يفد إلى قرطبة فيستشير أطباءها المسلمين في علاجه ثم يرجع معززاً محفوفاً بالرعاية الإسلامية، في حين يستضيف ملك قشتالة المسيحي أبا سعيد ملك غرناطة ، فتعجبه جواهره ، وإذ ذاك تدفعه الأنانية اللئيمة إلى قتله غدراً وهو فى ضيافته ليستولى على ذهبه وفضته ؟

ثم يستطرد إلى موقف ملك مراكش المسلم من الملك الفونس الحكيم حين استغاث به مستنصراً، فعبر إليه الملك المراكشي البحر ملبياً نداءه عن شرف وهمامة، وقد أراد ألفونس أن ينزل عن منزلة الصدارة والشرف لهذا الباسل الذي خف إلى نجدته، فقال له الملك المسلم ما نصه: (إن لك

مجلس الشرف ما دمت مغلوباً على أمرك، ولقد أتيتك لأعينك على تأديب عاق غادر؟ فمتى أديت هذا الواجب وأصبحت قوياً مهاباً، نازعتك كل شيء وناصبتك للعداء من جديد).

ولا يترك المؤلف موقف الأريحية والبطولة لدى غلوة الإسلام في الحروب الصليبية، إذ يتحدث فخوراً عن موقف نور الدين محمود حين امتنع عن انتهاز فرصة موت (بودان) فلم يشأ أن يستعيد عسقلان إذ ذاك قائلا: (إنى لو فعلت ذلك الأهدرت قيم الإنسانية، واستهنت بآلام شعب يبكى مولاه، ولأخللت بشرفي الحربى حين أهاجم منكوبين لم يتأهبوا للدفاع عن أنفسهم، ثم يقرن ذلك بما فعله ريتشارد قلب الأسد عندما دفعه جبنه إلى إصدار أمره بذبح أسرى عكا سنة ١١٩١، رغم ما نصت عليه المعاهدة من تأمين حياتهم وحرياتهم.!

وإذا كنا نعرف ما اقترفه الصليبيون حين فتحوا بيت المقدس من استئصال العجزة من النساء والأطفال والشيوخ، حتى كانت الخيل تفوض إلى بطونها في مسيل من الدماء، فإننا نقرن هذه الوحشية الديسة بنماذج مختارة مما سطره الأستاذ واصف، وهي من التيقن والثبوت بحيث اعترف بها كبار الخصوم من مؤرخي الغرب المسيحي، ولعلهم كانوا يمسحون عرق الخزي من وجوههم حين يقرنون توحش فرسانهم النصارى بسماحة المسلمين العادلة، أو أصاغوا إلى الحق مجرداً من الأهواء والفنون.

في ميدان الحروب الصليبية – تجد من الأمثلة الكثيرة – صلاح الدين الأيوبي يُظهر روح التسامح نحو خصيمه ريتشارد قلب الأسد حين يسمع بمرضه، فيرسل إليه ما طلبه من الدواء والكمثرى والخوخ والثلج، وهو يهذى في سكرات الحمى، متناسياً ما صنعه بأسرى عكا من قبائح، كما تجد الملك الكامل يقابل قائد الحملة الصليبية على دمياط (جان دى برين) فيجده منفطر القلب من البكاء، وإذ ذاك يسأله عن سر بكاله فيقول في ضراعة: من حتى يا مولاي أن أبكي وقد رأيت

الشعب الذي عهد الله به إلىّ يهلك من البرد والماء جوعاً، فيتأثر الملك الكامل ويرقى راحماً، ثم يأمر بإرسال ثلاثين ألف رغيف الصليبيين، ويفعل بضعة أيام متتاليات.!

أما في ميدان أوربا بالأندلس فيذكر الأستاذ واصف غالى عنه من نوادر الوفاء والنبل ما يفوح عبيره في صفحات الكتاب دالا على كمال المروءة، ونبالة الأريحية، ومن ذلك على سبيل المثال ما روى عن المنصور بن أبي عامر حين حاصر يوماً في شعب ضيق فرقة كبيرة من جنود الإسبان وأصدر إليهم الأمر بالتسليم، ولكنهم صمموا على الهلاك والاستئصال دون أن يجيبوا إلى الاستسلام! فأمر المنصور في مروءة منه أن يفتح لهم الطريق، رافعاً عنهم الحصار، مؤثراً في مروءة نادرة أن يرسل لعدوه نجدة كبيرة، على أن يأمر باستئصال هؤلاء، وقد وقعوا في المأزق الكريه، ولقد حكى المؤرخ الإسباني موسدن عنه أنه كان يدمر المدن بالحديد والنار حين تناهض المقاومة جيوشه، ولكنه لم يسمح بأهون شر يحيق بمدينة تستسلم دون عصيان!" [1]

فهل رأينا أخلاقًا في رحمة الخصوم والرفق بهم، كما رأينا من المسلمين، وهي الأخلاق التي حثهم عليها دينهم؟!

نصرة المظلوم

ارفض الظلم مهما كانت الموانع، تبرأ منه، قاوم أصحابه.. إياك أن تقبل أن يقع الظلم بأرض أنت فيها.. واس المظلومين، امض معهم في إنصافهم ممن ظلمهم، أثبت لهم حقوقهم، ليثبت الله قدميك يوم القيامة على الصراط، فتلك لعمري هي الشهامة المرجوة، والرجولة السامية.

وهو الخلق الرجولي الذي ربى عليه محمد ﷺ أصحابه وأمته فقال: (من مشى مع مظلوم حتى يثبت له حقه، ثبت الله قدميه على الصراط يوم تزول الأقدام)[2]

[1] - راجع كتاب من المثل الإسلامية للدكتور محمد رجب البيومي
[2] - الترغيب والترهيب

كما حذر اللعنة ودروبها حينما تموت هذه الرجولة إذ يقول: (لا يقفن أحدكم موقفاً يضرب فيه رجل ظلماً، فإن اللعنة تنزل على من حضره حين لم يدفعوا عنه).؟

وعن (جابر بن عبد الله) رضي الله عنهما قال: لما رجعت مهاجرة الحبشة عام الفتح إلى رسول الله ﷺ قال: (ألا تحدثوني بأعاجيب ما رأيتم بأرض الحبشة؟: قالوا بلى يا سول الله، بينما نحن جلوس مرت بنا عجوز من عجائز رهابينهم، تحمل على رأسها قلة من ماء، فمرت بفتى منهم، فجعل إحدى يديه بين كتفها ثم دفعها فخرت على ركبتيها فانكسرت قلتها، فلما ارتفعت التفتت إليه وقالت: سوف تعلم يا غُدر، إذا وضع الله الكرسي وجمع الله الأولين والآخرين، وتكلمت الأيدي والأرجل بما كانوا يكسبون، سوف تعلم كيف أمري وأمرك عنده غدا، قال: فقال رسول الله ﷺ: (صدقت كيف يقدس الله قوماً لا يؤخذ لضعيفهم من شديدهم؟!)[1]

ويقول ﷺ : (ما من امرئ يخذل امرءا مسلما في موطن تنتهك فيه حرمته، وينتقص فيه من عرضه، إلا خذله الله في موطن يحب فيه نصرته، وما من امرئ ينصر امرءاً مسلماً في موطن ينتقص فيه من عرضه وتنتهك فيه من حرمته، إلا نصره الله في موطن يحب فيه نصرته) [2]

ويقول ﷺ : (من أُذلّ عنده مؤمن فلم يَنْصُرْه وهو قادرٌ على أن ينصُرَه أذله الله عزّ وجلّ على رؤوس الخلائق يوم القيامة)[3]

وإذا كانت المروءة والنخوة من أخلاق العرب، فقد جاء الإسلام وجعلها ديناً واجباً ، وحذر من كل صور السلبية والتخاذل عن نصرة المسلم فقال ﷺ: (لا يقفن أحدكم موقفاً يضرب فيه رجل ظلماً ، فإن اللعنة تنزل على من حضره حين لم يدفعوا عنه) [1]

[1] - رواه ابن ماجه وحسنه الألباني
[2] - سنن أبي داود- كتاب الأدب باب من رد عن مسلم غيبة
[3] - رواه أحمد بسند حسن

وعن أبي بكر الصديق ﷺ قال: (يا أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية : يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم)

وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه)[2].. وهناك اليوم وما أكثرهم من يستلزون بمشاهد الظلم وآلام المظلومين، وبعضهم يكتفي بمصمصة شفتيه وتلويه عنقه، وينسحب غير آبه لما رأى وشاهد، وما ذلت أمتنا واستأسد عليها عدوها، إلا حينما فقدت هذه المشاعر، وفرطت في أخلاقها.

وديننا عبر تاريخه هو دين المروءة والنجدة ونصرة الضعيف والمظلوم، فهذا يهودي يحتال لكشف عورة امرأة مسلمة في سوق بني قينقاع، ومع صراخها هب إليها صحابي كريم لم يجد جزاء لليهودي إلا قتله، ولكن أهل الخسة من اليهود قد التفوا حوله وقتلوه.. وتسبب صنيعهم في اقتلاع شوكتهم من المدينة.

وهذا (المعتصم) تنادي عليه أسيرة مسلمة في أرض الروم، فيخف لنجدتها.. ويجهز من أجلها زحفاً عظيما يسد عنان السماء غبار خيله، لدفع الأذى عنها وتأديب معتقليها.

ولما تولى (أبو يوسف يعقوب بن يوسف) خلافة الموحدين بعد استشهاد أبيه مجاهداً ضد النصارى في الأندلس، وذلك في جمادى الأولى سنة 580هـ وصلته رسالة من المسلمين الذين هجم عليهم (ألفونسو السادس) ملك قشتالة ودمر بيوتهم، وقتل الرجال وسبى النساء حتى كتب (ألفونسو السادس) خطاباً يدعوه فيه إلى القتال سخرية واستهانة بالمسلمين، فلما قرأ أبو يوسف الخطاب كتب على ظهر رقعة منه: (ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها،

[1] - رواه الطبراني
[2] - رواه أبو داود والترمذي

ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون) الجواب ما ترى لا ما تسمع، وخرج بجيشه واتجه إلى بلاد الأندلس، والتقى بجيش الفرنجة في موقعة الأرك، وهزمهم هزيمة منكرة، وسقط منهم ثلاثون ألف قتيل، وبلغ أسراهم عشرين ألفاً، وغنم المسلمون معسكر الإسبان بجميع ما فيه من المتاع والمال، واقتحموا عقب المعركة حصن الأرك، وقلعة رباح المنيعتين.

يقول الله تعالى: (وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الله والمستضعفين) أي أن القتال يكون في سبيل الله، وأيضا في خلاص المستضعفين المضطهدين، إن الآية تحفز همة المقاتل المسلم أن يغيث المنكوبين ويخلصهم من ظلم الطغاة المتجبرين، ويسارع في رفع العذاب عنهم.

ويعلق الشيخ الشعراوي رحمه الله في خواطره بقوله:(بل إننا نقاتل ولو من باب الإنسانية، لأجل الناس المستضعفين في سبيل تخليصهم من العذاب؛ لأنهم ما داموا صابرين على الإيمان مع هذا العذاب، فهذا دليل على قوة الإيمان، وهم أولى أن ندافع عنهم ونخلصهم من العذاب."

ويعطينا سبحانه ذلك في أسلوب تعجب: (وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِّ والْمُسْتَضْعَفِينَ) فكأن منطق العقل والعاطفة والدين يحكم أن نقاتل، وقصة هؤلاء تحكي عن أناس من المؤمنين كانوا بمكة، وليست لهم عصبية تمكنهم من الهجرة بعد أن هاجر رسول الله ﷺ، فهم ممنوعون من أن يهاجروا، وظلوا على دينهم، فصاروا مستضعفين: رجالاً ونساءً وولداناً، فالاضطهاد الذي أصابهم، اضطهاد شرس لم يرحم حتى الولدان.. هذه الجماعة من المستضعفين منهم (سلمة بن هشام) لم يستطع الهجرة، ومنهم (الوليد بن الوليد) و (عياش بن أبي ربيعة)، و (أبو جندل بن سهيل بن عمرو)، وسيدنا ابن عباس رضي الله عنهما قال: لقد كنت أنا وأمي من هؤلاء المستضعفين من النساء والولدان، وكانوا يضيقون علينا فلا نقدر أن نخرج، فمثل هؤلاء كان

يجب نصرتهم، لذلك يحنن الله عليهم قلوب إخوانهم المؤمنين، ويهيج الحمية فيهم ليقاتلوا في سبيلهم؛ فظلم الكافرين لهم شرس لا يفرق بين الرجال والنساء والولدان في العذاب.)

قرأت مؤخرًا عن الأديب والرحالة والمؤلف والبحاثة (محمود بك رشاد) رئيس محكة مصر الأسبق، وأخو شيخ العروبة أحمد زكي باشا، وكان رشاد قاضيا مرموقا نزيها شريفًا، قدر له أن يكون القاضي الحاكم في قضية المناضل الصحفي عبد العزيز جاويش، الذي كان قلمه سيفًا مسلطًا على الخديوي والاحتلال، وكان الجميع يرغب الخلاص منه وينتظرون حكم القاضي الذي كان صدمة مدوية حينما رفض أن يخضع لأي ضغوط من الحكومة والاحتلال، فحكم على جاويش بالبراءة.

وأعلن استقالته بعد هذه القضية حينما مارست الحكومة ضغوطا عليه لتجبره على غير رغبته، وهنا خشيت الجهات المسؤولة أن تكشف الاستقالة موقفها، فأسرع سعد باشا يترجاه أن يرجع عن قراره ولكن محمود رشاد ألح في الرفض.

وأرادت الحكومة أن تغريه حتى تلين صلابته فأنعمت عليه بالباشوية، ولكن الرجل الشريف رفضها واعتذر عن قبولها، بل تجاوز اعتذاره عنها إلى التهديد بأنه إذا أصرت الحكومة على الإنعام بها، عليه فإنه يغادر البلاد فورا.

ومثل هذا الرجل النبيل الشهم الذي وقف خلف الوطني المظلوم، إنما هو سقاء الحرية، والقوة التي تمد صوت الحق ليكون عاليا جهوريا، ويوم أن تنعم البلاد بهؤلاء الأحرار فإن صوت الباطل سيظل ضعيفا خافتا لا صولة له ورنين.

الكاتبة (ديانا مقلد) عرضت لمشهد خطير يدلل على أسباب الضياع في المجتمعات التي تُعاني من تسلط الحكام الفجرة، والأنظمة الجائرة التي تسحق مجتمعاتها، وتجعل حياة مواطنيها في جحيم مستمر، بما تقدم عليه من سياسات ظالمة طاغية، وقرارات حمقاء عاتية، فترجع ذلك كله حينما لا يكون للحق صوت ينصره، ويتحول كل فرد في المجتمع إلى إنسان سلبي لا يعبأ إلا بنفسه، فتقول:"مرت الذكرى السبعين للمحارق التي نفذها النازيون، وانكب الدارسون والباحثون على دراسة واحدة من أكبر جرائم التاريخ المعاصرة، فوقفوا كثيراً أما حكاية أولئك المواطنين العاديين أسئلة كثيرة طرحتها جرائم النازية، كان أحدها إلى أي حد يُعد الألمان العاديون مسؤولين عن جرائم ارتكبت باسمهم، فهم لم يشاركوا في القتل الفعلي، لكنهم ساهموا بلا مبالاتهم وسلبيتهم.. حكايات هؤلاء العابرين والمواطنين العاديين تحمل في طياتها المعاني التي تساعدنا في فهم الأنظمة الشمولية، فاللامبالون لم يسهموا مباشرة في أعمال السلطات الدامية، وهم ليسوا قتلة، لكن الطاعة التي يكشفها سلوكهم وانعدام السؤال أو التشكيك، يجعلنا نفهم كيف ينمو الاستبداد وكيف يتمكن من إغواء الجماهير..؟!

كان لأدولف هتلر حليف قوي غير مرئي ما كان لينجح من دونه، حليفه كان ذلك العالم الذي اختار أن يصمت، لقد بدأ هتلر جرائمه ببطء وصعد بحذر على مدى سنوات ليصل إلى ذروة الإبادة.

الباحث في اللاهوت (مارتن نايمولر) يقول: حين طارد النازيون اليهود لم أكن يهودياً، لذا لم تكن لي ردة فعل، وحين لاحقوا الكاثوليك لم أكن كاثوليكياً لذا لم أتحرك.. وحين استهدفوا العمال لم أكن عاملاً فلم أقف معهم.. أما حين لاحقوا رجال الدين البرتستانت، تحركت وتفاعلت ووقفت، لكن حينها كان الوقت قد تأخر ، حينها لم يكن هناك أحد ليدافع عن أحد.) [1]

لقد تبرأ ديننا من هذه النفس الذليلة الخانعة، وحث أتباعه على النجدة والشجاعة والنبل والمروءة والصدع بالحق في وجه الظلمة والطغاة، ورفض الظلم بكل أشكاله وألوانه والوقوف بقوة وصلابة أمام كل ظالم متجبر فقال ﷺ:

[1] - من مقال لديانا مقلد - صحيفة الشرق الأوسط - عدد [13215]

(إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر)[1]

وقال: (سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله) [2]

وقال بعض علمائنا: (الساكت عن الحق شيطان أخرس، والناطق بالباطل شيطان ناطق)

الرجولة في القرآن

لا تحسبن القرآن الكريم الذي أنزله الله تعالى على خير أمة أخرجت للناس، كتاب تشريع وأحكام وأمر ونهي فقط! بل هو في المقام الأول كتاب تربية وتهذيب وتزكية، كتاب جاء لصناعة الرجال وصياغة الأبطال، جاء ليربي النفوس، ويطهر القلوب، ويبني القادة ويصنع العظماء والعباقرة، الذين قادوا الدنيا نحو العدل والخير والإحسان.؟

ومن هنا كانت الرجولة لها نصيب عظيم في القرآن العظيم، بل تبرز فيه محاورها بوضوح وجلاء، فقد أبانت آياته كيف أراد الإسلام أن يبني الرجال.

لقد نوع الحق سبحانه ذكر الرجولة في القرآن الكريم في أكثر من خمسين موضعًا، "فذكر الرجل، والرجلين، والرجال، وقرن الرجل بالمرأة في آيتين اثنتين، والرجال بالنساء في عشرة مواضع، وقد ذكرها كما قيل: بالنوع تارة، وأراد بها الصفة تارة أخرى، وأراد بها النوع والصفة تارة ثالثة.

أما النوع: فيقصد بالرجولة الذكورة، فقد قال -سبحانه وتعالى-: (وَبَثَّ مِنهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً)[3]، وأما الصفة: فيقصد بالرجولة توافر صفات الرجولة في الذكر فقد قال - سبحانه وتعالى: (مِنَ الْمُؤمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَّ عَلَيهِ)[4]، فكلمة المؤمنين جمع مذكر سالم، ولم يقل الله -عز وجل- كل المؤمنين رجال، وإنما قال: مِنَ الْمُؤمِنِينَ رِجَالٌ، ومن للتبعيض أي ليس كل ذكر رجلاً، وإنما كل رجل ذكر، فأراد هاهنا صفة الرجولة ولم يرد الذكورة التي هي النوع.

[1] - رواه أبو داوود والترمذي وابن ماجة وأحمد

[2] - التمهيد لابن عبد البر والأماني المطلقة لابن حجر

[3] - النساء:1

[4] - الأحزاب:23

وأما النوع والصفة: فيذكر الله -عز وجل- الرجولة ويريد بها توافر النوع والصفة، ومن ذلك قوله تعالى: (الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعضَهُم عَلَى بَعضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِن أَموَالِهِم)[1]، فلابد للقوامة من الذكورة والرجولة، فنحن نرى رجالا تقودهم النساء وذلك راجع إلى انتفاء الصفة مع وجود النوع."[2]

"وقد كان للرجولة صفاتها المتنوعة في القرآن الكريم ومنها:

أ- الطهارة بشقيها المادي والمعنوي: "لَمسجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقوَى مِن أَوَّلِ يَومٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللهُ يُحِبُّ المُطَّهِّرِينَ"[3]

ب- الصدق مع الله: "مِنَ المُؤمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيهِ"[4]

ج- إيثار الآخرة على الدنيا: "رِجَالٌ لاَ تُلهِيهِم تِجَارَةٌ وَلاَ بَيعٌ عَن ذِكرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَومًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ القُلُوبُ وَالأَبصَارُ"[5]

د- القوامة وحسن التوجيه لبيوتهم وذويهم: "الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعضَهُم عَلَى بَعضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِن أَموَالِهِم"[6]

هـ- الإيجابية: وتتفصل إلى:

1- مؤمن «يس» وسعيه لتبليغ دعوة الله ومناصرة الأنبياء: قال تعالى: "وَجَاءَ مِن أَقصَى المَدِينَةِ رَجُلٌ يَسعَى قَالَ يَا قَومِ اتَّبِعُوا المُرسَلِينَ"[7]

2- مؤمن آل فرعون والدفاع عن رمز الدعوة ضد مؤامرة الكفار: "وَقَالَ رَجُلٌ مُؤمِنٌ مِن آلِ فِرعَونَ يَكتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ"[8]

3- التحرك السريع لدرء الخطر وبذل النصيحة: "وَجَاءَ رَجُلٌ مِن أَقصَى المَدِينَةِ يَسعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ المَلأَ يَأتَمِرُونَ بِكَ لِيَقتُلُوكَ فَاخرُج إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ"[1]

---

[1] - النساء:34

[2] - من مقال الرجولة في القرآن والسنة لأحمد إبراهيم بموقع مداد

[3] - التوبة: 108

[4] - الأحزاب: 32

[5] - (النور: 37).

[6] - (النساء: 34).

[7] - يس:20

[8] - (غافر: 28).

وهكذا تخرج الرجولة من إطار الجنس والنوع إلى عالم الأخلاق والصفات الحسنة التي تبرز مكارم الإنسان ليكون لائقا بهذا الوصف."[2]

يعبر عنها أحد الكتاب فيقول:

"الرجولة صمودٌ أمام الملهيات، واستعلاء على المغريات، الرجولة رأيٌ سديد، وكلمة طيبة، ومروءةٌ وشهامةٌ، وتعاون وتضامن.."[3]

الرجال إذن لا يقاسون بالضخامة والهيئة وقوة البنية، فكم خيبت المواقف والأزمات آمالنا في أمثال هؤلاء، فالرجال الحقيقيون من يمتلكون قلبًا يثبت، وشجاعة تخاصم الخوف وتطرد الجبن، انظر إلى عار بني إسرائيل الذي سجله القرآن الكريم عليهم.

يقول الله تعالى: ﴿ قَالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾[4] حاولوا بذلك أن يبعثوا الهمة في الخائفين الجبناء، الذين تخلوا عن مسئوليتهم الدينية والمجتمعية والإنسانية، فعوقبوا وضلّت حياتهم وأظلمت عليهم دنياهم، حينما قالوا لموسى عليه السلام: (اذهب أنت وربّك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون) فهؤلاء ليسوا بالرجال، لأن الرجال لا يكونون جبناء.

يقول النورسي رحمه الله في اللمعات: "الفعل (قال) بصيغة المذكر إلى جماعة الإناث مع كونها مؤنثة مضاعفة، وذلك في قوله تعالى: (وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ)[5] ، بينما جاء الفعل قالت بصيغة المؤنث في قوله تعالى: (قَالَتِ الْأَعْرَابُ)[6] وهم جماعة من الذكور، مما يشير إشارة لطيفة إلى أن جماعة النساء الضعيفات اللطيفات تتخاشن وتتقوى وتكسب نوعاً من الرجولة، فاقتضت الحال صيغة المذكر، فجاء الفعل قال مناسباً وفي غاية من الجمال. أما الرجال الأقوياء فلأنهم يعتمدون على قوتهم، ولا سيما الأعراب البدويون، فتكون جماعتهم ضعيفة كأنها تكسب نوعاً من خاصية الأنوثة من توجس وحذر ولطف ولين، فجاءت صيغة التأنيث ملائمة جداً".

---

[1] - القصص:20

[2] - من مقال الرجولة في القرآن والسنة لأحمد إبراهيم بموقع مداد

[3] - من مقال بموقع صيد الفوائد صفات الرجال في القران والسنة - لأأمير بن محمد المدري

[4] - المائدة:23

[5] - يوسف: 30

[6] - الحجرات: 14

لقد ساق الله تعالى ذكر الأنبياء في كتابه الحكيم، وقص علينا أخبارهم، وبين لنا شمائلهم وأخلاقهم، وكيف سادوا الناس بهذه المكارم؟

لقد اصطفاهم الله على الناس، وكان لهذا الاصطفاء دلائله وبراهينه، التي تجلت في سماتهم النجيبة وأخلاقهم العالية، ورجولتهم الفذة، والتي حددها القرآن حتى يكون لنا منها حظ ونصيب، ولا شك أن هذه المثل العظيمة، تدفع كل محب للأخلاق، أن يطالع حياتهم ليرى أبرز ما يميزها، وها هو القرآن الكريم يكفينا معاناة البحث في دهاليز الدهور، فيخبرنا بصفاتهم التي كان أهمها وأجلها، معالم الرجولة الوافية، وسعيهم إلى خدمة البشر وإنقاذهم.

قال تعالى : (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ) [1]

فهذا موسى عليه السلام في قمة المروءة والرجولة والشهامة، مع ابنتي شعيب عليه السلام قال تعالى: (وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ * وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ * فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ)[2] لقد دفعته الشهامة أن يخدم المرأتين اللتين تقاصر الرجال عن خدمتهما أنانية واستباقا دون مراعاة لأنوثتهما وقلة حيلتهما وعدم قدرتهما على رفع الغطاء للسقي.!

إنه وهو الفقير المطارد والجائع المشرد، يرى بنتين تأخرتا عن السقي، ولم يجدا حولهما رجلاً شهما يسقي لهما، فتحركت فيه نوازع المروءة وتقدم ليسألهما :

(مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ)[3]

إنهما لم يطلبا المساعدة، ولكنه هو الذي تقدم إليها متطوعاً، لأن مثله لا ينتظر حتى تُطلب منه المساعدة، وإنما يُبادر هو إليها، مهما أثقلته الظروف والهموم التي قد تشغل المرء بنفسه عن غيره، وتحمله في قوارب الحزن ليتجنب الحياة ومن عليها، وأنت هنا أمام هذا النبأ، يريد الله تعالى أن

[1] - الأنبياء : 73
[2] - القصص : 22-24
[3] - القصص:23

يعلمنا معاني المروءة التي نفتقدها في هذا الزمان خاصة مع النساء، والتعامل معهن، فحينما ترى امرأة تتحمل مالا تطيق، فلا يجب أن تصمت وتعرض وتهرب أو تتجاهل حاجتها، فهي ضعيفة لا قوة لها أن تتحمل ما يتحمله الرجال، بل هو ما نراه في أبسط مظاهر الحياة، حينما تدخل حافلة حاشدة بالركاب، فترى شابا فتيا جالسا، بينما امرأة في عمر أمه، أو شابة مثل أخته، واقفة تتحمل التعب والتحرش بالمارة، وهو جالس هانئ لا نخوة لديه ولا شعور.

إن مثله لا يمكن أبدًا أن يدخل تحت مظلة الرجولة.

هذا ما أوعزت به قصة موسى عليه السلام، بل إن هذه الهموم الثقال التي أهمت نفسه وشتت حياته، لو نظرنا في أسبابها لوجدنا أن الذي جره إليها، إنما هي رجولته ومروءته ونصرته للضعيف وإنصافه للمظلوم في وجه الظالم المتجبر.!

لقد استغاث به الضعيف فلم يتركه حتى نصره، وتسبب في قتل المصري المعتدي، وأصبح موسى (فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ)، كان هذا حاله.. حال إنسان مطارد خائف، يتوقع الشر في كل خطوة، ثم هو حذر مترقب، يلتفت خلفه لأوهى الحركات وأخفاها.

وعاهد موسى نفسه بأنه لن يكون ظهيرًا للمجرمين، ولن يتدخل في المشاجرات بين المشاغبين ليدافع عن أحد منهم، حتى فوجئ بنفس الرجل الذي أنقذه بالأمس وهو يستغيث به ليخلصه من ظالم آخر في عراك آخر، فصرخ موسى في وجهه وقال: إنك لغوي مبين، فظن المشاغب أن موسى يريد أن يبطش به، فأعلن سره على الناس، فانتشر الخبر في أرجاء المدينة، فأسرع إلى الخروج من مصر، قبل أن يتعرض للقصاص.! فرجولته إذن هي التي جرت عليه المتاعب.!

وحينما أرسله الله وأخاه هارون إلى فرعون، وقفا يخاطباه في شأن بني إسرائيل، ويطلبان منه أن يحررهم ويطلق سراحهم ويكف عن استعبادهم واستضعافهم وتسخيرهم.. فقال الله تعالى: (فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى)[1]

[1] - طه:47

ولكن فرعون أبى أن يستجيب وأخذ يذكر موسى بما قد مضى من عطفه وإنعامه عليه، وإحسانه له وجميله في تربيته ورعايته ..

قال تعالى: (قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ، وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ)[1]

فرد عليه موسى بقوله: (قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ، فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ، وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ)[2]

وكلام موسى قيل على جهة الإنكار، أي أتمن علي بأن ربيتني وليدا، وأنت قد استعبدت بني إسرائيل وقتلتهم، أي ليست بنعمة، لأن الواجب يقتضي ألا تقتلهم ولا تستعبدهم، فإنهم قومي فكيف تذكر إحسانك إلي على الخصوص.؟!

وهذه هي الرجولة مرة أخرى، حينما لا يفصل المرء نفسه عن غيره، وإنما يحمل المرء هموم أهله وقومه ولا يرى لنفسه نعمة بينما هم معذبون من حوله.

ويوسف عليه السلام تجلت في الرجولة إلى أسمى مراتبها، حينما تحمل المسؤولية كاملة، وكلف نفسه بمصائر الناس ومستقبلهم المنذر بالخطر، فعرض خدماته متطوعاً في السنين العجاف، التي نبأت بها رؤية الملك، ليقوم بتوزيع المواد الغذائية بخبرة وعدالة، فينقذ الناس من هذا الخطر المحدق:

قال تعالى: (قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ)[3]

وهي دعوة لكل من يرى من نفسه قدرة على خدمة الناس، أن يبادر بتقديم المساعدة، ولو أن يطلب ذلك بنفسه ولا ينتظر حتى يطلب منه.. "واقتراح يوسف عليه السلام، إنما هو إعداد لنفسه للقيام بمصالح الأمة على سنة أهل الفضل والكمال، من ارتياح نفوسهم للعلم في المصالح، ولذلك لم يسأل مالاً لنفسه ولا عَرَضاً من متاع الدنيا، ولكنه سأل أن يوليه خزائن المملكة، ليحفظ الأموال ويعدل في توزيعها ويرفق بالأمة في جمعها وإبلاغها لمحالّها"[4]

---

[1] - الشعراء:18-19
[2] - الشعراء 20-22
[3] - يوسف:55
[4] - التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور

يحدث هذا في الوقت الذي نرى فيه كثيرين يهربون من المسؤولية، ويعزفون عن تحملها والقيام بواجبها وهم قادرون عليها، وما هكذا علمنا القرآن، بل في قصة يوسف هذا الوحي بامتطاء صهوة الرجولة وتحمل المسؤولية والقيام بواجب الإنسانية، وواجب الإنسان نحو أخيه الإنسان. إن دلالات الرجولة في القرآن الكريم كثيرة وفيرة، مما يدلل على أن الإسلام كانت مهمته هي صناعة الرجال الذين قادوا العالم لمراسي العدالة والرحة والمساواة.

من يطيق الشهامة؟

قد يبهرنا الحديث عن صفات الشهامة والمروءة والنجدة، ونعد من يتسم بها إنسانا رائعا ونموذجا لا مثيل له، كما تستهوي أسماعنا بين الحين والحين أن تنصت لهذه القصص التي تحمل صورًا ومواقف لأصحاب المروءة وأهل الشهامة والفروسية.

وإذا أحببنا أن نمدح أحدًا نحبه، فلا نجد أرقى من أن نسمه بأنه رجل شهم نبيل ذا مروءة.. لكن صدقني أيها القارئ الحبيب، ففي كثير من الأحيان تأتي هذه الشهامة مكلفة مزعجة، تُحمّل الإنسان مالا يطيق من هموم الدنيا ومشكلاتها ومسؤولياتها! ولا يقدر عليها إلا أناس أبطال أصحاب صبر وجلد وتضحية.

في أحيان كثيرة أندم ندمًا عارما على شهامتي ومروءتي مع بعض الناس في بعض المواقف التي جلبت علي شرًا مستطيرًا، وضيقًا لا أتحمله!

وهناك أناس متخصصون في تصدير هذا الشعور لكل من عاملهم بشهامة ومروءة حتى يجعلوه يضرب نفسه بالحذاء لأنه كان معهم شهمًا كريمًا.!

ورغم هذا كله، نقرر أن هناك من يعلمون أن مروءتهم ستجلب عليهم الضرر والخطر! ولا يمنعهم هذا أن يخوضوا ملاحمها وهم سعداء برجولتهم ونبلهم، لتبقى المروءة من أجمل وأرقى الصفات التي تجمل صورة الإنسان وتعبر عن جوهره البهي.

انظر لهذا الرجل الذي أنقذ الإمام الطبري من البلدة التي كان يقيم فيها لأنه رفض سب الصحابة، وكان والي المدينة يؤيد السب، ويكره ما يمليه الطبري في هذه المسألة، فأرسل إليه يطلبه يريد حبسه، وكان هناك هذا الرجل الكريم يجلس في مجلس الوالي، فلما علم، خرج مسرعا وأخبر الطبري ففر من القرية قبل أن تنال منه عساكره، ولما علم السلطان بذلك أمر بضرب هذا المبلغ ألف سوط بسبب إبلاغه، وجاء هذا الرجل بعدما صار شيخا مسنا فأكرمه الطبري واعترف له بالفضل والسبق وكان وفيا معه.

وكان أبلغ من هذا ما حدث مع الأستاذ (مصطفى أمين) حينما سجن أيام عبد الناصر وكان يهرب الخطابات من داخل السجن مع أصدقائه المحبوسين الذين وصفهم بقوله:

الرجال الشجعان.

يقول في مذكراته (سنة أولى سجن): بدأت بمعاونة زملائي المسجونين عملية تهريب الرسائل إلى أخي في لندن وعدد من الأصدقاء خارج السجن، وكانت عملية خطرة وشاقة ومستحيلة، وكان من يقومون بذلك يعرضون حياتهم للخطر ومستقبلهم للضياع، وكنت أعتمد على المسجونين المظلومين الذين يتحولون إلى شهداء بسبب ظلمهم، والشهيد يجود بآخر قطرة من دمه في سبيل هدف يؤمن به، وقام الرجل الشجعان بهذه المهمة من أجلي ومن أجل عدد كبير من المسجونين السياسيين، ولم يخافوا قط، وكان من بينهم مصريون وسوريون ولبنانيون وفلسطينيون، وذات يوم ضبط حارس في ليمان طره أحد المسجونين السوريين واسمه نادر جلال، وكان يخفي في

ملابسه خطابًا مني مطلوبًا تهريبه، وحاول الحارس تفتيشه، فخاف المسجون أن يقع خطابي في يد الحارس وإدارة السجن، فأسرع وأكل الخطاب وبذلك لم يعرف الضباط ولا الحراس أن الخطاب مني !

ووضعوه في التأديب أربعة أشهر، والتأديب هو أشبه بالجب الذي لا تدخله الشمس ولا الهواء، ويحرم فيه المسجون من كل ضرورات الحياة، وضربوه وعذبوه، ومع ذلك لم يفتح فمه، ولم يعترف أن الخطاب مني.!

ربما تسوقك الظروف الصعبة العسيرة، أن تسلك طريقًا لا يروقك، وسبيلا لا تعجبك، ومدخلا لا تطيقه نفسك.

نعم لعن الله هذه الظروف التي تقتل عزة المرء وتغتال كبرياءه، فيطرق أبواب الحكام والكبراء منافقًا مداهنا لهم، مسبحًا بحمدهم حتى يغدقوا عليه بما يُذهب فقرة وضيقه.

وصدق من قال: ما رأيت مثل الفقر يذل رقاب الرجل.

ولشدة مراسه ولسع فاقته، تعوذ منه الرسول الكريم ﷺ في قوله: اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر.

ويلاحظ في الحديث كيف جمع بين الكفر والفقر؟!

ويمكن لك وأنت مغمض العينين، أن تجد لهذه الفئة من الناس عذرًا على هذه المسالك التي ركبوها دون رغبتهم ولا اختيارهم، ولم يسيروا إليها طواعية من ذات أنفسهم، وإنما قهرهم العجز والاحتياج ودفهم إليها دفعا قاسيًا.

يمكن أن نجد لهم المخرج، ونحن نراهم متأففون وهم ينافقون، لأنهم لا يجيدون هذا النفاق، ولا يبرعون فيه لأنه ليس منهم في شيء، ومن ثم تراهم يتجرعون العلقم وهم يباشرون أسبابه ويمارسون مظاهره، ويتمنون من الله تعالى أن يجيء هذا اليوم الذي يتطهرون فيه من وزره وإثمه.

لكن وعلى الصورة المقابلة، نرى أناسًا يتحسسون مواطن النفاق، حتى يمارسونه بكل رغبة وميل وترحيب، ويتمنون لو أتيحت لهم هذه الفرصة حتى ينافقوا، فيكون هذا النفاق طريقًا لخدمة أغراضهم وتحقيق مصالحهم، وإنقاذهم من فقرهم، وخروجهم من ضيقهم.

وخارج هذان الصنفان نجد نوعًا ثالثًا صيغت نفسه من الحديد، وانبثقت عزيمته من الصلب، فنراه وهو في أحلك الظروف وأقسى المحن والفترات، تُعرض عليه الدنيا رجاء أن يتنازل عن شيء من مبادئه وأخلاقه، فإذا به يرفض ويأبى وينتفض لمبادئه، وينتصر لأخلاقه حتى لو كلفه ذلك الضياع والخسران، وتحمل تبعات مكلفة من مشقات الحياة لا طاقة له بها.

لكنه أمام هذا الإصرار وأمام هذه الخسارة التي يجلبها لمصيره، إلا إنه يكسب احترامه لنفسه وتقديره لذاته، وهو عنصر لا يحيا إلا في ضمائر الأسوياء، الذين يعيشون كلمة الإنسان بكل معانيها.

الدكتور أحمد شلبي رحمه الله حينما كان أستاذًا في كلية دار العلوم، ومع بداية أحداث انقلاب يوليو 1954م وقف في قاعة الكلية، وألقى خطابًا ضد الجيش وحكم العساكر، خطابًا يعبر عما في نفوس الكثيرين، فما كان منهم إلا أن تربصوا به، وتحروا عنه، ولما وجدوا أنه لا ينتمي لأي جماعة أو فصيل سياسي، قرر مجلس قيادة الثورة فصله من الجامعة، وضاقت الدنيا في وجهه، وكان يعول أسرة وأطفالا يتطلعون إلى الرزق والقوت، ولم تقبله أي وظيفة أخرى خشية أن ينال أصحابها غضب العساكر، وتنصل منه القريب والبعيد خوفًا من سوء المصير، ولكن يده كانت

عاجزة، وفي ظل هذه الأيام الحالكة، وفي وقت الحاجة والجوع، جاءه شاب يعرفه تربطه به صلة العلم، وكانت له اتجاهاته اليسارية، والتقى به ودار بينهما حديث خاص، وبعد أن عرف ظروفه وضائقته قال له: إن الحزب الشيوعي يرحب بك، ويرى فيك أملا هائلا، ومستقبلا كبيرًا لك وللحزب، والحزب مستعد أن يتعاون معك و... و... و...

وبقدر ما كان هذا العرض مفاجئا للدكتور شلبي، إلا إنه كان عرضًا يمثل فرصة العمر لإنسان يعبد المادة ويعيش للمال، ويتمنى أن تأتيه الفرصة ليخرج من خندق الفقر، بالشيوعية أو العلمانية أو الإلحاد أو النفاق، بأي وجه كان لا يهم، فالمهم أن يخرج.!

ولكن صاحبنا كان من هذا النوع الثالث، التي نبتت نفسه من بذور العزة، فلا تعرف كيف تلين أو تضعف أمام الضغوط والظروف.

وعلى الفور قال شلبي للشاب: "إنني لم أكن شيوعيًا يومًا ما، ولن أكون شيوعيًا قط، إن الإيمان بالله عقيدة عميقة الجذور في نفسي، والفكر الماركسي في ناحية العقيدة الدينية والاتجاه الاقتصادي فكر بعيد كل البعد عن مشاربي وعن روحي وعقلي، وصرخت في هذا الشاب قائلا: أتحسب أن ما أعاني من جهد يدفعني لأبيع نفسي؟ هذا مستحيل، وأضفت إليه قولي: إنني تربيت في جو أزهري، وكنا أحيانًا نأكل الفول ثلاث مرات في اليوم، وكانت الخشونة طابع حياتنا، وإنني أستطيع أن أعود لهذه الحياة بسهولة، إن لم ينفتح لي باب رزق كريم" [1]

هكذا كان الرد والتحدي، بل هكذا كان الانتصار للكرامة والمبادئ، التي لا تقوى عليها ظروف الحياة، مهما كانت قساوتها ووحشتها.

[1] - رحلة حياة - مذكرات الدكتور أحمد شلبي

بل تأتي هذه النفوس الأبية، لتضرب لنا هذا المثال البطولي، حينما تتحدى الحياة بكل محنها وخطوبها ونوازلها.. أمام أناس يبيعون دينهم ومبادئهم وشرفهم من أجل المال والجاه وفي سبيل المناصب والمواقع.

اللامبالاة

دخل (عثمان بن مظعون) ﷺفي جوار (الوليد بن المغيرة)، فظل في عافية وسلامة، ثم أبت عليه شهامته أن يستمر على هذا الحال، وإخوانه المسلمين يلاقون صنوف الإيذاء والبلاء؛ فرد على الوليد جواره علانية في المسجد، ثم وقف على أحد الشعراء، فلما سمعه يقول:

وكل نعيم لا محالة زائل فقال له: كذبت نعيم الجنة لا يزول.. وعندها هجم عليه أحد الحمقى وضربه على عينه فخضرها، قال له الوليد لما رأى ما أصابه: إن كانت عينك لغنية عما أصابها، فيرد عثمان ﷺ في جلد وشموخ: بل إن عيني الصحيحة لفقيرة لما أصاب أختها في سبيل الله.!

إن الصاحبي الجليل لم يكن من المصابين بداء اللامبالاة، فما دام هو في سلامة من أمره ومنجاة مما أصاب غيره، فلا يهتم بحال أحد، ولكنه أعلن في شجاعة الشرفاء رفضه لتلك السلامة وذلك الأمان الذي لم يتمتع به الكثيرون، ولم يحظ به أحد مثله، وذلك لإحساسه بإخوانه، وتضامنه معهم، وارتباطه بآلامهم.

يحكي الإعلامي أيمن عزام موقفًا مع الرجولة في صغره فيقول: "كنت في أول المرحلة الإعدادية حين شبّ حريق هائل في قريتي منية البندرة مركز السنطة غربية، كنت طفلا مدللا عند أهلي.. خرجوا جميعًا كبقية أبناء القرية الشجعان لإنقاذ البيوت المحترقة، والمواشي من الحظائر، التي كانت جزءا من هذه الدور كشأْن أي قرية.

كانت الحرائق و صراخ النساء وعويل الأطفال يرعبني فلا أجد وقتها أنا و أمي إلا الجلوس في البيت ندعو الله أن يلطف بالقرية و أهلها. وقد كانت أمي أيضا تصاب بالهلع من الحرائق و مآسيها.

المهم.. بعد انتهاء الحريق خرجت لأقف أمام المنزل بعد أن اطمأن قلبي وهدأت أعصابي، فإذا بشاب معروف لدى الجميع (مهندس زراعى(يقترب منى و يأخذ بي جانبًا و يقول : انت مال هدومك نضيفة كده و مش عليها اى آثار للمشاركة في إطفاء الحريق -طبعا الناس كلها كانت متبهدلة- وقال باستغراب: هوة انت مرحتش تطفى الحريقة مع أهل البلد؟! قلت له: لا.. بس قعدت ادعى واقرأ قرآن مع أمي.

قال لى: تعرف انك لو ساهمت في إنقاذ جاموسة أو حمار أو أرنب أو بطة من حظيرة المواشي أو الفراخ لأى واحد من اللي بيته بيتحرق، دي ممكن تساوى عند ربنا في ثوابها قراءة القرآن وصلوات القيام والنوافل، فما بالك لو أنقذت حياة إنسان أو طفل، أو ساعدت امرأة أو شيخا عجوزا!

و قال لي: تعرف إن النبي المعصوم كان أول من يهب عند الفزع لأى حادث يصيب الناس ويسبقهم إليه؟

بعد هذا الحريق بفترة وجيزة شب حريق في أحد الدور. كنت أول من هب للمشاركة بعد أن نزع هذا الموقف التربوي كل الخوف و الهلع من قلبي من الحرائق و الحوادث.

و بعد أن علمني هذا الرجل أن الدين إذا لم يكن لبناء المجتمع وإنقاذ حياة الناس من كل خطر يحيط بهم، فإنه يكون فهما منقوصًا لحقيقة هذا الدين.

وحظ صاحبنا من حكايته، أنه وجد من يعلمه، ويوجهه ويغرس فيه معاني الإيجابية وطرد اللامبالاة، بينما نجد قطاعات كبيرة من الناس، تغط في السلبية المحرقة.

في المقطع الذي بث على الإنترنت للناشطة (شيماء الصباغ) في وسط القاهرة أثناء مشاركتها في تظاهرة سلمية، لم تكن تفعل شيئاً فيها إلا أنها كانت تنادي بالحرية، وتحمل الزهور، وتعبر عن رأيها بالهتاف مرة، وبلافتة تحملها مرة أخرى، ثم قصدتها رصاصات صوبت إليها فأردتها قتيلة.. سارع إليها صديقها في محاولة منه لإنقاذها والهروب بها إلى مكان آمن يستطيع أن يسعفها فيه.. كان يهرول بها وهي تترنح على كتفه لا يدري أين يسير وإلى أين يتجه، وفي ظل هذا المشهد المأسوي المؤلم، كان الناس على الناحية الأخرى وفي نفس اللقطات يسيرون حولهما بكل برود وفتور، ومنهم من كان يجلس على القهوة يشاهد الموقف ولا يحرك ساكناً، ولا يرعوي لحجم المأساة، ولا يسارع إلى النجدة أو تقديم أي شكل من أشكال المساعدة للفتاة المجروحة، وصديقها الحائر.. كانوا ينظرون إليهما ببلادة منقطعة النظير، وفي غيبوبة عن كل معاني الرحمة والإنسانية.

وهذه الروح التي ظهرت في هذه المشاهد التي تصور مصرع (شيماء الصباغ) استرعت انتباه الكثيرين، ورصدوها ملفتين إلى انهيار المجتمع، حينما تغيب منه النخوة والمروءة، ويظهر فيه هذا النوع من الناس الذين لا يبالون بأحد، ولا يهتمون بمصاب، ولا ينجدون مستغيثا، ويرفعون شعار دع الملك للمالك.. هؤلاء الناس العاديون الذين أصيبوا بفقدان النخوة، واستشري فيهم داء اللامبالاة ويردد أحدهم قوله: (وأنا مالي) هؤلاء تحديداً حينما يظهرون في مجتمعاتهم، فحدث ولا حرج عن ضياعها ونهايتها وانهيار ما فيها من مثل وقيم، ورحيل أكيد لحقوق الإنسان وكرامته.!

ويا ليتهم شخص واحد أو شخصين.. لقلنا ساعتها لعلهما مخمورين أو تائهين، أو أنهما من القتلة أنفسهم، ولكنهم كثير يضج بهم المكان يميناً ويساراً.

إنهم المواطنون العاديون الذين أعرضوا عن الفتاة المجروحة، لأنها ذكرتهم بضعفهم وخذلانهم ومروءتهم الضائعة، هؤلاء المواطنون الذين صار الواحد منهم على استعداد لأن يقتل ويكْفُر ويَفْجُر من أجل لقمة العيش التي صارت إلهه ومعبوده في هذه الحياة، وصار هو عابدًا لها حتى ماتت فيه معالم الحرية والنجدة والإباء، هؤلاء هم بلاء الأوطان ورزية الشعوب الذين ينمو في ظلهم معنى الظلم، وتتعافي في ظلهم روح التسلط والاستبداد والقهر.

إنها اللامبالاة، وهي الداء النفسي الخطير الذي إن أصيب به الأفراد فكبر على قيمتهم في الحياة، بل كبر على المجتمع كله يوم أن يكون بهذه الصورة المرذولة، التي تجلت في نفوس أحيائه ومواطنيه.

يقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله في كتاب "قصة حياة": أذكر أن وكيل الوزارة كلَّفني يومًا أن أضع خطبة محترمة في "تحديد النسل"؛ لأن المشروع موشك على الفشل، فقلت له: "إن مشكلة الانفجار السكاني في العالم لا تُحلُّ على حساب المسلمين وحدهم"، قال: "ماذا تعني؟"، قلت: "التعليمات صدرت لغيرنا أن يتكاثروا، فلا أعمل أنا على تقليل المسلمين"، فقال في عبوس: "أنت موظف، وقد أمر الرؤساء بشيء؛ فيجب تنفيذه، فقلت في صرامة: "أنا لست موظفًا في بيت أحد الرؤساء، أنا وأي رئيس، موظفون في جهاز إسلامي حسيبنا فيه الله؛ فأنا أرعى ربي قبل أي امرئ آخر، أنا ورئيس الدولة نأخذ مرتباتنا من وعاء واحد، من مال المسلمين، أنا لا آخذ مرتبي من كيس أحد حتى أجعل ولائي له من دون الله"، فأشاح مُعرضًا، وانصرف مُغضبًا، وبعد أيام أرسل إليَّ، وقال: "يا سيدي، كتب الخطبة غيرك"، قلت: "ليكتب من شاء ما شاء، أما أنا فلا أبيع ديني لأحد"، إنني أكره الشيوخ الذين يسترضون الرؤساء بالفتاوى الجهْلاء، إنهم يدورون في القاهرة وفي كل عاصمة بذممهم كما يدور سائقو سيارات الأجرة بعرباتهم، يتلفتون: هل من راكب؟ قبحهم الله وقبح من كلَّفهم، وقبل منهم.

وهكذا يكون سمت العالم الحر، لا يخنع للخطأ مهما كان مصدره ومنبعه، حتى ولو كانت من قرارات الكبراء، فما دامت خطأ، فإن أقل القليل أن لا يرضى بها أو يكون طرفًا في تطبيقها..

وهذه رجولة وعزة وإباء استعلت بها هذه النفس الأبية التي لا صوت فيها إلا للحق وجده.. ولم يكن كغالب المرؤوسين الذين يلبون كالعبيد، ويقول قائلهم: اربط الدابة حيث يريد صاحبها.!

غرقت قوارب المهاجرين في البحر الأبيض المتوسط، فقررت امرأة مسنة من شمال إيطاليا، أن تنتقل من منزلها في إحدى الضواحي، لتفسح المجال لهؤلاء اللاجئين حتى يقيموا فيه، لأنها تأثرت بغرق قواربهم وتشردهم تأثراً كبيراً، وذكرت صحيفة)كوريير ي ديل فينيتو): أن (مارا جامباتو) والتي تبلغ من العمر 90 عاماً، تصرفت هكذا بعد علمها بالحادث، والذي يفترض أن 800 مهاجر لقوا حتفهم فيه، وغادرت العجوز مسكنها السابق في (روبانو)، على مشارف (بادوا)، وانتقلت إلى شقة أخرى تمتلكها في وسط المدينة، تاركة مسكنها لجمعية خيرية، ليتم استخدامه لاستضافة 10 من طالبي اللجوء من غامبيا وغينيا بيساو، وقال (سيرجيو فينتورا) وهو أحد أقارب المرأة، للصحيفة: عندما سمعت في التلفزيون عن هؤلاء الأشخاص الـ 800 الذين لقوا حتفهم في البحر، وعندما شاهدت عجز الدولة والمؤسسات العامة، قررت أن تفعل شيئًا.

إن المرأة تبلغ من العمر أرذله، وهو أقوى باعث لها على أن تتخلى عن الإيثار، وتعذر فيه لو لم تقم بدورها المجتمعي ومسؤوليتها الإنسانية، بحجة أنها طاعنة في السن وتحتاج لمن يرعاها ويقدم لها المساعدة، لكنها لم تفعل ذلك، وبادرت بهذا العمل الرائع؛ لأن شعلة الإنسانية والشعور بالآخرين المحتاجين، كانت متقدة في ضميرها الحي.!

أما المسلم.. فلا يعقل أن يرى البلاء يصيب الناس حوله، فيقابلهم بقلب فاتر وعاطفة باردة.! ولا يعقل أن تنزل المصائب بهم، فيقف متبلداً مجردًا من الحس والشعور، ومن كان كذلك فهو لا

شك ليس ممن وصفهم الرسول ﷺ بقوله : "إن المؤمن من أهل الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، يألم المؤمن لأهل الإيمان كما يألم الجسد لما في الرأس" [1]

وقال أيضاً: "المؤمنون كرجل واحد إن اشتكى رأسه تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر" [2]

هذه هي صورة المؤمنين، يرحم بعضهم بعضاً، ويشعر بعضهم بآلام بعض..

لقد قال الله تعالى عنهم: " ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ" [3]

إن الحياة اليوم في كثير من المجتمعات، استطاعت أن تجعل من الإنسان أنانياً لا يفكر إلا في ذاته، ومهما ضج الناس حوله بالآلام والآهات، فإنه لا يلتفت لآلامهم، وهذا هو الخسران المبين، والانسلاخ من قيم الدين.

وهو ما تأمله الشيخ (علي الطنطاوي) رحمه الله في نفسه يوماً حينما قال: (نظرت البارحة، فإذا الغرفة دافئة والنار موقدة، وأنا على أريكة مريحة، أفكر في موضوع أكتب في، والمصباح إلى جانبي، والهاتف قريب مني، والأولاد يكتبون، وأمهم تعالج صوفًا تحيك، وقد أكلنا وشربنا، والراديو يهمس بصوت خافت، وكل شيء هادئ، وليس ما أشكو منه، أو أطلب زيادة عليه.

فقلت: الحمد لله ، أخرجتها من قرارة قلبي، ثم فكرت فرأيت أن (الحمد) ليس كلمة تقال باللسان، ولو رددها اللسان ألف مرة، ولكن الحمد على النعم، أن تفيض منها على المحتاج إليها، حمد الغني أن يعطي الفقراء، وحمد القوي أن يساعد الضعفاء، وحمد الصحيح أن يعاون المرضى، وحمد الحاكم أن يعدل في المحكومين، فهل أكون حامدا لله على هذه النعم، إذا كنت أنا وأولادي

[1] - رواه أحمد في مسنده
[2] - رواه مسلم
[3] - البلد: 17

في شبع ودفء، وجاري وأولاده في الجوع والبرد ؟، وإذا كان جاري لم يسألني، أفلا يجب علي أنا أن أسأل عنه ؟" [1]

في أعقاب الحرب الروسية الأوكرانية، فر الناس لا يحملون إلا أرواحهم ونفوسم، تاركين خلفهم كل ما يملكون من الحياة، يعلمون أنهم سيشردون، ويحرمون، حينما تأويهم الملاجئ وتضمهم المخيمات، ينتظرون عطف العالم، وعطاء منظماته.

يحدث كل هذا البلاء الإنساني، والمحنة التي تؤرق ضمائر الأحرار، والعدوان الذي تنخلع منه قلوب الأصفياء الأسوياء، ثم يخرج من بيننا وفينا من يقابل المأساة والكارثة، بفتور منتحر، وضمير متبلد، وعقلية مارقة، ومشاعر فاسقة، وأفكار فاجرة، وإحساس مهترئ، ليضحك ويهرج، ويبتكر النكات والأفشات حول استقبال النساء الأكروانيات في مصر، والسبيل إلى الزواج منهن، والعزف على أوتار جمالهن، والتفكير في حيلة لإقناعهن بأن حياته الأسرية، ما عاد يطيقها، ولابد له من الزواج.

إنسان يعذب ويصيبه الهول والفزع والزعر والخوف، شعب يقصف وتدك أرضه، وتنزل القذائف على رؤوس مواطنيه، وأنت تقابل كل هذا بالضحك، والسخرية والنكات والشهوات، والتفكير في النساء، وتمني الزواج باللاجئات الأوكرانيات، وتصدير بوستات فكاهية ساخرة؟

وفي ذات الوقت جاءتنا الأنباء تعرض صورًا للأوكرانيات يحملن السلاح ويشاركن الرجال في التصدي للعدوان الروسي، جاءت هذه الصور لتصفع هؤلاء المهرجين على أقفيتهم، وتفيقهم من عبثهم الذي خرق هيبة الرجولة، وكأنها تقول لهم بلسان الكاتب والشاعر الصحفي القدير محمود سلطان:

[1] - مع الناس – علي الطنطاوي

قِفْ إجلالاً يا "سي" السّيّدِ هَذي امْرأةٌ

تَعدلُ ألفاً مِنكمْ

وكَثيرٌ مِنكمْ مَحضُ غُثَاءْ

ألْقِ عَلَيهَا فُلاً.. وَرْداً

رُغماً عَنكَ عَلى اسْتِخذاءْ

مَا عِندُكَ؟ أو عِنديْ؟ قدّمْناهُ لامرَأةٍ نَعشقُهَا

غيرَ الشّعرِ المُستأجرِ والخُطَبِ الجَوفاءْ

هُنّ الأجملُ والأقوَىْ: إمَّا أرمَلةٌ لشَهِيدْ

أو زَوجَةُ مُعتقلٍ

أو مَشْروعُ غَريقٍ بالبَحرْ

هَارِبَةً مِنْ نار جَحِيمِ الوَطنِ الحَمْراءْ

وَدَخَلْنَ السّجنَ ونَحنُ.. بِلا وَزنٍ طُلَقاءْ

وبَقَينا في جُمْلَتِنَا ضُفدَعةً تَسْكُنُ وَحلاً

وَخَنَافسَ بالصَّحرَاءْ[1]

[1] - قصيدة للشاعر والكاتب الصحفي الكبير محمود سلطان

مروءة الجاهلية

ها هي الجاهلية العربية تتعالى على بعض المجتمعات التي تنتسب للحضارة، حينما يخرج من أعماقها (حلف الفضول) ذلك الحلف الذي قام لنصرة المظلوم وأخذ حقه من الظالم، أرأيت.. فهذه هي الجاهلية التي نصورها بالغباء، استقامت حينما لبت نداء الفطرة السوية.!

ففي يوم من الأيام كما جاء في الروض الأنف: "استيقظت مكة على صوت هذا الصارخ بجوار الكعبة وهو يقول بأعلى صوته:

يَا آلَ فِهْرٍ لِمَظْلُومٍ بِضَاعَتُهُ ** بِبَطْنِ مَكَّةَ نَائِي الدَّارِ وَالنَّفَرِ

وَمُحْرِمٍ أَشْعَثٍ لَمْ يَقْضِ عُمْرَتَهُ ** يَا لَلرِّجَالِ وَبَيْنَ الْحِجْرِ وَالْحَجَرِ

إِنَّ الْحَرَامَ لَمِنْ مَاتَتْ كَرَامَتُهُ ** وَلاَ حَرَامَ لِثَوْبِ الفَاجِرِ الغُدَرِ

فقام إليه الناس يتبينون خبره، فكان تاجراً من زبيد قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه (العاص بن وائل)، ومنعه حقه، فاستعدى عليه أشراف قريش فلم يعينوه لمكانة العاص فيهم، فما كان منه إلا أن هرول بجوار البيت يصرخ بأعلى صوته ويستغيث بالناس يطلب نصرتهم.

فقام إليه (الزبير بن عبد المطلب) فقال: ما لهذا مترك، فاجتمعت بنو هاشم وزهرة وبنو تيم بن مرة في دار عبدالله ابن جدعان، وصنع لهم طعاماً وتحالفوا في شهر حرام هو ذو القعدة فتعاقدوا وتحالفوا بالله ليكونن يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يرد إليه حقه"

حق للعروبة أن تتباهى بذلك اليوم الذي أقيم فيه حلف الفضول، وتجعل منه عيداً لها، كما كان العرب قديما يتباهون به ويتفاخرون، فهذا الزبير بن عبد المطلب يقول:

إِنَّ الفُضُولَ تَعَاقَدُوا وَتَحَالَفُوا ** أَلاَّ يُقِيمَ بِبَطْنِ مَكَّةَ ظَالِمُ

أَمْرٌ عَلَيْهِ تَعَاقَدُوا وَتَوَاثَقُوا ** فَالْجَارُ وَالْمُعْتَرُّ فِيهِمْ سَالِمُ

بل إن قريشا كلها أدركت عظم الأمر، فسمت هذا الحلف بحلف الفضول، قال ابن كثير في البداية والنهاية: (فسمَّت قريشٌ ذلك الحلف حلفَ الفضول، وقالوا: لقد دخل هؤلاء في فضلٍ من الأمر)

ولك أن تتصور كيف كانت هذه الوثيقة من أهم الذكريات التي كانت تطل على خاطر رسولنا الكريم ﷺ من تاريخه قبل البعثة، وكانت نفسه تمتلئ منها غبطة وإكباراً كلما تذكر أنه كان أحد الشهود على توقيع هذه الوثيقة الشجاعة والمشاركين فيها.. فلقد قال :

(لَقَدْ شَهِدْتُ فِي دَارِ عَبْدِ اللهِ بْنِ جُدْعَانَ حِلْفًا مَا أُحِبُّ أَنَّ لِيَ بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ، وَلَوْ أُدْعَى بِهِ فِي الإِسْلامِ لأَجَبْتُ) [1]

وقال: (شَهِدْتُ حِلْفَ الْمُطَيَّبِينَ مَعَ عُمُومَتِي وَأَنَا غُلَامٌ فَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي حُمْرَ النَّعَمِ وَأَنِّي أَنْكُثُهُ) [2]

يقول الغضبان: "كان حلف الفضول واحة في ظلام الجاهلية، وفيه دلالة بينة على أن شيوع الفساد في نظام أو مجتمع لا يعني خلوه من أي فضيلة، فمكة مجتمع جاهلي هيمنت عليه عبادة الأوثان والمظالم والأخلاق الذميمة كالظلم والزنا والربا، ومع هذا كان فيه رجال أصحاب نخوة ومروءة يكرهون الظلم ولا يقرونه، وفي هذا درس عظيم للدعاة في مجتمعاتهم التي لا تحكِّم الإسلام، أو تحارب الإسلام." [3]

[1] - ابن هشام : 133/1
[2] - أحمد، برقم 1567، وهو في السلسلة الصحيحة
[3] - المنهج الحركي للسيرة النبوية – منير الغضبان

وشبيها به ذلك الرجل الذي له دين على أبي جهل، وقد جاء يتقاضاه إياه وأبو جهل يمتنع، وحين مر على مجالس القوم بالبيت قال لهم: ألا رجل أستعين به على أبى جهل ليدفع لي حقي، فقالوا له: عليك بهذا الرجل، وأشاروا إلى النبي ﷺ وهم لا يقصدون إلا السخرية به، فذهب الرجل إلى النبي وقال له:

أريد أن أستعين بك على أبى جهل ليدفع لي ما عليه من المال، وقد أجابه النبي إلى ذلك، وذهب معه إلى أبى جهل، وما هو إلا أن طرق عليه بابه، حتى خرج له أبو جهل، فقال له : أد لهذا الرجل حقه الذي لديك، فقال له أبو جهل: نعم أؤديه حالاً، ثم دخل إلى بيته وخرج بالدين الذي عليه، وكانوا قد بعثوا رجلاً منهم ليتابع هذه الحادثة، ليرى هل يستجيب أبو جهل للرجل صاحب الدين أم لا، وكيف يتلقى رسول الله ﷺ وهو يطرق بابه؟ فلما عاد إليهم الرجل وأخبرهم أن النبي ﷺ هو الذي طرق الباب؛ وهو الذي تولى مطالبة أبى جهل عن الرجل، هالهم ذلك، فلما التقى بهم أبو جهل سألوه:

كيف تلقيت محمداً بهذا الأدب، ونزلت على إرادته بهذه السهولة، فقال لهم: لقد رأيت فوق رأسه فحلاً من الإبل يريد ابتلاعي، فلم يكن مني إلا الإسراع بدفع ما علي حتى لا يبتلعني هذا الفحل)

هذه رجولته ومروءته في نصرة الضعيف، والوقوف بجواره وقضاء حاجته، ومجابهة الظالم من أجله.. مهما كانت العواقب والنتائج.! لم يتملص النبي من صاحب الحق، بحجة أن بينه وبين الظالم سجال من العداء والخلاف، أو يرسله إلى غيره ليطالب الظالم بالحق.. لم يفعل شيئاً من هذا، لأن محمداً ﷺ سيد الفضيلة، وفارس المروءة.. وليعلم أمته المسارعة في قضاء الحاجات، وغض الطرف مما يحول دون قضائها.

إن النخوة والشهامة والمروءة ونجدة المظلوم صفات أصيلة في طبائع العرب.. لقد كانوا خليقين بأن يظهر فيهم هذا الدين الذي يقدس العدل والإنصاف، فيكنوا أهله ودعاته وحملة مشاعله للعالمين، ورغم الشرك وعبادة الأصنام ورذائل الأخلاق وأفعال الجاهلية المنكرة.. فقد كانت فيهم بعض الفضائل التي حمدها الإسلام وأقرها واستبقاهم عليها.. ففي الوقت الذي كان الفارسي يستبيح أن يطأ أمه وابنته، كان العربي يجود بنفسه دفاعاً عن عرض جارته أو زوجة من أجاره، قال شاعر الجاهلية عنترة:

وأغض طرفي إن بدت لي جارتي ** حتى يواري جارتي مأواها

وقيل:

(كان من العرب من يسلب وينهب لكنهم في ذات الوقت كانوا يكرهون الكذب والخيانة، ويعفون عن الغدر والخسة والطعن في الظهر، لقد كانت الأمم تقهر أتباعها ورعاياها، أما العربي فعاش حراً طليقاً أنفاً كالجواد البري الذي اعتاد الحرية ولم يعتد أن يرُكب ظهره!)

وحينما هاجر رسول الله ﷺ وأصحابه، خلفوا وراءهم النساء والأطفال والشيوخ وقلوبهم مطمئنة لسلامتهم من الأذى أو العدوان، وقد كان من السهل أن تستعملهم قريش كوسيلة ضغط على المسلمين، أو أن تقتلهم حتى تفجع قلوبهم ، ولكن العربي ليس من عادته أن يسيء إلى هذه الأصناف.!

ويلطم الطاغية أبو جهل ذات النطاقين، فيطير قرطها من أذنيها، فيتلفت حوله ويقول لأصحابه: لا يتكلمن أحدكم بما رأى حتى لا تتحدث العرب أن عمرو بن هشام قد صفع امرأة.!

ما عرف من النساء أشد عداوة للإسلام والمسلمين والرسولﷺ كما عرفت هند بنت عتبة رضي الله عنها، وما كان من النساء من بينهن وبين الإسلام ثأر كما كان لها.!

ولم لا؟ وقد فجعها الإسلام في أعز ما لديها من رجال الدنيا في أبيها وأخيها وعمها.

وليس هذا الكره استنتاجًا أو توقعًا، ولكنه تصريحها الذي أعلنته وأظهرته بين يدي النبي ، حينما جاءته مسلمة موحدة فقالت له: (والله ما كان على ظهر الأرض أهل خباء أحب إلي أن يذلوا من أهل خبائك)

والخباء هو الخيمة من وبر وصوف، ثم صارت تطلق على البيت عموما، فهي كانت تحب وترغب أن يذل أهل بيت النبي ﷺ.

ونحن أمام هذا التصريح المعلن، نجد أنفسنا حسب ما قصت الأنباء والسير أمام امرأة لم تفرط في معاني الشهامة والمروءة والنبل، رغم جرحها الغائر، وثأرها المشتعل.

هل تتخيل معي هذا المشهد الغريب الذي رفعت به هند من معدن ونفاسة المرأة العربية؟

يقول المؤرخون:" وكان لهند في جاهليتها موقف مع زينب بنت المصطفى ، فقد كانت بمكة مع زوجها أبي العاص بن الربيع وأرسل النبي ﷺ من يأتيه بها إلى المدينة، وكان ذلك بعد (بدر) ولم تجف دماء قريش بعد، وكانت (هند) قد أصيبت بأبيها وأخيها وعمها، وكانت تطوف على مجالس قريش وأنديتها تُزكي نار الثأر، وتؤجج أوار الحرب، وفي الطريق لقيت زينب بنت رسول الله ﷺ، وكان قد تسرَّب خبر استعدادها للخروج لأبيها فقالت هند: أي بنت محمد: بلغني أنك تريدين اللحوق بأبيك!!.. أي ابنة عمي، إن كانت لك حاجة بمتاع مما يعينك في سفرك، أو بمال تبلغين

به إلي أبيك، فعندي حاجتك فلا تستحي مني، فإنه لا يدخل بين النساء ما يكون بين الرجال، تروي زينب رضي الله عنها ذلك، وتقول: ووالله ما أراها قالت إلا لتفعل.

ثم يوم خروج زينب يتعرض لها رجال من قريش، يريدون إرجاعها، فتسقط من على ناقتها وكانت حاملاً فتنزف، وتسمع هند، فتخرج مسرعة وترفع عقيرتها في وجه قومها: معركة مع أنثى عزلاء؟ أين كانت شجاعتكم يوم بدر؟ وتحول بينهم وبين زينب وتضمها إليها وتمسح عنها ما بها، وتصلح شأنها، حتى استأنفت الخروج إلى أبيها في أمن وأمان."[1]

وأمام هذا النص نستجلي بعض المعاني المهمة:

– لقد كانت في حالة حزن عاصف وثأر تشتعل ناره في جنبات قلبها مما دعاها تطوف على بيوت الناس وأنديتهم تجدد ذكرى الثأر وتطالب به، ومعنى هذا أنها لو لقيت أي خيط يمت للإسلام والمسلمين بصلة لأحرقته ومزقته، ولكنها لم تنس معالم النبل والشهامة حينما لقيت زينب، واستطاعت أن تنتصر على هوى النفس فلا تعاقبها بذنب أبيها لديها.

– يقف العقل مدهوشا أمام عرضها المال على زينب حتى تهاجر إلى أبيها، وهي لا تعني هجرة بنت إلى والدها، ولكنها تعني في المقام الأول هجرة لوطن الأعداء الذين قتلوا ذوي رحمها، وتعني كذلك أن تكون هجرة للدولة الناشئة المناوئة فتعمل على نموها وكثرتها. ومع هذا تعرض عليها المال والمساعدة.

– لم يكن عرض المال من هند على زينب مجرد مجاملة، وإنما قالت لها بحنان بالغ : لا تستحي مني في أن تطلبي المال الذي يبلغك إلى أبيك، وهو ما يعني الصدق في العرض، والمزيد في الحب

[1] - راجع الدولة الأموية عوامل الإزدهار وتداعيات الإنهيار - د. علي الصلابي

والرفق، لابنة العدو والقاتل، فتؤكد لها بقولها: (فإنه لا يدخل بين النساء ما يكون بين الرجال) وهو ما يشير إلى عقلها الحكيم في ظل أناس تغيب عقولهم إذا قتل ذويهم، فيدفعهم الانتقام إلى العمى الساحق ليأكلوا الأخضر واليابس، ولا يبقوا على شيء من طرف الخصوم. حتى أن زينب أقسمت بأنها تفعل من صدق ما رأته في حديثها وعطفها.

– وحينما سقطت زينب من فوق دابتها بسبب اعتراض الرجال لها فنزفت وتألمت، هبت هند لتدافع عنها وتنصرها وتوبخ هؤلاء فقدانهم للرجولة، فتقول :(معركة مع أنثى عزلاء؟ أين كانت شجاعتكم يوم بدر؟) ورغم أن الرد من هؤلاء الرجال كان يمكن أن يكون مقنعا بأن زينب بنت ذلك الرجل الذي هزمنا في بدر، أو أنها ابنة الرجل الذي تسبب في قتل أبيك وأخيك وعمك، ولكن ذلك الحساب يغلق تماما ولا يكون له جدوى حينما يفقد الرجل شرفه أمام امرأة، فيعاملها بقسوة ويستحل ضعفها، ويستبيح وحدتها.

ما أروع هند في شهامتها ومروءتها التي ردت بها صنيع السفهاء من الرجال، وإنها لشهامة خلدها التاريخ، ونبل يظل ماثلا للعبرة على طول الزمان، وأمام هذا القلب الذي يمتلئ بالسواد للإسلام والمسلمين، لم تنس هند إنسانيتها ومروءتها وشهامتها العربية، واستطاعت أن تنتصر على وتر الحقد المستعر، لتعزل زينب عن ذنب أبيها، ولا تؤاخذها بما صنع بها دينه من مقاتل قومها، فكانت بموقفها آية في الشرف والسمو.

ويأتي قانون الإجارة الذي لم يكن ليقل عن حلف الفضول في مكرمته وفخاره، فقد كان يبسط المجير حمايته على المستجير، ويمنعه وينصره ويدافع عنه ويحميه ممن يريد إيذاءه أو تهديده ما بقي في هذا الجوار.

وهو الذي أفاد منه رسولنا الكريم ﷺ وصحابته الكرام في أوقات المحن وزمن الاضطهاد فقد دخل في جوار (المطعم بن عدي) بعد عودته من رحلة الطائف التي لقي من إيذاء سفهائها وصبيانها ما أسعد أعداءه وشماتتهم فيه، وانتظروا لحظة رجوعه حتى يسخروا منه، فإذا بالمطعم بن عدي يحيطه بصفين من أبنائه المدججين بالسلاح، وهم على شركهم ويتحرك رسول الله ﷺ حيث شاء وهو في حراستهم وحمايتهم، فلا يفكر أحدهم أن يتطاول عليه أو يمسه بسوء.

أما الصحيفة الجائرة فما خبر رهطها ببعيد، فقد كانوا خمسة من الأحرار أبوا على أنفسهم وأبت عليهم مروءتهم أن يُظلم هذا الشعب من قريش، يلقى الضيم والقطيعة ويوشك على الهلاك والضياع، فتحركوا يستحثون همم الناس ويوقظون في ضمائرهم نخوة العرب ويقولون:

أيهلك هذا الحي من قريش بين أظهرنا، كيف يطيب لنا طعام أو شراب، وهؤلاء يموتون جوعاً وعطشاً ؟!.. ولم يزالوا على هذا الرفض حتى التف حولهم من رأى رأيهم ومزقوا صحيفة الظلم، بعد ثلاث سنوات من القطيعة والحرمان، أشرف معها المسلمون على الهلاك المحقق.

إن نصرة المظلوم خُلق عظيم.. ما استشرى في أمة، إلا كان صمام الأمان لمجتمعها من عوامل الزوال والضمور، وكان حافظاً لها من الضعف والضياع والانحراف، فهو عين العدل وذروة الإنصاف.. يُقيمه الأفراد كما تقيمه المؤسسات، خالصاً لوجه الله سبحانه بعيداً عن التعصب لحزب أو طائفة أو رغبة في الشرف والجاه.

شهامة لا يهدمها الجحود ؟

ليس هناك من صفة أخس من الجحود في هذا الوجود.. وما أكثر ما نرى من صفة الجحود هذه الأيام، تنتشر بين أناس كنت في يوم من الأيام تقتص من وقتك ومالك وراحتك لراحتهم وسعادتهم وهنائهم.!

إحساس عميق بالغدر والخيانة حينما تعطي وتمنح وتبذل وتجود، ثم لا تجد ممن أحسنت إليهم غير النكران والكفران.. قد يكون قلبك قوياً فتياً أمام نوائب الحياة وصدمات الأيام، يستطيع أن يقابلها بثبات ويواجهها بصلابة، لكنني أثق أن صدمة الجحود قوية تعيا بها النفس عياً، ويئن لها القلب أناً.. وفي حياتك لابد أن تُقابل هذه الأصناف الجاحدة، ولابد أيضاً أن يعتصرك الندم على ما قدمته لهم، ولكن لابد لك أن تتمالك نفسك وتتخطى هذه الأزمة التي كشفت عن حقيقة صاحبها.

وأنت بدورك.. تجاهل هؤلاء الخونة الغادرين، واجعل صنيعهم درساً من دروس الحياة التي تتعلمها كل يوم، تعلم أنك لم تخسر شيئاً وإنما هم الخاسر الأكبر، حينما خسروا رجلا ذو مروءة ونجدة، خاصم هذه الوجوه العكرة الكالحة، فرؤيتها ومعاشرة أصحابها يُفسد عليك الحياة وقد قيل:

(إذا أحببت أن تتعلم فلابد أن تتألم.. الحياة مملوءة بحجارة الجحود، فلا تتعثر بها، بل ابن منها سلماً إلى قمة المجد الأخلاقي)

في أحد المقاطع الشهيرة على اليوتيوب تظهر قصة مؤلمة تجسد معنى الجحود والنكران والأنانية وانعدام الإنسانية.. ها هي امرأة حزينة استمع إليها الناس وتفاعلوا مع قصتها المأسوية، التي تعرضت فيها لآلام الجحود التي لا يشعر بها غيرها، حينما تبرعت بكليتها لمديرتها في العمل، ولكن الأخيرة قابلت ذلك الفضل والإحسان بفصلها من العمل، لأنها أخذت وقتاً كبيرًا في عملية الاستشفاء وفترة التعافي.. وهكذا تكون المكافأة لمن وقفت بجانبها وضحت من أجلها بجزء من جسدها حتى تُنقذها من الموت وترحمها من الآلام، ويا لها من امرأة صغيرة حقيرة

معدومة الخلق متبلدة الضمير والمشاعر، لا تبالي بأن تحمل عضواً من جسد امرأة تستأنف به حياتها، ثم تهينها وتفجعها وتقطع رزقها، وترميها في الشارع ذليلة كسيرة.

إنها يصدق فيها قول زهير :

ومن يصنع المعروف في غير أهله ** يكن حمده ذماً عليه ويندم

إن خطورة الجحود على المجتمع وعرة مذهلة، لأنه يجفف مشاعر البر في نفوس المحسنين، التي تعرض جراء ما تقابله من صور الجحود المختلفة.. ولماذا لا تنأى بنفسها عن هذه الصدمات القاسية.. ولكن بعض الفاهمين يقول:

(لا تستغرب إن أعطيت أحدهم عصاً يتوكأ عليها ويهش بها على غنمه، فشجّ بها رأسك !)

إن النفوس السوية المعتدلة تراها كريمة وفية، تقر بالفضل لأصحابه، وتحمد صباح مساء من أسدى إليها معروفاً، وترى جميله طوقاً حول رقبتها لا تنزعه أبداً.. بل تراها تستمتع بذكر هذا الجميل فتتحاكى به ليل نهار، وتقص نبأه على القاصي والداني، لا تخجل من ذكره وتكراره، ولا يخجل صاحبها أن يقول أمام الناس: أكرمني فلان.. وأحسن إلى فلان.

لأنها نفوس جبلت على الوفاء، وتحلت بالنقاء.

وصدق الشاعر اللبيب في قوله:

إن أنت أكرمت الكريم ملكته** وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

وكأن هذا البيت قيل في الخارجي (عامر بن حطان) إذ يروي الإخباريون أن الحجاج لما ظفر به، أمر بضرب عنقه وقام السياف على رأسه، فقال الحجاج من شدة حنقه على عامر: اضرب عنق ابن الفاعلة ! فرفع عامر رأسه وقال للحجاج: بئس ما أدبك أهلك يا حجاج! أبعد الموت غاية أستبقيك لها؟! ما الذي آمنك أن أراجعك بمثل ما ابتدأتني به من السب؟! فاستحيا (الحجاج) ونكس رأسه.

ثم رفع رأسه فقال لعامر: أفيك موضع للصنيعة؟ قال: نعم، فدعا له بفرس بسرجه ونفقةٍ، وقال: امض لشأنك فلما صار إلى قومه قالوا: عد لقتال الفاسق – يعنون الحجاج- واللهُ أطلقك لا هو فقال: هيهات! غل يداً مطلقها، واسترق رقبةً معتقها، ثم قال:

أأُقاتل الحجّاج عن سلطانه ** بيدٍ تقرّ بأنّها مولاته

إني إذاً لأخو الدناءة والذي ** عفّت على عرفانه جهلاته

ماذا أقول إذا وقفت موازياً ** في الصفّ واحتجّت له فعلاته

وتحدّث الأكفاء أنّ صنائعاً ** غرست لديّ فحنظلت نخلاته

أأقول جار عليّ، إني فيكم ** لأحقّ من جارت عليه ولاته

تالله لا كدت الأمير بآلةٍ ** وجوارحي وسلاحها آلاته [1]

وفي حياته كثيراً ما عانى عميد الأدب العربي (طه حسين) من جحود الأقران ومقابلة الإحسان بالجفاء والهجران والإساءة، لقد كان الرجل خيراً محسناً كريماً لا يتأخر في مساعدة من حوله من معارفه وقاصديه، ولا يتوانى في تحقيق آمال أصحابه والسعي لقضاء حوائجهم، لكن الجحود الذي كان يلاقيه، لم يمنع من خصاله الطيبة الكريمة أن تستمر في منهجها وطريقها.. وكان من حوله يلومونه على إحسانه لمن لا يستحق، وأنه يضع المعروف في غير أهله.. أما الذين لقي منهم هذا الجحود فما أكبرهم وما أكثرهم!

ولك أن تتعجب أن يكون منهم هؤلاء الرواد الكبار والشخصيات العلمية المرموقة، والذين نعرض مواقفهم معه حسب ما ذكره تلميذه الدكتور (محمد الدسوقي) في كتابه الشيق (طه حسين يتحدث عن أعلام عصره) والتي لاحظت تكرارها في مواقف شتى ومع أناس كثيرين وكان منهم الدكتور (أحمد أمين) صاحب (ضحى الإسلام) "حيث كان العميد عضواً بلجنة التأليف والترجمة والنشر، وكان (أحمد أمين) يلجأ إليه في حل مشكلات أبنائه في التعليم، وكان طه يعاونه قدر المستطاع، حتى أنه استطاع أن يوفر لبعض أبنائه فرصة السفر للخارج للدراسة على حساب الدولة، ولكن أحمد أمين مع ذلك، تنكر له وانضم مع الدكتور السنهوري ضد طه حسين، وكان يقول: من الغريب أني أحسنت إلى كليهما، وكنت أعمل على تحيق ما يطلبان مني ومكرا بي، ولست أدري سبباً لهذا!

[1] - إعتاب الكتاب لابن الأبار محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي

وفي جلسة من جلسات المجمع حدث خلاف بين الأعضاء فيمن يتولى الإشراف على المعجم الكبير، فلهذا الإشراف مكافأة مقدارها ثلاثون جنيهاً شهرياً، ولما احتدم الخلاف ، وكان الدكتور (أحمد أمين) يصر على أن يعهد بالإشراف إليه، وقفت وقلت: ما رأيكم فيمن يتولى الإشراف على هذا المعجم مجاناً، واعترض الدكتور (أحمد أمين) على هذا، فقال له (لطفي السيد) وكان رئيساً للمجمع: هل تشك في قدرة الدكتور طه العلمية؟ فرد الدكتور (أحمد أمين) بالنفي ولكنه أضاف: ولكن الدكتور طه بإعلان رغبته هذه يعلمنا دروساً في الأخلاق."

أما السنهوري فقد ساعده (طه حسين) ولكنه كان ممن أساؤوا إليه، فقد كان النقراشي مع النحاس ثم انشق عليه وانضم السنهوري للنقراشي وخاض معه في السياسة حين عين وكيلا لوزارة المعارف مع النقراشي، لكن السنهوري أخذ يكيد لي ويتآمر عليه وهو لا يدري..

وقال: إن نكران الجميل شيء فظيع ويبدو أنه مرض متفش في الدنيا، ولكن هذا النكران لا يؤثر فيّ لدرجة أن يحول بيني وبين عمل الخير ما استطعت، وهذا يذكرني بمثل إسباني يقول: قال الرجل لصاحبه إن فلاناً يذكرك بسوء فرد عليه وقال: عجباً كيف يفعل وأنا لم أقدم له معروفاً قط.

ولك أن تتعجب أن (طه حسين) هو السبب المباشر لشهرة الكاتب الكبير (توفيق الحكيم) تلك الشهرة التي كان لابد للحكيم أن يحمل جميلها طول عمره، حتى حدث ما حدث.!

قال العميد: (كنت سبباً في شهرة الأستاذ (توفيق الحكيم)، وجذب الأنظار إليه واهتمام الناس به، فقد كتبت عن مسرحيته (أهل الكهف) مقالاً أشرت فيه إلى أن هذه المسرحية عمل فريد وجديد في تاريخنا الأدبي، وكنت قبل قراءة هذه المسرحية لا أعرف شيئاً عن الأستاذ الحكيم وقد أحضرها لي الدكتور محمد كامل حسين والأستاذ حسين محمود، وطلبا مني قراءتها ونقدها، وقد أعجبت بالمسرحية وكاتبها، وبعد نشر هذه الكلمة بعث إلى الأستاذ الحكيم برقية شكر من دمنهور حيث كان يعمل في النيابة هناك، وصمت برهة ثم قال:

ولكن الأستاذ الحكيم غضب مني لأني كتبت عن شهرزاد وقلت: إن الأستاذ توفيق في حاجة إلى مزيد من القراءة الفلسفية، فقد أرسل إلي خطاباً يشتمني فيه ويقول بأنه قرأ في الفلسفة أكثر مما

قرأت، وأنه ليس في حاجة إلى نصائحي، ومن يومها نسي الأستاذ توفيق كل شيء ولا يجامل في أية مناسبة"

لقد أحسن النبي ﷺ إلى عدو الله ابن أبيٍّ بن سلول زعيم المنافقين، والذي ما فتئ يكيدُ لرسول الإسلام مرة في عرضه – السيدة المبرَّأة من فوق سبع سموات، عائشة الصدِّيقة بنت الصديق – ومرة أخرى بخُذلانه والانصراف عن الجيش في معركة تبوك، وتارة أخرى بِمُحالفته لأعداء الله اليهود للكيد للإسلام وأهله، ولكنَّه عفا عنه، بل أكرمه حيًّا وميتًا ودفنه بقميصه، بل تَمَنَّى ما هو أكبر من ذلك عندما نزل قوله – تعالى: ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾[1]، فقد تمنى ﷺ أن لو كانت الزيادة على السبعين سببًا في أن يغفر الله لهم، فيزيد على السبعين رغبة أن يغفر الله لهم فقد ذكر ابن عباس انه لما نزلت هذه الآية قال : (اسمع ربي قد رخص لي فيهم ، فوا لله لاستغفرن لهم أكثر من سبعين مرة لعل الله أن يغفر لهم)[2]

وكان من مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – التي رويت عنه أن سامح عَدُوَّه البكري، الذي أفتى بكفره وقتله، بل ضربه وحرَّض الدهماء عليه، ولما انقلبت الأحوال والظُّروف، إذا بالدولة والسلطان يطلبان البكري، ويشتد عليه الطَّلب، وتضيق عليه الدُّنيا بما رحبت، فلم يَجد مكانًا يَختفي فيه إلاَّ عند الشيخ ابن تيمية، فشفع له عند السلطان فعفا عنه، والموقف الآخر لما اختلى السُّلطان ناصر قلاوون بالشيخ ابن تيمية، وأخبره برغبته في قتل بعضِ العلماء والقضاة؛ بسبب ما عملوه ضد السلطان، وفتواهم بعزله ومُبايعة بيبرس، وأخذ السلطانُ يذكِّر الشيخَ بأنَّهم هم الذين سجنوه وظلموه، وأفتوا بقتله، ولكن الشيخ الذي رفع شعار "أحللت كل مسلم عن إيذائي"، وطبقها في مسيرته العملية، جعل يَحُثُّ السلطان على التسامُح والعفو، وقال كلمته المشهورة: "إذا قتلت هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم من العلماء"

قال ابن مخلوف – وهو من ألدِّ أعداء الشيخ –: "ما رأيت كريمًا واسعَ الصدر مثل ابن تيمية، فقد أَثَرْنَا الدولة ضده، ولكنه عفا عنَّا بعد المقدرة، حتى دافع عن أنفسنا وقام بحمايتنا، حرضنا عليه،

[1] - التوبة: 80

[2] - انظر: تفسير ابن كثير، ج2 ص363؛ حيث ذكر الأثر عن ابن عباس ،وعروة بن الزبير ومجاهد بن جبير، وقتادة، ورواه ابن جرير بأسانيد.

فلم نقدر عليه، وقدر علينا، فصفح عنا، وحاجج عنا" بل نقل عنه تلميذه أَنَّه كان يدعو لأعدائه، ولم يكن يدعو على واحد منهم أَلْبَتَّة"[1]

أحسن إلى أعدائك

أن تحسن إلى من ظلمك أو جهل عليك، فهو عمل لا يحسنه إلا الرائعون من البشر، الذين تألقت في نفوسهم جذوة الفضيلة وحب الإنسان، وجعلوا من الرجولة منهجهم في الحياة يواجهون بها المحسن والمسيء !

إن معنى الإحسان إلى العدو والخصم، لهو الإعلان الأكبر عن سمو النفس ورفعة معدنها وأخلاقها، والانتصار العظيم على حظوظها وشهواتها.

ومن ثبتوا في ميدان القدرة على العدو بالإحسان إليه، قد بلغوا الآية الكبرى في تحقيق معنى العفو والإحسان، وطهارة الفؤاد من الغلو وشهوة الانتقام.

ولقد أبى تاريخنا الأول إلا أن يقدم أروع المثل والنماذج والمواقف في التسجيل لهذه الخلة الميمونة، التي تتسامى عما ألفه البشر من خلة الانتقام والتشفي.

إنها معالم السمو والترقي والفروسية النجيبة.

رسولنا الكريم ﷺ، وفي فتح مكة، يوم انتصر على أعدائه وخصومه الذين عادوه وحاربوه وعذبوا أصحابه، لم يكن منه في هذا اليوم، يوم الغلب عليهم، إلا أن يحسن إليهم بالعفو ويطلق سراحهم.

وهذا علي رضي الله عنه على درب معلمه ورسوله وهاديه محمد ﷺ، يسجل اسمه في ساحة الفروسية، التي تبلغ مجدها في العفو عن الخصوم والإحسان إليهم بصورة مذهلة لا يتوقعها عقل بشر، يقول عنه العقاد رحمه الله: "أصاب المقتل من عدوه مرات، فلم يهتبل الفرصة السانحة بين يديه، لأنه أراد أن يغلب عدوه غلبة الرجل الشجاع الشريف، ولم يرد أن يغلبه أو يقتص منه كيفما كان سبيل الغلب والقصاص "[2]

[1] - العقود الدرية" لابن عبدالهادي و مجموع الفتاوى

[2] - عبقرية الإمام – عباس محمود العقاد

ويسرد العقاد بعض المشاهد العظيمة لتكون نبراسًا يضيء لنا سبل الأخلاق الرفيعة والفروسية النبيلة.

فقد "قال بعض من شهدوا معركة صفين: لما قدمنا على معاوية وأهل الشام بصفين، وجدناهم قد نزلوا منزلاً، اختاروه مستوياً بساطاً واسعاً وأخذوا الشريعة – أي مورد الماء – فهي في أيديهم، وقد أجمعوا على أن يمنعونا الماء، ففزعنا إلى أمير المؤمنين فخبر ناه بذلك، فدعا صعصعة بن صوحان فقال له: إئت معاوية وقل له: إنا سرنا مسيرنا هذا إليكم ونحن نكره قتالكم قبل الإعذار إليكم، وانك قدمت إلينا خيلك ورجلك فقاتلتنا قبل أن نقاتلك وبدأتنا، ونحنُ من رأينا الكف عنك حتى ندعوك ونحتج عليك، وهذه أخرى قد فعلتموها اذ حلتم بين الناس وبين الماء، والناس غير منتهين أو يشربوا، فابعث إلى أصحابك فليخلوا بين الناس وبين الماء، ويكفوا حتى ننظر فيما بيننا وبينكم، وفيها قدمنا له وقدمتم له.

ثم قال راوي الخبر ما معناه أن معاوية سأل أصحابه فأشاورا عليه أن يحول بين علي وبين المورد، غير حافل بدعوته إلى السلم، ولا بدعوته إلى المفاوضة في أمر الخلاف، فأنفذ معاوية مدداً إلى حراس المورد يحمونه ويصدون من يقترب منه، ثم كان بين العسكرين تراشق بالنبل، فطعن بالرماح فضرب بالسيوف، حتى اقتحم أصحاب علي طريق الماء و ملكوه.

وهنا تأتي الفرصة الكبرى التي لو شاء على أن يهتبلها، وأن يغلب أعداءه بالظمأ كما أرادوا أن يغلبوه به قبيل ساعة.. وقد جاء أصحابه يقولون: والله لا نسقيهموه. فكأنما كان هو سفير معاوية وجنده إليهم يتشفع لهم ويستلين قلوبهم من أجلهم. وصاح بهم: "خذوا من الماء حاجتكم وارجعوا إلى عسكركم وخلوا عنهم، فإن الله عز وجل قد نصركم عليهم بظلمهم وبغيهم " .

ولاحت له فرصة قبل هذه الفرصة في حرب أهل البصرة، فأبى أن يهتبلها وأغضب أعوانه إنصافاً لأعدائه، لأنه نهاهم أن يسلبوا المال ويستبيحوا السبي، وهو في رأيهم حلال. قالوا: أتراه يحل لنا دماءهم ويحرم علينا أموالهم؟.. فقال: (إنما القوم أمثالكم، من صفح عنا فهو منا ونحن منه، ومن لج حتى يصاب، فقتاله مني على الصدر والنحر، وسن لهم سنة الفروسية أو سنة

النخوة، حين أوصاهم ألا يقتلوا مدبراً ولا يجهزوا على جريح، ولا يكشفوا ستراً، ولا يمدوا يداً إلى مال.

ومن الفرص التي أبت عليه النخوة أن يهتبلها فرصة عمرو بن العاص وهو ملقى على الأرض مكشوف السوأة لا يبالي أن يدفع عنه الموت بما حضره من وقاء. فصدف بوجهه عنه آنفاً أن يصرع رجلا يخاف الموت هذه المخافة التي لا يرضاها من منازله في مجال صراء، ولو غير علي أتيح له أن يقضي على عمر و العلم أنه قاض على جرثومة عداء ودهاء، فلم يبال أن يصيبه حيث ظفر به، ولا جناح عليه."[1]

وتأمل هنا بعض ما جاء في سجل ديننا الناصع في معاملة الأسرى، وما أوجد لهم من الحقوق والواجبات، قبل أن تصاغ اتفاقية جنيف بأربعة عشر قرنًا من الزمان بشأن معاملة الأسرى، تقول الاتفاقية: (يجب معاملة الأسرى معاملة إنسانيَّة في جميع الأوقات، وعلى الأخصِّ ضدَّ جميع أعمال العنف أو التهديد، ولهم الحقُّ في احترام أشخاصهم وشرفهم في جميع الأحوال، ويحتفظون بكامل أهليَّتهم المدنيَّة التي كانت لهم عند وقوع الأسر، ويجب أن تعامل النساء الأسيرات بكلِّ الاعتبار الواجب لجنسهنَّ)

وهذا ما جاء به الإسلام فقد حرص على الإحسان إليهم في أول وأروع نموذج للرحمة عرفه العالم القديم، لقد وضع الإسلام تشريعات للأسرى، في الوقت الذي كان يُنكَّل بهم ويساقون للمقصلة، فقد وردت نصوص كثيرة في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، تحثُّ على معاملة الأسير معاملة حسنة تليق به كإنسان. يقول الله تعالى في سورة الأنفال:

(يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الأَسْرَى إِن يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ)[2]

[1] - المرجع السابق
[2] - الأنفال :70

كما قرَّر الإسلام بسماحته أنه يجب على المسلمين إطعام الأسير وعدم تجويعه، وأن يكون الطعام مماثلاً في الجودة والكَمِّيَّة لطعام المسلمين، أو أفضل منه إذا كان ذلك ممكنًا.. تنفيذاً لأمر الله تعالى: (وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا)[1]

وقرر له كسوة بالصيف، وأخرى بالشتاء، وقد عنون الإمام (البخاري) بابًا كاملاً أسماه (باب الكسوة للأسارى).. وأوصى النبي ﷺ أصحابه بحُسن معاملة الأسرى فقال: (اسْتَوْصُوا بِالأَسْرَى خَيْرًا)[2]

كما نهى النبي ﷺ، عن تعذيبهم وامتهانهم، حيث رأى ﷺ أسرى اليهود من (بني قُرَيْظة) موقوفين في العراء، في ظهيرة يوم قائظ،، فقال مخاطِبًا المسلمين المكلَّفين بحراستهم: (لاَ تَجْمَعُوا عَلَيْهِمْ حَرَّ الشَّمْسِ وَحَرَّ السّلاَحِ، وَقَيِّلُوهُمْ وَاسْقُوهُمْ حَتَّى يَبْرُدُوا)[3]

وامتثل الصحابة لقول النبي ﷺ فكانوا يحسنون إلى أسراهم في كل غزوة، و ها هو أحدهم يحدثنا عن عظيم امتثال الصحابة بأمره ووصيته وتوجيهه، يقول (أبو عزيز بن عمير) وهو أحد الأسرى: (كنت في نفر من الأنصار وقد قدموا بي من بدر، فكانوا إذا قدموا غداءهم أو عشاءهم خصوني بالخبز وأكلوا التمر لوصية رسول الله ﷺ بنا، فما تقع في يد أحد منهم خبزة إلا نفحني بها فأستحي فأردها على أحدهم فردوها عليّ ما يمسُّها) فسبحان الله ما أطوع أصحاب رسول الله له ﷺ !

وكان من بين الأسرى خطيب من خطباء المشركين، يحرض الناس عليه ويتكلم فيه بسوء وهو (سهيل بن عمرو) فأشار عليه أحد الصحابة أن ينزع ثنيتيه (أسنانه الأمامية) لئلا يخطب فيه بعد اليوم، فما كان منه ﷺ وهو الرحيم الرقيق إلا أن أبى أن يمثل به، ورجى الله أن يهيئ لسهيل الهداية، وأن يقوم مقاماً يدافع فيه عن الإسلام، إنه تماماً نفس القلب الذي أبى عرض ملك الجبال أن يطبق عليهم الأخشبين، فلا يكتفي بالعفو بل يرجو لهم النجاة والخير.

[1] - الإنسان : 8

[2] - الطبراني: المعجم الكبير، (977)، والمعجم الصغير، (409)، وقال الهيثمي: إسناده حسن، انظر: مجمع الزوائد، (10007).

[3] - الشيباني: السير الكبير، 591/2.

وكان الفاتح المسلم حينما كان يدخل بلداً قهر جيشها بالسيف، لم يكن يدخلها مزهواً متكبراً يعتريه الصلف والغرور، منتشياً بالنصر والغلب، وإنما كان يدخلها والتواضع يغمره، والخشوع لله يكسو جبينه، وأهل البلد المهزوم لا يفرون أو يضطربون، وإنما يفتحون نوافذهم ليشاهدوا الغزاة الجدد، يمرون في شوارعهم ذاكرين مهللين، في مشهد عجيب لم يألفوا مثله من قبل، يمرون أمامهم وكأنهم عابرين سائحين، لا فاتحون مستعمرون، وهكذا كان سلفنا الذين لم يحفظ التاريخ أبداً أن عاملوا أهل بلدة مفتوحة بوحشية، أو انتهكوا حرمةً، أو داسوا كرامة، أو تشفوا من عدوٍ منتقمين.

وحينما أسر المسلمون سبعين رجلا من قريش في غزوة بدر قال لهم النبي ﷺ: (استوصوا بالأسارى خيراً) وهي وصية عجيبة حينما تعلم أنها في حق من ناصبوه العداء طويلاً، وأخرجوه من أحب البلاد إليه، وآذوا أصحابه وأتباعه وأرادوا القضاء على دينه ودعوته.!

وفي فتح مكة وحينما وقعوا في قبضته، كان رد فعله آية الزمان وحديث الأنام، لقد قابل هؤلاء الذين حاربوه وطردوه وعذبوا أصحابه، وصادروا أموالهم واستولوا على دورهم، وسَبُّوه وشتموه ووضعوا الأذى على ظهره وهو يصلي، ونثروا التراب على رأسه والشوك في طريقه، وحاصروه في الشعب، قابلهم بكل عفو وتسامح، لم تسمع به الدنيا من قبل، لقد دخل عليهم مدججا بالسلاح، ولكنه رغم هذه المظاهر الحربية العنيفة أعلن عفوه العام، وكان أنموذجًا للرحمة حينما سأل أهل مكة: (ما ترون أني فاعلٌ بكم؟). فأجابوه: أخٌ كريم، وابن أخ كريم. فقال: (اذهبوا فأنتم الطلقاء)[1]

لقد علمنا القرآن أن نحسن إلى من أساؤوا إلينا وأخطأوا في حقنا.. وهو الإعلام الهام بأن حق الإنسانية خارج حساباتنا الشخصية، ومهما أخطأ الفقير أو المسكين، فإن له حقا في مالنا ونصيبا من إحساننا.. وكان (مسطح بن أثاثة) ممن تكلم في الإفك، وفي حق أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فلما أنزل الله براءتها، قال أبو بكر الصديق: (وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره- والله لا أنفق على مسطح شيئًا أبدًا بعد الذي قال لعائشة ما قال.. فأنزل الله: (وَلَا يَأْتَلِ

[1] - ضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (300/4)

أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ)[1] إلى قوله: (وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) قال أبو بكر الصديق: (بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه، وقال والله لا أنزعها منه أبدًا.)[2]

وفي حياة الأدباء يبرز الدكتور (طه حسين) مرة أخرى ليكون واحداً من هؤلاء المحسنين الكبار الذين كانوا يعشقون مساعدة الناس في حوائجهم، وفك ضيقهم، وتخليصهم من نوائبهم ومشكلاتهم، مهما قابل كما ذكرنا من صور الجحود والنكران.

وكان من صور إحسانه إلى أصدقائه ومواقفه الطيبة معهم، حيث قال: "لقد كنت أحب المازني وأقدره كل التقدير، ولما مات لم يكن له معاش، لأنه ليس موظفاً حكومياً، ولكني وأنا وزير للمعارف طلبت من مجلس الوزراء – وكانت هذه أول مرة في تاريخ المجلس – أن يقرر لورثة الأستاذ المازني معاشاً، واستطعت أن أحمل المجلس على أن يكون هذا المعاش ثلاثين جنيهاً شهرياً، ولو استطعت أن يكون أكثر لفعلت، ولكن المازني لم يكن موظفاً، وتقرير معاش لإنسان غير موظف فيه عسر، ولولا ما بذلته من جهد لاتجه المجلس إلى عدم تقرير معاش لورثة المازني رحمه الله"[3]

لقد كان المازني من أكثر الناس تهجمًا على طه، بل يكفه شراسة في نقده له، أن كان يعيره بلعته، ويغمزه بعماه في بعض نقده وتجريحه، وهي سابقة عظيمة لم يعبأ بها طه حسين، أو تُغير من همته نحو تقديم الخير حتى لمن جرحه وهاجمه.

وفي موطن آخر كان الجميع يعلم ما بين الأديب الكبير (مصطفي صادق الرافعي) والدكتور (طه حسين) من العداء الشديد والمعارك الطاحنة، التي كان الرافعي يكيل فيها لطه حسين حمماً من الإهانة والتعريض، في مقالات نارية سجلها في كتابه (تحت راية القرآن) فترى فيها ما يدهش الألباب من هجوم عنيف وقصفٍ حاد، وكان منها وأشدها الرمي بالإلحاد.

ولك أن تتعجب وتتساءل: هل بعد هذا العراك، يمكن أن يكون هناك مساحة من ود تثير عاطفة بين الطرفين، لا شك أن الدكتور طه لا يطيق حتى مجرد ذكر اسم الرافعي، لأنه من أكثر من تجرأ

[1] - النور: 22
[2] - رواه البخاري
[3] - طه حسين يتحدث عن أعلام عصره- محمد الدسوقي

عليه، وكَاَل له في الخصومة ونكل به أشد تنكيل وأقصى إهانة.. ولكن (طه) كان يبتسم ولا يغضب، بل حدث ما هو أروع وأعجب، مما يدلل على سمو الرجل وسماحة نفسه.. فحينما انتقل الرافعي إلى رحمة الله، كان طه وقتها عميداً لكلية الآداب، وكانت إحدى بنات الرافعي طالبة بهذه الكلية، وعجزت عن دفع المصروفات، فعرف طه حسين ذلك، وطلب من اللجنة المختصة أن تمنح بنت الرافعي المجانية، وأنه على استعداد لدفع المصروفات من جيبه الخاص.! فعل هذا رغم شراسة أبيها وعدوانه عليه.!

قسوة القلوب !

قال مالك بن دينار: (ما ضُرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة قلب، وما غضب الله عزَّ وجلَّ على قوم إلا نزع منهم الرحمة)

وقال سهل بن عبدالله: (كل عقوبة طهارة، إلا عقوبة القلب فإنها قسوة)

كان النور يكسو جبينه ويتلألأ الإشراق في وجهه، وملامحه الربانية تشع سكينة ووقاراً، وكنا حوله نجلس مأخوذين مبهورين، ثم ينساب حديثه العذب الذي يمتع به نفوسنا المشتاقة، وصدورنا الملتاعة، وفجأة يخرج العالم الرباني عن سمته وهدوئه، فينفعل في حديثه، وتحمر وجنتيه، ويزمجر وجهه، وتثور كلماته، ويضرب بقبضته الشديدة على منضدته، ويصيح بأعلى صوته ويقول:

(إن الإنسان بدون دين وبدون خلق هو أقذر وحش على هذه الأرض)

ذلكم هو شيخنا العلامة الكبير فضيلة الشيخ (حسن أيوب) رحمه الله وجعل الجنة مثواه.. وكم في الحياة من نماذج صدّقت مقولة الشيخ الغاضب، بل كم من أناس حسبوا على البشر، وما كانوا عليهم إلا لعنة وجحيماً.

وكأنما رضعوا من لبان الوحوش المفترسة، أو قدت قلوبهم القاسية من الصخور الصماء.. ولكن الحيوان لا يفعل بالحيوان ما يفعلونه هم بالإنسان، وكذلك الحجارة حسب ما أخبر ربنا سبحانه فمنها:

(لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاء وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِّ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ)[1]

لقد تربع الاستعمار القديم في غفلة من أمة القيم على بلاد الدنيا، يسرق وينهب ويستعبد ويقتل، وتستمر الحياة ..وتتصاعد النداءات بحقوق الإنسان وحريته، فهل رغم هذا توقف الكبراء عن ظلمهم وطغيانهم؟..لا.. فالحياة مازالت تذخر بأطماعهم، ومازالت الأرض تنضح بأمثالهم في كل عصر.. بل توسعت لتشمل صورتها حكومات ومجتمعات ودول وجيوش يشحنها الطمع، ويشطح بها الجشع، ويحركها الحقد فتتعدى على الأمم الصغيرة فتقتل الأرواح وتنتهك الحرمات وتنهب الثروات.. وهكذا قدر للإنسانية البئيسة أن يقودها هؤلاء البغاة الذين تجردوا من المشاعر وسلخوا أنفسهم من الإحساس.

ويتحدث الإمام الأكبر (محمود شلتوت) رحمه الله حول ذات المعنى، الذي أكده شيخنا (حسن أيوب) رحمه الله، من وحشية الإنسان حينما يتجرد من القيم فيقول: (أما الإنسان إذا قسا قلبه، وخلت من المروءة والشهامة نفسه، وعاش لنفسه فقط فإنه لا يعبأ بآلام الناس، ولا يكترث لمصائب ، ولا يشارك في تخفيف الويلات ، فذلك وحش ضار في صورة إنسان!

إن الرجل الذي لا يؤثر في نفسه منظر البؤس، ولا ضحية من ضحايا الفقر، لهو رجل فظ غليظ، قد من الحجر الصلد قلبه، وصيغت من الصلب الجامد أعصابه.. إن الرجل الذي يكون همه في ليله ونهاره، أن يحسب حساب دخله وخرجه، ولا يحدث نفسه في ساعة من ساعاته عما أحسن أو بر أو تصدق، لهو رجل غير جدير بإنسانيته، غير جدير بأن يعيش بين الناس كأنه واحد منهم، وإنما مكانه بين الوحوش الضاريات في جبل أو فلاة.. إن الإنسان هو الذي يرحم وهو الذي ينقذ المُوَرَط، هو الذي ينهض العاثر، هو الذي يحمل الكل، ويحنو على الضعيف.) [2]

ما أصدقه من كلام وما أروعها من حقائق.!

سُئل (كونفشيوس) من أحد تلامذته هذا السؤال:

[1] - البقرة:74

[2] - من توجيهات الإسلام للإمام الأكبر محمود شلتوت

كيف أؤدي واجبي تجاه الأرواح..؟

فأجابه (كونفشيوس): عندما تتعلم كيف تؤديه تجاه الأحياء.!

سئل أحد الأدباء.. كيف يستطيع الإنسان أن يجعل لحياته قيمة إذا كان لا يملك جاهاً يخدم به الآخرين ولا مالاً يساعدهم به؟ فأجاب: نجد الجواب عند الشاعر (أمادو نرفو) حينما قال: في كل ساعة من ساعات النهار تستطيع أن تجود بشيء للآخرين.. قد يكون ابتسامة في وجوههم، وقد يكون يداً تمدها لمصافحتهم، وقد يكون كلمة تمسح بها أحزانهم.. وعند الشاعر والفيلسوف الأمريكي (رالف أمرسون) جواب آخر هو: كن دائماً رسولاً يفتح الأبواب لمن يأتي بعده ..ولا تحاول أن تجعل من الدنيا طريقاً مسدوداً)

في أحد البرامج المذاعة التي كانت تتقصى مشكلات الناس وأزماتهم، عرض المذيع مشكلة لرجل في الأربعين من عمره، وبينما الرجل يقص مشكلته إذا به ينفجر من البكاء، لأنه لا يجد من القوت ما يسد به جوعة أولاده، ولا يتحصل على الدواء لمن مرض منهم.. والحق أننا نسينا كثيراً.. وابتعدنا عما كُنا عليه من قيم ديننا العظيم، ولا أعرف على أي صورة من الضياع.. سيكون مصير مجتمع تهان فيه الرجولة وينكسر كبرياؤها إلى هذا الحد.!

إن الرجولة الحقة تدفع صاحبها نحو آلام الناس ومشكلاتهم، فيواسي ضعيفهم، ويداوي جراحهم، ويخفف من مصابهم.. وشهامة الرجال تأبى على أصحابها أن يهنأوا بعيشهم سعداء مسرورين، وعلى بعد خطوات منهم، إخوة لهم نفوسهم معذبة، أهلكها الجوع وأضناها الفقر.. ونبل النفوس وشرفها لا يقبل أبدا بهذه الصورة البغيضة التي خانت معنى الإنسانية، فمروءتها تفسد على أصحابها إحساسهم بهذه المتع، وتدفعهم دفعاً نحو المتألمين.. يغيثون الملهوف ويفرجون المكروب، ففي ذلك السرور الحقيقي والسعادة الكبيرة.. وها نحن يُطالعنا نبأ المرأة المسكينة التي ألقت بنفسها من شرفة منزلها يائسة منتحرة، لأنها لم تستطع أن توفر لأبنائها مصروفات المدرسة.. فكيف يحدث هذا في مجتمع المسلمين، الذي يدين أفراده بالإسلام ويقرؤون القرآن.. فهل هذه فعلاً أخلاق القرآن ؟!

وهل هؤلاء هم من يتخلقون بأخلاق هذا القرآن؟! أن يرى الأغنياء من حولهم من المعذبين من يذبحهم الفقر بسكينه الباردة، فيقفون بلا شعور لا يُبالون بآلام المساكين والمحرومين والضائعين.. ألا ما أبعد هذه الحياة وأحيائها عن معنى الفضيلة التي رسم معالمها نبينا العظيم بما جاء من أخلاق الإسلام السامية.!

"ذنب عظيم أن تتمرغ الأمة في الشبع والتخمة، وتتفنن في ألوان الطعمة والأشربة على يد المسرفين، وهناك مساكين تتقطع أمعاءهم من الجوع، أو أيتام يعانون الحرمان، أو فقير تقهره الحاجة أو (أرملة فقدت عائلها فصارت تتغذى بدموعها، وتكتسي بهمومها، وتنظر بعينين زائغتين، لعلها تجد إنسانا تهزه إنسانيته فيرعاها، فإذا بها تجد ذئاباً تعوي لتمزقها وتقضى عليها.. أليس الجزاء هنا من جنس العمل ؟.. أليس هؤلاء الذين يموتون من شدة الشبع والسكر والعربدة وإنفاق الأموال ببذخ على شهواتهم الحيوانية بينما البطون من حولهم تعوي، والأجساد تتعرى، والبؤس يخيم على طائفة من الناس، هم إخوانهم في الإنسانية وفي العقيدة وفي الوطن.. أليسوا يستحقون هذا الجزاء الإلهي العادل؟ ..إنهم أشقوا الناس فأشقاهم الله، وما ظلمهم الله شيئاً ولكن كانوا لأنفسهم ظالمين.. وكما تدين تدان..) [1]

وبين يدي الآن وأنا أقلب في تاريخ الأعلام والأماثل هذه القصة الإنسانية الراقية للوزير الإنسان العلامة المفكر الكبير الدكتور (محمد البهي) الذي تقلد وزارة الأوقاف عام (62- 64 م) فماذا حدث؟

قام رحمه الله في يوم من الأيام بجولة تفتيشية في إحدى المحافظات، وكان الأمر سرًا لا يعلمه أحد من الوزارة، ولم يصحب معه أحدا من الموظفين، وحينما هم بعبور الشارع للوصول لباب المديرية، لاحظ من بعيد امرأة مسنة تُحاول الدخول إلى المبنى، ثم رأى يدًا تمتد من وراء الباب لتدفع المرأة فتسقط على الأرض، وتقوم المسكينة لتنفض عن ملابسها التراب، وتحاول الدخول مرة ثانية، لتعود نفس اليد القاسية لتدفعها مرة أخرى، وأمام هذا المشهد اللاإنساني، وقف الوزير الإنسان الدكتور (محمد البهي) بعد أن استنفرت حماسته واستشاطت حميته، وثارت غيرته وتولد

[1] - المرجع السابق

غضبه، فأسرع بعبور الطريق غير مبال بحركة المرور الكثيفة، وعند الباب وجد المرأة في العقد السادس من عمرها، فسألها عن أمرها، فأخبرته بأنها أرملة أحد موظفي الوزارة، وقد توفي زوجها منذ تسعة أشهر، بعد أن ترك لها أولادًا أربعة، كلهم دون سن الكسب، وأنها منذ وفاته وهي تتردد على المديرية لتسوية معاشه دون طائل، حيث يحال بينها وبين الدخول على النحو الذي رأى! وإن دخلت لا تجد من يستجيب لشكواها.!

ولم تكن المسكينة بحاجة لأن تشكو فاقتها وفقرها، فالحال أمامه واضح من ثيابها المهلهلة! ولما انتهت من كلامها هدأ رحمه الله من خاطرها، وطلب منها الانتظار حتى يستدعيها، ثم دلف إلى مبنى المديرية.. ليبدأ تفتيشيه المفاجئ، وقد رأى بنفسه وعلى الطبيعة، جانبًا مما ينتظره من مفاجآت بالداخل، وكما توقع كانت هناك فوضى كبيرة، فالعاملون يجلسون جماعات وأفراد يُطالعون الصحف والمجلات ويحتسون القهوة والشاي، ويتجاذبون الحديث والنقاش في أمور السياسة والأدب وأخبار المجتمع وأفلام السينما و....و....، بينما المتخلفون عن العمل أكثر بكثير من الحاضرين، فأيقن أن الرقابة قد غابت، والضمير قد انعدم.. وقام بجولته وفتش وراجع وسأل وكانت الحصيلة مؤلمة، ثم طلب الملف الذي حفيت المرأة طيلة الشهور التسعة في السعي خلفه، فإذا به على الحال التي كان عليها يوم توفي زوجها، لم يتحرك من موضعه، وإنما دُفن بين عشرات الملفات.. وفي غضبٍ كبير تساءل رحمه الله: كيف يكون الحال لو كانت هذه المرأة أصغر سنا؟ أو على مسحة من جمال؟ أو ميسورة الحال قادرة على العطاء؟

هل كانت أوراقها تتأخر تسعة شهور؟

وكيف يستطيع مثلها أن يعيش طيلة هذه الشهور التسعة دون مورد؟

هل تتسول أم تسرق؟

هل تفرط في أولادها وتلقيهم إلى الضياع والتشرد؟

أم تبيع أثاث بيتها، وهل لمن كان على مثل حالها أثاث أم تبيع ماذا؟!

تساؤلات غاضبة نطق بها الإنسان الثائر الغيور، ولم يسمع عنها جوابا.!

وأصدر تعليماته أن يرسل الملف فورًا إلى ديوان الوزارة مع مخصوص، على أن تبحث الحالة، ويعد تقريرا في خلال ساعتين من وصوله.. ولما وصل الملف للوزارة، لقي نفس الإهمال ولم يستجب أحد لقدومه، لأنهم لا يعلمون أن الوزير هو الذي أرسله بيده، فلما وصل (البهي) في الغد طلب الملف الوارد بالأمس، وإذا به كما هو.. فأحضر المسؤول وصرخ فيه غاضبًا وهو يقول: ماذا تفعل المسكينة وأطفالها؟ من أين يعيشون؟ أما كفتهم الشهور التسعة الطويلة، حتى يمتد عذابهم تسعة أخرى وربما أكثر؟ ولو كانت هذه المرأة زوجتك أو ابنتك أو أختك أكنت ترضى لها هذا الموقف؟ ووقع الجزاء على الموظف الذي أهمل وعلى الموظفين بالمديرية الذين تسببوا في تعطيل صرف المعاش هذه المدة.

وأمام هذه القصة الرائعة والمشهد الإنساني الفريد، والرجولة الفذة، لا نستطيع إلا أن نتحسر على حياتنا ومناصبنا التي اعتلاها لصوص، لا يراعون ضمائرهم ولا يعرفون الله ويهملون مصالح البلاد والعباد.

كم يكون الإنسان غبياً وخسيساً حينما يطرد من نفسه صفات الرجولة والمروءة والنخوة، ليصير حقيرا خسيسا يفتن على الناس ويجتر لهم المصائب، ويصير عينا للظالم المتجبر، يرصد من خلالها حركاتهم وسكناتهم.. ولعل من أبشع صور الخسة ما حكاه لنا الشيخ (عبد الحميد كشك) رحمه الله في مذكراته عن (جريمة التكافل) أيام اعتقاله في سجون عبد الناصر !.

يذكر لنا الشيخ كشك رحمه الله فيقول: كان في السجن ما يسمي بالتكافل، وهو تعاون الإخوة فيما بينهم، بمعني أن من وجد يعطي من لم يجد.. لقد كنا نتعامل ما يسمي (بالكانتين) الذي يقوم بشراء الفاكهة، فهي تدر الربح الوفير للقائمين عليه ويعود بالفائدة علينا، حيث إن طعام السجن يأتي بأمراض لا يعلم مدي خطرها إلا الله تعالي.. !

والشئ الذي يثير في النفس كوامن الحزن، ولواعج الأسى، وينخلع له القلب من الهلع، أنهم حرموا التعاون فيما بيننا! فلم يكن في أحدنا طاقة أن يتعامل مع الكانتين لأنه عاجز عن ذلك لضيق ذات اليد، فإنه قبل أن يدخل السجن، كان يكتسب لقمة عيشه بعرق جبينه، فلما دخل

السجن وقع أهله في ضيق شديد، فقد كان من تسول له نفسه أن يطرق بابهم ولو بالسؤال عنهم كان مصيره كما يقولون (وراء الشمس)، فإذا ما مدّ يد المعونة، فتلك جريمة لا تغتفر .!

أعرف رجلا كفيف البصر ظل في السجن عامين، لأن جاره قد اعتقل فذهب إلى أهله وأعطاهم جنيهين تلك كانت جريمته !

أذكر ذات يوم أن القائمين على شأن (الكانتين) في سجن (أبي زعبل) جاءوا لنا بكمية وفيرة من البرتقال، ووزعت على المتعاملين مع (الكانتين) وحرم منها الذين لا يجدون ما ينفقون، وكنا في العنبر قد بلغ عددنا مائة وعشرين، منهم بعض أفراد لم يستطيعوا التعامل؛ ومن هنا حرموا من البرتقال، ذلك لأن القوانين الصارمة، تمنع منعا باتا أن يمد أحد المعتقلين يده بشيء أيا كان نوعه إلى أخيه في المعتقل، ومن ضبط متلبسا بذلك استدعي للتحقيق وحبس حبسا انفراديا في زنازين التأديب، حيث يصرف له رغيف واحد طوال اليوم بجانب قليل من الماء وبعض حصيات الملح !..

كانت القوانين صارمة إذا ما قام أحد (البسابس) جمع بسبس، من كتبة التقريرات السرية بالوشاية بأحد، وقد حدث ذات ليلة أن قام أحد المعتقلين في عنبرنا بحمل بعض الفاكهة إلى أحد الإخوة الذين حرموا من التعامل، وتسلل على يديه ورجليه في ظلمة الليل حتى لا يشعر به أحد من كتبة التقريرات، وأخذ طريقة إلى مكان هذا الأخ، وبينما هو يريد العودة إلى مكانه، إذ أخرج له أحد البسابس رأسه من تحت الغطاء بعدما رآه يتسلل إلى هناك وغطي رأسه من باب التمويه وصاح قائلا: قف عندك فقد رأيتك واشهدوا يا سكان هذا العنبر على ما فعل هذا! وتساءلنا ماذا فعل؟ وقال بأعلى صوته وكأنه ألقي القبض على عصابة من المهربين صاح قائلاً : (تكافل – تكافل – تكافل) .

لقد حبس كل من المتسلل والمتسلل إليه فما ذنبهما ؟

أما ذنب المتسلل لأنه ما زال يحمل بين جنبيه نفسا خيرة، وأما ذنب المتسلل إليه، لأنه علم ولم يبلغ ! أرأيت أمة مثل هذه الأمة التي تحكم حكما ينزع الرحمة من القلوب ويحطم الإنسانية في الإنسان.!) [1]

محنة الرجولة

أنا واحد من هؤلاء الذين يؤمنون بأن النزاهة المالية والمصداقية في التعامل المادي، من أبرز ما يدلل على قيمة الرجل ومروءته ومقامه وشرفه، والرجل الكبير الفخم المتسيد ذو العلم والسلطة والجاه والمقام الرفيع، لا قيمة له عندي لو كان في تعاملاته المادية صفرًا خائبًا.

يقابلني كثير من هذه الفئة في حياتي، والحق أن بُغضي لهم يفوق الخيال في بلوغه أعلى مراتب الكراهية.

التعامل المادي هو الذي يبرهن على دين الرجل وخلقه ويقظة ضميره، وإذا كان متهاويًا ساقطًا في التعامل المادي، فإنه وأمثاله لديهم استعداد كبير في رأيي أن يأكلوا الحرام وينهبوا مال الغير، وكل ما ليس لهم بحق.

بل أنا واحد من هؤلاء الذين لا يعرفون كيف ينامون إذا كان عليهم دين أو سلفة من صديق أو غيره، كما أنني مهما طال الزمن أو قرب، لا أنسى أبدًا مليمًا علي، هذه شخصيتي وهذا إيماني وطبيعتي، اللهم إلا إذا غلب النسيان حده في نفسي وطغى على جوانح الذاكرة، وهنا فقط ألقي باللوم على صاحب الحق أنه صمت وسكت عن حقه، ولأنه غفل أو جهل وأكون كذلك من أسعد البشر حينما يطالبني أحده بحقه عندي.!

[1] - مذكرات الشيخ عبد الحميد كشك

أنت تعرف أن عليك حقًا لغيرك، فكيف تقبل أن تماطل فيه وتماطل الناس حتى تعطيهم حقوقهم، كان لابد لك أن تكون حقوق الناس قلت أو كثرت، شبحًا مرعبًا يهددك ويقض مضجعك، أو نارًا ملهبة تسير وراءك تريد التهامك، حتى تنجز المال وترد الحاجة إلى أصحابها.!

لكننا للأسف نجد كثيرًا من الناس يتغافلون ويكبرون أدمغتهم، أو ما نسميه بالعامية – السكلمة- حتى لو كان لأحدهم حق ونسيه، تجده يُسر لذلك ولا يخبر به صاحبه ويتركه حتى يكون في النهاية من نصيبه وملكه، ويقول في نفسه ولمن حوله: اللي له حق يسأل عليه.

كان هناك حوار قرأته، وكان لابد من التعليق عليه وتسجيله وإحيائه للقراء مرة أخرى، وهو بين علمين من أعلام الأمة الكبار، نرى فيه ونتعلم منه الصورة المثلى للنزاهة في النظرة إلى المال والتعامل مع الناس فيه، والحذر والخوف من التعدي على حقوق الغير، أو أن يعلق بنا شيئا ليس من حقنا.

موقف يبرز صفحة النفوس الراقية الشريفة، التي تتنزه عن سمات السلب والنهب والسطو على مال الغير، حتى ولو كان مليمًا واحدًا مما يهدر قيمة الرجال.

إنهما أمير البيان (شكيب أرسلان) والأستاذ المجدد (محمد رشيد رضا) يقول شكيب: "ولما قفلت من الحجاز في رحلتي الأولى إليه وجاء رحمه الله – رشيد رضا – إلى السويس، ولازمني خمسة أيام إلى أن جاء ميعاد الباخرة التي ركبت فيها، أديت إلى الفندق الحساب عني وعنه، وبدون علمه، فلما أطلعه صاحب الفندق على ذلك، أمره بأن يرد لي ما كان أخذه مني عنه، فراجعته في الأمر، فأبى إلا أن يحاسب على نفسه من ماله، فقلت له حينئذ: إنه لا يزال لك عندي بقية حساب ثمانية جنيهات فقال: من أي جهة؟ فقلت له: اشتريت من مكتبة المنار كتبًا بلغ ثمنها ثمانية وأربعين جنيها، فأنا أرسلت لك حوالة بأربعين جنيها على أن أرسل إليك بالثمانية الجنيهات الباقية، في

وقت آخر وما زالت هذه البقية في ذمتي تحت الحساب، فإن كنت تأبى أن أحاسب أنا عنك، من جهة أجرة الأوتيل، فلا يليق بك أن تأبى أن أؤدي أنا إليك بقية ثمن الكتب، فقال لي: أخشى أن تكون ناسيًا، وأرى الأحسن أن تُبقي هذا الحساب المتعلق بالكتب إلى ما بعد وصولك إلى لوزان، حيث يمكن أن تتحقق وتراجع نفسك، فقلت له: إني غير ناس وليس من العدل أن تمنعني من دفع ما علي لك الآن.!

فلما رأى من عزمي هذا سكت مكارمة لي.

وفي المدة الأخيرة كان دخل عليه حساب من جهة مبلغ أرسلت به إليه لأجل طبع كتاب، ووجدت ما أرسلت زيادة على كلفة الطبع، فأراد أن يرد لي الزيادة وهي ثمانية جنيهات، فقلت له في الجواب: ما يدعوك إلى هذه العجلة؟ وعلى فرض أن هذه الزيادة بقيت عندك أفليست لك بحق؟ أفلستُ مديونًا لك بأكثر منها وأنت بالرغم من ضيق وقتك تصحح لي مسودات أربعة كتب لا كتاب واحد، فبعث إلي بجواب يقول لي فيه: لا تعد إلى مثل هذه الهفوة، أفأنا لا أقبل منك شيئا عن تصحيح أربعة كتب أو أكثر؟ لم يتحمل شممه أن أترك له شيئا من الحساب يقابل تعبه مع أنه تعب جزيل، وقد نالت منه الأزمة المالية في سنواته الأخيرة."

وليس لنا هنا أن نعلق على شيء إلا أن نقول: ما هذا الأدب وما هذا الرقي؟ وما هذا الشرف؟ وما هي هذه العفة والمروءة واحترام الحقوق؟!

ما أروع الناس لو كانوا بهذه الأخلاق، ففي أدق تفاصيل المال، كان كلا الطرفين يحفظ حقوقه ويعرفها ويؤديها للأخر لأنها حقوقه، ورغم تسامح الطرف الآخر فيها، إلا أنهم لم يكونوا يقبلون بها، أن تضيع على أصحابها الذين نسوها أو تسامحوا فيها، لأن ذلك هو برهان الرجولة، وعلامة الدين اليقظ، والضمير والحي.

أما – السكلمة– فإنها أخلاق الذين لا ضمائر لهم، وسوف يجدون من هذه المال الذي تساهلوا فيه جبالا من النار والألم تحرقهم يوم القيامة.

وعلى الجهة المقابلة نرى من يستهين بالمال حفاظا على معنى الرجولة التي تتجسد في كلمة، وانتصارا للكلمة التي تخرج من فم الرجل، لأنهم تعلموا أن الرجل كلمة وأن الرجل لا يرجع عن الكلمة.!

روى لي أحد الأصدقاء أن عما له وكان تاجر مواشى في صعيد مصر، وله مكان ومكانة معلومة فى السوق بين التجار، إذ كان من أكابرهم، فخرج لقضاء حاجة له، وترك ولده يرعى المال حتى يفرغ من حاجته، وعند عودته وجد ابنه هذا يتحاور مع بعض زبائنه على ثمن بهيمة.. اذ كان يعرضها الابن بثمن يقل عن مثيلاتها بكثير مما حدى بالمشترى أن يسأله مرة أخرى أهذا ثمنها؟! فقال الابن بكل ثقة نعم إن شئت ادفع واستلم.. كل ذلك والعم يتابع الحوار من وراء حجاب يمنع الرؤيا ولا يمنع الصوت، فدخل عليهم فإذا بالمشترى يسارع بالقول: إن ابنك هذا يريد أن يبتاعنى هذه البهيمة، وأكاد أجزم أنه لا يعرف قيمتها الحقيقية، فاستبطأت في الفصال حتى تعود، فقال له العم: "يا رجل.. أنا لا أرجع لولدي قولا ولو كان بنصف الثمن الذي أتفق معك عليه؛ خذ البهيمة حلال عليك وعلى أهل بيتك"

بقى أن نعرف أن ابن عمى هذا لم يكن قد بلغ الثانية عشر من العمر في هذا الوقت.

والموقف فيه إشارة تربوية فائقة، لقد أراد الرجل أن يعلم ولده أن الرجل الحقيقي هو الذي يحترم كلمته ولا يرجع عنها مهما كلفه ذلك.

رحم الله رجلا وكله ولده على ماله وأطيانه، فكان يقول: أنا أراعي الله تعالى في هذا المال وكأنه حق أيتام، ولم يبلغ به العشم أن يستبيح منه ما يريد، بحجة أنه مال ولده وأن الحديث يقول: أنت ومالك لأبيك، ورغم ثقته بأن هذا الولد يسعد لو أن والده أخذ من ماله أو نال منه ما يشاء، إلا أنه لم يفعل ذلك أبدًا وجعله حرامًا على نفسه.

كان رجلا عفيفا نزيها بل كان يتفنن في النزاهة.

رحم الله ذات الراجل الذي لم يأخذ مليمًا من مال زوجته، وحينما اضطرته بعض الظروف أن يبيع بعض ما ورثته من أطيانها لحاجة قاهرة لا تنفك أيضا عن مسؤولية تلك الزوجة، فإذا بها تفاجأ أنه أعطاها وكتب لها نصيبها الذي أخذه منها في أرضه قبل موته.

لم يستبح مال زوجته بحجة أنه زوجها والمنفق عليها، وأنها رفيقة عمره ودربه وحياته، وأنه وهي يجاهدان في تربية الأبناء وإسعادهما.

علما بأن هذه الزوجة لم تكن تسأله أو تناقشه أو تعترض عليه أو تطالبه بمالها.. فقد أعطته حياتها فكيف لها أن تبخل عليه بمالها؟ ولكن هذه المثاليات لم تكن لتهزم نزاهة الرجل وعفته وسمو نفسه وطهارة ذمته، لم يخضع أمام شيء من هذا أبدًا، ولم تضعف نفسه أما داع المال ولم تتوثب نهمته لتسطو على مال الأخرين حتى ولو كانوا من المقربين.

إنه والدي رحمه الله فما أرقاه وما أرفعه وأبعده عن هذا الصنف الحقير، الذي لا يتزوج المرأة إلا لمالها، ويبحث عن فتيات الأسر الغنية حتى تكون منهبة وبزنسا واستثمارا يُدر عليه المال، وربما لو افتقرت أو راح مالها، لطلقها وهجرها، لأنها لا تلزمه في شيء، فقد كان مالها غايته ومأربه وزواجه الحقيقي الذي يسعى إليه.

إنه رجل تعرت نفسه من أي مروءة أو شرف.

ومثله ذلك الذي يترقب راتب زوجته كل شهر يغتصبه منها، ولا يترك لها فلسًا واحدًا تتمتع به وتنفق على نفسها شيئا منه، وإذا حدثته في ذلك قال لك: ما كله للعيال هوه أنا باخد حاجة لنفسي.؟!

أعرف رجلا يرفض أي خاطب يتقدم لأخته اليتيمة بحجة أنه لا يليق، والحق أنه يخشى أن تتركه وتتزوج، فيحرم من المعاش الذي تقبضه عن أبيها المتوفى، هذا يحرم المسكينة من متعتها وحقها في الحياة، ويلجئها إلى العنوسة طمعا في مالها اليسير، كيف له أن يلقى الله تعالى؟!

هناك ثقافة عجيبة تسود مجتمعاتنا حين تعد المرأة من مقتنيات الرجل وتلغي لها أي سيادة أو كرامة أو وجود أو كيان أو حتى اعتراف باسم، هي نظرة جاهلية ليست من الإسلام والحضارة في شيء.

قرأت فتوى في هذا الإطار للشيخ أن باز في جوابه على من سأله: هل للرجل الحق في التصرف بمال زوجته مثل الذهب والمجوهرات برغبتها أو بغير رغبتها؟ فأجابه بقوله:

"ليس له التصرف في مالها إلا بإذنها، ليس للزوج التصرف في مالها إلا بإذنها؛ لأنها رشيدة فإذا كانت غير رشيدة فوليها الذي يتصرف؛ أبوها أو وكيل أو وكيل أبيها، أما الزوج لا، ليس له أن يتصرف، مالها لها."

إننا نحتاج كثيرًا لاحترام شخصية المرأة والنظر بعفة إلى مالها، واعتباره شيئًا يخصها ولا نوجه إليه سهام أطماعنا أو لعاب شهواتنا.

لنتعلم كيف نكون رجالا؟!

ألا إن المال من الاختبارات الدقيقة لكل من يدعي الحب والتأييد والرجولة والصداقة والشهامة.

نعم.. النقود هي تلك الصخرة التي تتكسر عليها وتنصدم على حدها كثير من الحقائق الواهية، وتنكشف عبرها كثير من الزيوف فربما نرى الرجل يصول ويجول ويخطب في الميادين، يدعي حبه للوطن وإيمانه بالشعب، وإذا جئنا إليه وقلنا له: ادفع لوطنك تبرع لبلدك، فإذا بنا نراه قد فر وانزوى.!

وترى من الرجال من يحيط بك ويدعي حبك والإخلاص لك، والقرب منك، وأنه أخ لك لم تلده أمك، فإذا حان وقت الشدة، وطلبت منه مالا، لم تجد أخًا ولا صديقًا ولا أي شيء إلا السراب والوهم.

وبعضهم يدعي حبه للخير، ويدعو الناس لمساندة أعمال البر والإحسان، وإذا توجه إليه الخطاب والطلب، كفر بما كان يدعو الناس إليه، بل يندم على كل كلمة خرجت منه، لأنها عدت بعاديها عليه فأحرجته.

أرأيت أخي كيف أن المال محرج للغاية؟ وكيف أنه كهذه العاصفة التي يتكشف الغبار بريحها القوي، فتعرف حقيقة الأشياء.؟!

الرجولة تعلن نعيها !

هل أخبرك أنه يمكن تحمل مصاب رجل واحد حينما يفقد الرجولة وتنعدم فيه النخوة، فإن ذلك يمكن أن يكون خفيفًا يسيرًا على النفس، وكذلك العقل الذي يسارع ليجد له المبررات والأعذار من سوء التربية وفساد النشأة، التي أخرجته إلى الحياة بهذا السوء وهذه التردي؟!

يمكن ذلك جدا وبلا مانع، بل توجد في كل مجتمع صورًا من هؤلاء المصابين يعرفهم الناس، ويدركون هذه العلل فيهم.

لكنني أخبرك أن الذي لا يحتمل ويفوق التصور والتأمل، أن يتحول المجتمع برمته، ليكون مريضًا بهذه العلة أو معتلا بهذا الداء (فقد الرجولة)

نعم فقد الرجولة هو من أشد الأمراض التي تصيب الرجال، وتذهب قيمتهم ومكانتهم، وتجعلهم خلطا عجيبا وشاذا من البشر لا تستسيغه الحياة.

ولله در الشاعر الموهوب الذي نعى ما فينا من ضعف وخور وضياع ورثى تاريخنا وأبطالنا فكان شاهدا بتغير الحال والمآل حينما قال:

ما عاد فينا فارسُ الأملِ

المدججُ بالرجولهْ

لم نعد رمزَ البطولهْ

لم تبقَ فينا نخوةُ الأحرار

.. تلكَ التي قد خطَّها التاريخُ

فى القصصِ الطويلهْ

ما عادَ فينا ابنُ الوليدْ

وسيوفُنا صدِئَتْ

وما عادتْ صقيلهْ

وأرى صلاحَ الدينِ ودَّعَ أرضَنا

تلكَ التي يوماً أعادَ ترابَها

متسائلاً..

ربَّاهُ : أينَ رجالُها ؟!

عذراً بُنى

ماتَ الأباةُ بأرضِنا

ورأيتُ صوتَ الحقِّ

مشنوقاً على أبوابِنا

وتسربلتْ أيامُنا البيضاءُ

أثوابَ الفتنْ

لكن بُنى

ما زالَ يحدونا الأملْ

أنْ سوفَ نجمعُ شملَنا

ليعودَ يعرفُنا الزمنْ

وسنجمعُ الأشلاءَ من جسدٍ

أصابتهُ المحنْ

ويعودُ هاتفُنا

يطوفُ على الأزقةِ ..

والشوارعِ

والمدنْ

كي يستحثَ النائمينْ

الحالمينَ بأنَّ هذى الأرضَ

ترجعُ بالسلام

إنَّ السلامَ مع المذلةِ

لن يكونَ

ولم يكنْ[1]

ولا أخفيك أنني آسف كثيرًا لشيوع هذا الداء في حياتنا، فكثير من رجالنا تخلوا عن الرجولة، وخضعوا لتأثير نشأة مقيتة، وبيئات منحطة، عملت على قتل هذا العنصر الحيوي في وجدانهم وشخوصهم، فصارت النذالة اليوم شيئًا مألوفًا وطبيعيًا ومنتشرًا وذائعًا بين الناس وبلا حرج.

[1] - للشاعر طلعت المغربي

نشرت إحدى الجرائد اليومية حادثة مؤلمة، لا تؤلم النفس بتفاصيل جُرمها، بقدر ما تؤلمها حينما تعلم أن المتسبب فيها ضياع الرجولة وانفضاض المجتمع عنها، وإعلانه خصومتها.

نقل الناقل: إن فتاة أصيبت في عقلها، وخرجت من المنزل عارية، فلم يردها أو يوقفها أحد، ولما نزلت إلى الشارع رآها الجيران والمارة على هذا النحو الذي يحزن المهج، فماذا كان من أمرهم؟! إنهم بدلا من أن يمنعوها أو يسارع أحدهم ليلقي عليها ثوبه أو عباءته ليسترها، تحلقوا جميعًا حولها ضاحكين، وكأنهم يشاهدون مهرجًا أو بهلوانا في سيرك يعرض ما يسر الناس، وسارع أحدهم إلى أخيها العامل في بعض المتاجر القريبة ليصيح به بين زملائه بقوله: الحق أختك عارية ترقص في الشارع! ألا تستطيع أن تزجرها؟! كيف تكون هذه البلهاء بدون زاجر عاقل؟! وهكذا بنفس الألفاظ وكأنه يعيره بها.

وخف المسكين المفزوع إلى الشارع ليجد حلقة من السفهاء تجمعوا حول أخته العارية المجنونة في سرور وابتهاج وانتشاء كبير، فتقدم إليها مسرعًا وحاول أن يصطحبها إلى المنزل، فلم تعقل.. وكرر معها المحاولة فاستعصت عليه، ولما نفد صبره وهو يرى السفاء من حوله في وضعٍ أثار حفيظته، هوى عليها بالعصا وكانت مريضة ضعيفة، فلم تتحمل الضرب وسقطت على الأرض ميتة.

وجاء البوليس واقتاد الأخ الجاني إلى النيابة والقضاء.

أعرف أنك الآن تتخيل هذا المشهد برمته، وتتعجب من حال هؤلاء الناس وسفههم، وهذا لا شك يعني تأصل الخير فيك، وانبعاثه في نفسك، وأنك والحمد لله لم تصب بهذا الداء الوبيل من فقد الرجولة الذي أصاب الكثيرين.

إن فعل هذه الطغمة الآسنة من الرعاع، لا يدل على فقد الرجولة فقط، وإنما يدل بجلاء على فقد الضمير والإنسانية والأسى لبلاء الناس، وهو البلاء الذي يمكن أن يتعرض له أحدهم في أمه أو أخته أو زوجه أو ابنته، ولو كان أمثال هؤلاء على شيء من الرشد، لسارع هذا الذي أبلغه بأسلوب فج معير، ليلطف عليه الأمر، ويهون من ثورة نفسه وفزعها، ويساعده في تلقي الصدمة، ويعلمه بأن ما فيه أخته بلاء أصابها ولابد من الصبر عليها وتحمل تصرفاتها التي لا تعقل، لكن المبلغ كان نموذجًا عاليًا وصورة عاكسة لمجتمع فقد فيه الكثيرون معاني الأخلاق والرجولة والشهامة، فقد أضاعوا الأخ، قبل أن يضيعوا الأخت بسوء أخلاقهم، وفساد نفوسهم، وانعدام رجولتهم.

ولو كنت مكان القاضي، لعاقبت المجتمع كله قبل أن أعاقب الأخ المسكين، الذي لا شك سوف يتدلى على حبل المشنقة لقتله أخته.

ثم أتدري متى يزول الشرف، وتنزوي المروءة، ويكلل العار سماء البشر، وتكفر الأرض بأزهار النبل والسمو، وتوشك الشمس أن ينطفئ وهجها، ويخفق نور القمر؟

نعم إنه ذلك اليوم الذي تضرب فيه المرأة ظلمًا، ويشهر في وجهها السلاح، وتنال الأسنة من جسدها الرقيق الضعيف، هذا هو اليوم الذي ينكس فيه الشرف أعلامه، لترتفع ألوية العار زاهية منتشية.!

ويحيا هانئا من يُعادي امرأة، ويستقوي على امرأة، أو ينتقم من امرأة، أو يستهدف بحقده وغضبه عرض امرأة.

وإذا أراد المرء السفيه أن يُعلن عن سفاهته ويبديها أمام الناس، فما عليه من شيء لكي يظهر في أخلاق السقطين، إلا أن يعلن عداوته لامرأة، ويناجزها ويستقوي عليها، ينال منها ويقطع في سمعتها، ويفري عرضها، ويحاصرها بأضغانه ونَكراته.

ما أقبح الرجولة حينما تسقط على مصارع النساء، وما أحقر الرجل يوم أن تثور ثورته على امرأة، إلا أن تتجاوز حدود الله، وتُحدث في الفكر والملة حدث المارقين، وما دون ذلك، فالصبر والإعراض والعفو عن عنصر النساء.

هذا رجل يتزوج امرأة ويطغى عليها ويكبت حريتها ويلغي وجودها، ثم لا يتورع أن يضربها ويقسو عليها، فيسلخ جلدها ويقطع من لحمها، وتنتشي رجولته الزائفة وهو يرى دماءها تنحدر على الأرض مصحوبة بدموعها.. أي رجل هذا، وكيف يليق لنا أن نصفه بالرجل، وقد صفع هو هذه الرجولة مع أول صفعة لطم بها زوجه.

يذكر العقاد وهو يتحدث عن سيدنا علي ﷺ في (عبقرية الإمام) فيقول: "و زار السيدة عائشة بعد وقعة الجمل، فصاحت به صفية أم طلحة الطلحات: أيتم الله منك أولادك كما أيتمت أولادي، فلم يرد عليها شيئاً، ثم خرج فأعادت عليه ما استقبلته به، فسكت ولم يرد عليها. قال رجل أغضبه مقالها: يا أمير المؤمنين. أتسكت عن هذه المرأة وهي تقول ما تسمع ؟.. فانتهره وهو يقول: ويحك ؟.. إنا أمرنا أن نكف عن النساء وهن مشركات أفلا نكف عنهن وهن مسلمات؟.

وذكر كذلك عنه أنه وهو في طريقه أخبره بعض أتباعه عن رجلين ينالان من عائشة فأمر بجلدهما مائة جلدة.

بل روى كذلك أن عليا ﷺ "ودع السيدة عائشة أكرم وداع، وسار في ركابها أميالاً، وأرسل معها من يخدمها ويخف بها. وقيل إنه أرسل معها عشرين امرأة من نساء عبد القيس عممهن بالعمائم وقلدهن السيوف.. فلما كانت ببعض الطريق ذكرته بما لا يجوز أن يُذكر به وتأففت وقالت: هتك ستري برجاله وجنده الذين وكلهم بي.. فلما وصلت إلى المدينة ألقى النساء عمائمهن وقلن لها: إنما نحنُ نسوة."

قرأت من الأنباء أن فيلق الإجرام من ميليشيات الحوثي الآثمة في محافظة إب اليمنية، دخلوا بيتا يبحثون عن أحد معارضيهم، لكنهم لم يجدوا غير زوجته وأطفاله، وأراد السفلة أن يطفئوا غضبهم، فإذا بهم ينهالون على المرأة الضعيفة المسكينة بأعقاب بنادقهم حتى أردوها قتيلة أمام طفليها بوحشية لا نظير لها.

كان المشهد مروعًا لهذه المرأة العشرينية التي ارتمى عليها أطفالها وهم يبكون ألما لفقدها.. (أحلام العشاري) التي انزعج العالم كله لمصرعها، تبلغ من العمر ٢٥ عاما، أبى الظلمة إلا أن يحرموها من الحياة، ويتيموا صغارها الذين راحوا يرتمون على جسدها المسجى فزعين مذعورين، آملين أن تدب فيها الحياة، فتواسيهم وتخفف من روعهم.

هكذا يرى الأبناء أمهم تدهسها بنادق الأشقياء، ولا يملكون لها نصيرا إلا أن يبكوا عليها، والهلع يعصف بفؤادهم البرئ.

جريمة نكراء ضد الإنسانية، لا شرف ولا مروءة ولا رجولة، إنه العار الذي كلل أرض اليمن.

كانت الثورة الفرنسية تشتعل في باريس، بينما الملك لويس ١٦ وزوجته ماري انطوانيت بعيدين في قصر فرساي يحيك المؤامرات ضد الثوار، وحوله جيش كبير يحميه، مستعد أن يفتك بأي ثائر

يقترب من الملك، ففكر الثوار واهتدوا إلى فكرة جهنمية، وهي أن ينظموا ثورة نسائية تزحف إلى القصر وتحاول الدخول ليندفع الثوار وراءهم، ويتمكنوا من القبض على الملك، الذي لن يستطيع أن يأمر بقتل النساء، حتى وإن أمر فلن يطيعه الجنود، ليشهروا السلاح في وجه النساء.

ولا يسعني في هذا المشهد إلا أن أسوق تعليقا للناقد الأدبي الكبير رجاء النقاش، يستحق أن يحفظ ويعلق أو يدرس في المدارس والجامعات، ليتعلم الجيل معنى المروءة والشرف ويعظم حرمة المرأة..

يقول النقاش: "فليس من الشجاعة ولا الفروسية، ولا العسكرية التي تحترم نفسها، أن يوجه الضباط والجنود بنادقهم إلى صدور النساء، ومثل هذا التصرف لو أنه حدث، يكون في حقيقته عارا لا يمكن أن تمحوه كل مياه المحيطات، ولو أن هذا الفعل حدث، لكان كفيلا بالقضاء على النظام الملكي، لأن فرنسا لن تغفر أبدا للملك وجنوده قتل النساء"

ولكن فرنسا على مر العقود لم تحفظ أخلاقها، وفرطت في أعرافها ومبادئها، فما فعله جنودها في الجزائر يندى له جبين التاريخ.

الرجولة الفشنك

قلنا: إن الرجولة ليست بالذكورة، وإنما هي بالأخلاق والشهامة والمروءة، التي يمكن أن تتوفر بسخاء في المرأة قبل الرجل، ولكننا نُقرر: أن الرجل حينما يفقد شهامة صديقه، فإن ذلك لا يكون بنفس المرارة التي تشعرها المرأة حينما يطعنها الرجال بخستهم، ويخونونها بنذالتهم وقلة مروءتهم، تشعر بمرار كبير أشد بكثير مما يشعره الرجال، لأن الرجل يستطيع أن يقوم ويواصل، أما المرأة فهي دوما ضعيفة، تحتاج إلى سند يُعينها ويشد من أزرها خاصة في مجتمعاتنا العربية الشرقية.

هذا تمامًا ما جسدته حالة السيدة (روز اليوسف) حينما تعرضت في ثلاثينات القرن الماضي إلى أزمة أخلاقية ومالية، حتى أنها حسبت اليوم من هذه السنة التي مرت عليها، كأنه عاما كاملا.

وصلت خسائرها إلى حد (26) ألف جنية للبنك والمطبعة وتجار الورق، حتى اقترضت وباعت حليها لتدفع ثمن الورق، ولكن المشكلة لم تكن فيما فقدته، بقدر ما كانت في إحساس من معها بالأزمة، وقد بدؤوا يغادرون السفينة، ويتخلون عنها ويتركوها وحدها، وكانت صدمتها الكبيرة في الكتاب الكبار، الذين يفترض أنهم أصحاب مبادئ، لا يكتبون لمجرد الكسب المادي، خاصة الدكتور محمود عزمي والأستاذ العقاد.

كانت تتخيل أنهما سيبقيان معها في أزمتها يشدان من أزرها ويعينوها حتى تمر الكبوة العاتية، فخرج عزمي مستقيلا بحجة أن العقاد يحذف من مقالاته، مع أن هذا لم يكن جديدًا، أما العقاد فكانت بينه وبين مكرم عبيد والنحاس معركة، فأرسل مقالا كتبه صديق له، وقد ملأ المقال بطعون جارحة وقذف شخصي شديد في خصومه، مما اضطرها لرفض المقال، ولما لم يجد العقاد المقال منشورًا، كتب بيانا في الأهرام يعلن فيه خروجه من روز اليوسف.

تعترف السيدة روز أن خروجهما كان ضربة كبيرة وقوية للجريدة، ولكنها في هذا المناخ الذي يسيطر عليها فيه فقدها للرجال وللمروءة، أخذت تتذكر الماضي، حينما عرض عليها حزب الوفد الذي كانت تحاربه وتعاديه، أن تُخرج عزمي من الجريدة كثمن للصلح معه، ولكنها رفضت بصوت عال وقالت له: أنا معك للنهاية.!

وكذلك يوم وضع العقاد يده في يدها وهو يقول: أنا معك للنهاية.

ولكن الأزمات كشفت هراء الكلمات، وزيف الوعود.

ولم يرحمها الوفد خصيمها الأكبر، فبدأ يقلب عليها الدائنين والحجوزات، وكانت تتلقى كل ذلك وتجاريه وتتعامل معه، حتى جاءها ذلك الحجز الذي لم تنساه ذاكرتها حينما طُبع فيها كالنقطة السوداء التي لا تُمحى.

وكان ذلك الحجز من محرر صحفي عمل معها وتركها، وبدلا من أن يُطالب بالحجز على المطبعة أو المكاتب والورق، حدد طلباته بالحجز على ملابسها الداخلية، وهو عمل لا يرقى إليه رجل

بمعنى الكلمة، ولا إنسان يتمتع بأخلاق النبلاء، طلب هذا في وقت عصيب يرى فيه المرأة التي لم تضره في يوم من الأيام بشيء، وهي اليوم كالفريسة التي تتقاسمها أنياب الذئاب والوحوش.

أما الحجز الثاني أو الصدمة الثانية، حينما كان عزمي يعمل رئيسا لتحرير صحيفتها، وتلقت طلبا بالحجز على مرتبه عندها، نظير مبلغ كبير قد استدانه من أحد أصدقائه في أثناء إقامته بلندن، وكان مرتبه في روز اليوسف 6 جنيهات، فرجاها عزمي أن تكتب تقريرًا يضمن ألا يأخذ من مرتبه الشهري إلا 3 جنيهات فقط، حتى تقل قيمة المبلغ الذي سيخصم منه وفاء لهذا الدين.

وبعد خروج عزمي من الجريدة، جاءها محامي الدائن بدعوى يطالبها فيها بالفرق الذي نص عليه العقد، والمبلغ الذي كتبت إقرارًا بأنه لا يأخذ سواه، واتفقت مع المحامي على تقسيط المبلغ الذي لم تقترضه يومًا، ودفعت خطأ صديقها الذي لم يقف بجوارها وتخلى عنها، بل خطأ حسن نيتها وخدمتها لمن ظنته سندا وعونا لها.

حقًا إن الرجولة مواقف، وليست كلمات.

وهذا ما يدعونا دومًا أن نقول: إن مثل هذا الرخص في التعامل مع المرأة يحط بقيمة الرجولة ويهدم في الرجل شهامته.

انظر لهذه المرأة التي كان زوجها يكدر حياتها، لأنه معقد نفسيًا وشعوره بالنقص جعله يصب ويلاته على هذه المسكينة التي كانت ضعيفة لا تملك من أمرها شيئا، كان الزوج يشعر بلذة وهو يذلها ويقمع سعادتها، لأن كل ذنبها أن أسرتها رفضوا قبوله زوجا لها مرة ومرتين وثلاثة، وفي النهاية قبلوه لما رؤوا إصراره، أما هو فكان يلح متتابعا لأنه لا يريد أن يشعر بالهزيمة، التي يجد طعمها مرا في حياته حينما يتذوقه، ولم تكن الأسرة الطيبة تعلم أنها تسلم فتاتها لعقاب وانتقام لا يفارقها مدى الحياة، فكلما نظر الزوج الطاغية في وجهها، تذكر أن أهلها رفضوه، فلا يجد نفسه إلا ويمعن في إذلالها.

مثل هذا الزوج حينما أراه وأرى تصرفاته المجردة من الخلق والفضيلة والشهامة، أتمنى وقتها لو كنت حاكما أو سلطانا، حتى أذيقه مر العذاب وأهذب أخلاقه بالسياط، وأعرفه كيف يصون نعمة الله عليه، فأمثال هذا الطاغية لا يردعهم غير الحديد والنار، حتى يعامل الضعيفة التي تحت يديه معاملة إنسانية.

ويشاء القدر أن يرحل هذا الزوج عن الحياة، فتعرض المرأة أن تتزوج بغيره، لا وفاء له، ولا خوفًا على أبنائها أن يوجد من يأخذهم منها، ولكن لهذا المقدار الرهيب من الحرية الذي شعرت به، لهذه الفرحة العارمة بانجلاء هذا الكابوس اللعين عن حياتها، لقد حقق القدر لها مكتسبًا كبيرًا لا يمكن أبدًا أن تضيعه تحت أي ظرف وأي ضعف.

في سبيل شعورها بجمال الحرية، دهست شهوتها في الرجال بأقدامها، لأنها وجدت أن شهوة الحرية أثمن وأوفى.

ولها الحق في ذلك، فقد تعلمت الدرس جيدًا، وكرهت كل صورة الرجال في شخص الزوج الكريه، كما ينطق بذلك لسانها لأجل أبنائها، لكن قلبها كان ينطق بلفظ آخر ويسميه تسمية أخرى أليق به وبتاريخه معها حينما تسميه: المجحوم.

ومما أتذكره في مثل هذه المواقف ما ذكره ابن القيم في مدارج السالكين حيث قال: (استضاف رجلٌ جماعةً من الرجال، فلما فرغوا من الطعام خرجت جاريةٌ تَصُبَّ على أيديهم، فانقبض واحدٌ منهم، وقال: ليس من الرجولة أن تصبَّ النسوانُ الماء على الرجال. فقال آخر منهم: أنا منذ سنين أدخل إلى هذه الدار، ولم أعلم أن امرأةً تصبُ الماء على أيدينا أو رجلاً).

فما أعظم هذه النفوس وما أجل هؤلاء الرجال.

"إن الرجولة أسمى ما يمكن أن تبحث عنه المرأة في الرجل، فإن وجدته، وجدت الحب الذي لا يذبل، والتواصل الذي لا يُقطع، والثقة التي لا تُخدش، متى وجدته وجدت إشباعا لقلبها وعقلها، وحظيت بمن يصلح لأن يكون رفيقا لدربها في الدنيا والآخرة. متى استشعرت الأنثى حضور الرجولة حولها ميزتها على الفور – دون حاجةٍ منك لاستعراضها – كما يميّز الوليد رائحة أمه، فأرح نفسك إذن من عناء إثبات رجولتك"[1]

السيدة نبوية موسى رائدة التعليم النسائي في مصر، لم تتزوج طوال حياتها، وأصيبت بعقدة من الزواج، وقد حاول كثير من الرجال أن يتقدمن لها، لكنها كانت ترفض وتعرض عن الفكرة تمامًا، ولم يكن أحد يعرف السبب، حتى صرحت هي يوما بنفسها في مذكراتها وقالت: إنها رأت يومًا زوجًا يهين زوجته ويضربها ويقول لها: أنت تمامًا لست إلا مرحاضا أقضي فيه حاجتي.

فتعقدت المرأة مما شاهدت وسمعت، وأقسمت أن لا تتزوج أبدًا، حتى لا يقال لها مثل هذا الكلام الفج الوقح.

سُئلت إحداهن يومًا: لماذا لا تتزوجين بعد رحيل زوجك؟ فقالت: لأنني لم أرى رجلا مثله.!

ورغم أن الجواب مهين لجنس الرجال، إلا أنني لم ألتفت إلى هذا الظن، وإنما كان كل التفاتي إلى هذه الصورة الزاهية من الرجولة في زوج كان يعاملها معاملة حسنة، لدرجة جعلتها لا ترى في الوجود مثله، ولإن عاشت هذه الزوجة أسيرة لذكراه، فإنه يستحق وأكثر، لأنه كان إنسانًا بمعنى الكلمة.

[1] - لا تحدثني عن الرجولة مقال لريم آقبيق بمدونات الجزيرة

سُئلت روائية وشاعرة عربية، إن كان كرهها للرجال هو سر عزوفها عن الزواج فقالت: وأين هم الرجال.. أنا لا أرى إلا ذكوراً !

وقولها كذلك رغم ما فيه من قسوة إلا أنه صار واقعيا، فالرجولة سماتٌ تُكتسب بينما الذكورة معاملٌ تأتي بالولادة.. "هناك ذكور عاشوا وماتوا ولم يتحلوا بالرجولة – حيث الحكمة والرصانة والشكيمة والنخوة والشهامة والمروءة- ولم يعرفوا إليها سبيلاً.. وأردأ تِلكم النوعيات هي النوعية ''العصرية'' التي لا تحترم الذات ولا الغير؛ بل وتتفوق حتى على النساء في الثرثرة والغيرة وإطلاق وتبادل الشائعات، وهي المساوئ التي أُلصقت بالمرأة طويلاً..!!"[1]

قدر لي منذ عامين أن أزور كينيا، حقيقة كانت بلادًا جميلة، وأخبرني صديقي أن بها مقاطعات لا يوجد شبيها لها في أوروبا.. الأجانب والهنود ينتشرون هناك بكثرة، وتوجد معابد للسيخ، سحت في كثير من شوارعها، ولكني ندمت كثيرا بعد خروجي منها، حينما قرأت فيما بعد أن في العاصمة نيروبي أول قرية نسائية خالصة في العالم، وهي قرية محرمة على الرجال، ترفع شعار (فليذهب الرجال إلى الجحيم) أسستها نساء مضطهدات لم يجدن حلا غير هجر الذكور، وتأسيس مجتمع أنثوي منعزل، وهي تحظى بمباركة الحكومة الكينية التي توفر لها حماية رسمية، بل تعتمدها كوجهة سياحية تساهم في الاقتصاد العام.. والسؤال المدهش الذي قفز إلى ذهني فور قراءتي عن هذه القرية هو، لماذا لا تقام مثلها في بلادنا حتى تنقذ كثيرًا من النساء اللاتي وقعن تحت سطوة رجال سفلة ظلمة حقراء منحطون، استعبدنهن وذاقت المرأة منهن صنوف الأسى والكبت والظلم والجور والهدم.؟

[1] - من مقال انقراض الرجولة – منتدى السيف

إنني أؤكد لكم أن هناك نساء كثيرات يحتجن لمثل هذه القرية حتى يشعرن بحياتهن ونجاتهن من الظلمة الجبارين، فلا ملجأ لهن ولا أهل ينصفونهن.

ربما يهب من ينكرون ذلك ويرونه ضد الدين والفطرة، أو هروبًا من واقع الحياة، وأن الطبيعة تجافي هذا، ولكنهم وهم يتكلمون بغضب شديد، يغيب عنهم أنين المرأة المظلومة التي تنهد الجبال لأهاتها، وتذوب الأرض كمدا لألمها.

لقد تأسست قرية أموجًا وهي كلمة تعني الوحدة، على يد نسوة عرفن معنى القهر، وذقن مرارة الرجال، فلم يطقن الحياة معهم وسارعن بالهروب لعالم أفضل، عالم لا يرين فيه صورة الرجل الذي ظلمهن ودمر حياتهن، كان هؤلاء النسوة ممن عانين الاغتصاب أو الاضطهاد أو قسوة الأزواج، رأين أن هذا العالم لا يمكن أبدًا أن يسعهن مع الرجال، فسارعن إلى هذه القرية يرفعن بها هذا الشعار.

هناك رجال سمعت عنهم وعن ظلمهم، وأقسم أنهم لا يستحقون إلا الحرق بالنار أو تمزيق جلودهم بالسياط، أو الرمي بالرصاص، من فرط طغيانهم وجبروتهم على المرأة، التي أوصانا النبي الكريم ﷺ بها فقال: رفقًا بالقوارير، وكنت وأنا الدارس العليم، أعلم تفسير كلمة القوارير بأنها الزجاج وهو بطبعه رقيق، حتى فسرته لي إحدى الأخوات بأن القوارير أرق أنواع الزجاج.

إن مأساة الرجل مع المرأة، عار على المجتمع إذا لم ينصفها من براثنه، ويأخذ لها حقها من ظلمه، ومن يعايش آلام المرأة وما تجده من ظلم الرجل، يدرك قيمة هذا الكلام، بل قيمة هذا الحل وضرورته.

وليس هذا الكلام لكل امرأة حدث بينها وبين زوجها خلاف أو مشكلة، فتلك طبيعة الحياة ولكنه كلام خاص لحالات خاصة، حالات توشك أن تقدم على الانتحار من فرط ما تجد من تعاسة الرجل وشؤم الاقتران به. وأين هذا مما ذكره ابن القيم رحمه الله في المدارج: (أن رجلاً تزوج بامرأةٍ فلما دخلت عليه رأى الجدريَّ فيها، فتظاهر بالمرض في عينه ثم بالعمى، وبعد عشرين سنة ماتت تلك المرأة ولم تعلم أنه بصير، فقيل له: ما سببُ ذلك؟ فقال: كرهتُ أن يحزُنها رؤيتي لما بها، فقيل له: سبقت الرجال).

ويؤثرون على أنفسهم

لا تستطيع أن تنظر إلى هذا الرجل الذي يؤثر الناس على نفسه، إلا بأنه بطل حقيقي، تشبعت نفسه بهمة العظماء فأثمرت من شهامتها ومروءتها لتصير أغنية الأجيال ومضرب الأمثال.

قرأت عن الفنان الفرنسي (موليير) الذي تفانى في موهبته، وأنهك في سبيل فنه قواه وصحته وسعادته الشخصية، كان ذلك حاله حينما بلغ الواحدة والخمسين من عمره، وفي يوم من الأيام وقد أحس بتعب شديد، حاولت زوجته وأصحابه أن يمنعوه من التمثيل في هذه الليلة، وطلبوا منه أن يؤجل عرض مسرحيته (مريض الوهم) بعض الأيام حتى يتعافى مما به من ألم ومرض، ولكن موليير رفض أن يؤجل العمل، ليس حباً في التمثيل أو إرضاء لدافع الموهبة، ولكن إحساسه بالمسؤولية وحده، هو الذي دفعه للتمثيل، فقد قال لزوجه: كيف تريدون مني أن أتوقف؟ هناك خمسين فردا في فرقتي المسرحية يأخذون أجرهم يومًا بيوم من عروضنا الفنية، ولو توقفت عن العمل فلن يجدوا طعامهم ولا طعام أولادهم، فماذا يفعل هؤلاء إذا توقفنا عن التمثيل؟ إنني سوف ألوم نفسي لومًا شديدًا على أنني أهملت توفير القوت لهم يومًا واحدًا، ما دام في طاقتي أن أقف على خشبة المسرح، وأصر (موليير) على أن يذهب للمسرح في مساء السابع عشر من فبراير 1673 وأدى دوره، وفي نهاية المسرحية شعر بالألم الحاد فتماسك، وأنهى العرض

المسرحي بأكمله، ولكنه سقط فوق خشبة المسرح وقد أصابته نوبة سعال عنيف، فنقلوه إلى منزله وتبين أنه أصيب بانفجار في أحد الشرايين فمات بعد ساعات من الألم الشديد.!

فأي إنسانية كان يغط فيها صاحب هذا القلب العظيم، الذي لن تغفر له نفسه، لو أن من حوله لم يجدوا قوتهم وقوت أبنائهم في يوم واحد.؟! لقد آثرهم على نفسه وعلى راحته وعافيته وقاوم عناءه وتعبه من أجلهم، وهو إيثار عظيم.. وإن شئت فقل: رجولة ومروءة وشهامة في أسمى معانيها ومثلها.. وإذا تحدثنا في هذا الميدان، فإن سيرتنا وتاريخ سلفنا العظيم قد بلغ فيه القدح المعلى.!

ما زلنا في دوحة تراثنا العظيم وفي صحبة الأسلاف العظام، نعاين ونشاهد بأعيننا ما قدموه من مثل باهرة تملأنا فخراً واعتزازاً؛ لانتسابنا لمن علموا الدنيا معنى الحضارة ومعالم الرقي وصور الإنسانية، حينما كان العالم يرزح تحت نير الهمجية والطمع والقسوة والعدوان، وفي الوقت الذي يتحرج فيه البعض من انتمائه، تأتي صفحاتنا بما يرفع الرأس فخرا وتيهاً وتباهيا، فتحكي وتروي سيرة أناس قهروا الدنيا يوم أن قهروا أنفسهم فطهروها من براثن الأنانية وأوزار الأثرة.!

عن أبي هريرة ﷺ: (أنَّ رجلًا أتى النَّبيَّ ﷺ، فبعث إلى نسائه، فقلن: ما معنا إلَّا الماء، فقال رسول الله ﷺ: مَن يضمُّ- أو يضيف- هذا؟ فقال رجل مِن الأنصار: أنا. فانطلق به إلى امرأته، فقال: أكرمي ضيف رسول الله ﷺ، فقالت: ما عندنا إلَّا قوت صبياني، فقال: هيِّئي طعامك، وأصبحي سراجك، ونوِّمي صبيانك إذا أرادوا عشاء. فهيَّأت طعامها، وأصبحت سراجها، ونوَّمت صبيانها، ثمَّ قامت كأنَّها تصلح سراجها فأطفأته، فجعلا يريانه أنَّهما يأكلان، فباتا طاويين، فلمَّا أصبح غدا إلى رسول الله ﷺ، فقال: ضحك الله اللَّيلة- أو عجب مِن فعالكما-، فأنزل الله: (وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ)[1]

وحينما أقبل المهاجرون إلى المدينة لا يملكون مِن أمر الدُّنْيا شيئًا، تركوا أموالهم وما يملكون خلف ظهورهم، وأقبلوا على ما عند الله عزَّ وجلَّ يرجون رحمته ويخافون عذابه، استقبلهم

[1] - (الحشر:9)

الأنصار الذين تبوَّؤوا الدَّار، وأكرموهم أيَّما إكرام، ولم يبخلوا عليهم بشيء مِن حطام الدُّنْيا.. في صورة يعجز عن وصفها اللِّسان والبيان.!

- ولما قدم (عبد الرَّحمن بن عوف) ﷺ إلى المدينة آخى النَّبيُّ ﷺ بينه وبين (سعد بن الرَّبيع الأنصاريِّ)، وعند الأنصاريِّ امرأتان، فعرض عليه أن يناصفه أهله وماله، فقال له: بارك الله لك في أهلك ومالك، دلُّوني على السُّوق.

يالله إننا نعهد الإيثار في المال و الأكل والشراب، أما أن يكون في الزوجة.. فهذه جديدة لا تكون إلا من أصحاب محمد ﷺ الذين أعدهم ليكونوا قادة الدنيا وأساتذة الفضيلة وقدوة الرجولة.!

بل كان ما هو أبلغ وأبلغ، حينما جعلوا الإيثار في حق الحياة، وهو ما فعلوه في (اليرموك) حيث قال (عكرمة بن أبي جهل) ﷺ: (قاتلت رسول الله ﷺ في مواطن وأفرُّ منكم اليوم؟! ثمَّ نادى: مَن يبايع على الموت؟ فبايعه عمُّه (الحارث بن هشام)، و(ضرار بن الأزور) في أربعمائة مِن وجوه المسلمين وفرسانهم، فقاتلوا قدَّام فسطاط (خالد) حتى أُثْبِتُوا جميعًا جراحًا، وقُتِل منهم خلقٌ، منهم ضرار بن الأزور رضي الله عنهم.. فلمَّا صرعوا مِن الجراح استسقوا ماء، فجيء إليهم بشربة ماء، فلمَّا قربت إلى أحدهم نظر إليه الآخر، فقال: ادفعها إليه. فلما دُفِعَت إليه نظر إليه الآخر، فقال: ادفعها إليه. فتدافعوها كلُّهم - مِن واحد إلى واحد- حتى ماتوا جميعًا ولم يشربها أحد منهم.)

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: "أُهدي لرجل من أصحاب النبي ﷺ رأس شاة فقال: إن أخي فلانًا وعياله أحوج إلى هذا منَّا قال: فبعث إليه، فلم يزل يبعث به الواحد إلي الآخر حتَّى تداولها سبعة أبيات، حتَّى رجعت إلى الأول"[1]

و عن عائشة زوج النبي ﷺ: (أن مسكينًا سألها وهي صائمة، وليس في بيتها إلا رغيف، فقالت لمولاة لها: أعطيه إياه فقالت: ليس لك ما تفطرين عليه. قالت: أعطيه إياه. قال: ففعلت. قالت:

[1] - البيهقي في شعبه

فما أمسينا حتى أهدى لنا أهل بيت أو إنسان ممن كان يُهدي لنا شاة وكفنها، فدعتني عائشة فقالت: كُلي من هذا، هذا خير من قرصك) [1]

وعن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، قال: «قال عمر بن الخطاب لأخية زيد بن الخطاب يوم أحد: أَقسمتُ عليك إلا لبستَ درعي، فلبسها ثُمَّ نزعها، فقال له عمر: مالك؟ قال: إني أريد بنفسي ما تُريد بنفسك» [2]

وعن نافع مولى عبد الله بن عمر قال: «مرض ابن عمر فاشتهى عنبًا أول ما جاء العنب، فأرسلت صفية امرأته بدرهم فاشترت عنقودًا بدرهم، واتَّبع الرسولَ سائلٌ، فلما أتي الباب ودخل قال السائل: السائل. قال ابن عمر: أعطوه إياه، فأعطوه إياه. ثم أرسلت بدرهم آخر فاشترت به عنقودًا، فاتَّبع الرسولَ السائلُ. فلما انتهى إلى الباب ودخل قال السائل: السائل. قال ابن عمر: أعطوه إياه، فأعطوه إياه. فأرسلت صفية إلي السائل فقالت: والله لئن عُدت لا تصيب مني خيرًا أبدًا، ثم أرسلت بدرهم آخر فاشترت به» [3]

وعن عطاء الخراساني كما في تاريخ دمشق: (أن امرأة أبي مسلم الخولاني -أحد كبار التابعين الزهاد- قالت: ليس لنا دقيق. فقال: هل عندكِ شيء؟ قالت: درهم بعنا به غزلاً، قال: أبغينيه وهاتي الجِرَاب، فدخل السوق فأتاه سائلٌ وألحَّ، فأعطاه الدرهم وملأ الجِرَاب نُشارة مع تراب، وأتي وقلبُه مرعوب منها، وذهب ففتحته، فإذا به دقيق حُوَّاري فعجنت وخبزت، فلما جاء ليلاً، وضعتْه، فقال: من أين هذا؟ فقالت: من الدَّقيق، فأكل وبكى)

وعلى درب الصحابة العظام، كان رجال الأمة الأبرار، يدلون بدلوهم في دنيا الإيثار والفداء وحب المسلمين.!

قال عباس بن دهقان: ما خرج أحد من الدنيا كما دخلها إلا بشر بن الحارث، فإنه أتاه رجل في مرضه فشكا إليه الحاجة، فنزع قميصه وأعطاه إياه، واستعار ثوبًا فمات فيه.

[1] - الموطأ

[2] - رواه ابن سعد والطبراني في الأوسط وإسناده حسن

[3] - رواه البيهقي في الشعب 3/ 260 رقم 3481

عن أبي الحسن الأنطاكي: أنه اجتمع عنده نيِّف وثلاثون نفسًا ولهم أرغفة معدودة لم تُشبع جميعهم، فكسروا الأرغفة وأطفئوا السراج، وجلسوا للطعام، فلما رفع فإذا الطعام بحاله، ولم يأكل أحد منه شيئًا، إيثارًا لصاحبه على نفسه.

وهذا أبو سليمان الداراني يُعبِّر لنا عن هذا المعنى من الإيثار والسخاء، ومحبَّة الخير للآخرين؛ حيث قال: لو أن الدنيا كلها لي فجعلتها في فم أخٍ من إخواني لاستقللتها له.

ومكث السدي يستغفر الله ثلاثين عامًا من قوله: الحمد لله؛ وذلك لما شبَّ حريقٌ في أحد أسواق بغداد، وكان له حانوت في هذا السوق، فلما علم بالحريق، قال: ما فعل حانوتي؟ فقيل له: لم تصبه النار، فقال: الحمد لله، ثم قال: أسأل عن حانوتي ولا أسأل عن جيراني؟! فمكث يستغفر الله على ذلك ثلاثين عامًا.

وهذا ابن عمر رضي الله عنهما يُعبِّر لنا عن هذا الصنف من الناس بقوله: أتى علينا زمان وما يرى أحدٌ منا أنه أحق بالدينار والدرهم من أخيه المسلم، وإنا في زمان الدينار والدرهم أحب إلينا من أخينا المسلم.

- وقال الهيثم بن جميل: «جاء فُضيل بن مرزوق وكان من أئمة الهدى زُهدًا وفضلاً إلى الحسن بن حيٍّ، وكان لا يأتيه ولا يعلمه أنه ليس عنده إلا عند ضيق شديد فيخبره، فأتاه فأخبره أنه ليس عنده شيء. فقام الحسن فأخرج ستَّة دراهم، وأخبره أنه ليس عنده غيرها، فقال: سبحان الله ليس عندك غيرها وأنا آخذها!؟ فأبى الحسن ابن حيٍّ إلا أن يأخذها كلها، وأبى فضيل بن مرزوق حتى ناصفه، فأخذ ثلاثة، وترك ثلاثة»[1]

وقال الخلال: حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل، قال: قال أبو سعيد بن أبي حنيفة المُؤدِّب: «كنت آتي أباك -يعني أحمد بن حنبل- فرُبَّما أعطاني الشيء وقال: أعطيتك نصف ما عندنا؛ فجئت يومًا فأطلت القعود، فخرج ومعه أربعة أرغفة فقال: يا أبا سعيد، هذا نصف ما عندنا. فقلت: يا أبا عبد الله، هذه الأربعة الأرغفة أحبُّ إليَّ من أربعة آلاف من غيرك»[2]

[1] - رواه المزي في تهذيب الكمال 23/ 308

[2] - رواه ابن الجوزي في مناقب الإمام أحمد بن حنبل، ص 324

وعن يحيي بن هلال الورَّاق قال: «جئت إلى محمد ابن عبد الله بن نُمير -أحد أئمة الحديث الثقات- فشكوت إليه، فأخرج إليَّ أربعة دراهم أو خمسة دراهم، وقال: هذا نصف ما أملك. قال: وجئت مرَّةً إلى أبي عبد الله أحمد بن حنبل فأخرج إليَّ أربعة دراهم، وقال: هذه جميع ما أملك»[1]

وقال يوسف بن بهلول: حدثنا يعقوب بن شيبة السَّدوسي قال: «أظلَّ العيدُ رجلاً، وعنده مائة دينار لا يملك سواها، فكتب إليه صديق يسترعي منه نفقة، فأنفذ إليه بالمائة دينار، فلم ينشب أن ورد عليه رقعة من بعض إخوانه يذكر أنه أيضًا في هذا العيد في إضاقة، فوجَّه إليه بالصُّرَّة بعينها. قال: فبقي الأوَّل لا شيء عنده، فاتَّفق أنه كتب إلى الثالث وهو صديقه يذكر حاله، فبعث إليه الصُّرَّة بختمها. قال: فعرفها، وركب إليه، وقال: خبِّرْني، ما شأن هذه الصُّرَّة؟ فأخبره الخبر، فركبا معًا إلى الذي أرسلها، وشرحوا القصة، ثم فتحوها واقتسموها. قال يوسف ابن البهلول: الثلاثة هم: يعقوب بن شيبة، وأبو حسان الزِّيادي، وآخر نسيته»[2]

وعن عون بن عبد الله قال: «ظلَّ رجلٌ صائمًا في عام سنة، فابتُلي بسائل عند فطره وقد أُتِي بقُرْصين له؛ فألقى إليه أحدهما، ثم قال: ما هذا بمُشْبِعه ولا هذا بمُشْبِعي، ولأن يشبعَ واحد خيرٌ من أن يجوع اثنان. فألقى إليه الآخر، فلما أن آوي إلى فراشه؛ أتاه آتٍ في منامة، فقال: سَلْ ما شئت. فقال: المغفرة. فقال: قد فعل الله بك ذلك؛ فسَلْ غير هذا. فقال: أسأل أن يُغاث الناس»[3]

ألا ما أروع هذه المثل وما أبهى هذه الأخلاق وما أثمن هذه الرجولة.

الاعتراف بالخطأ

نعم إن الاعتراف بالخطأ من أرفع سمات الرجولة وعظائم النفوس، ولا يقوى عليها إلا الأبطال أصحاب الصدور النظيفة القوية، التي خلت من العقد والشهوات وحظوظ النفس.

[1] - رواه ابن الجوزي في مناقب الإمام أحمد، ص 325

[2] - ذكره الذهبي في سير أعلام النبلاء 11/ 498، وقال: إسنادها صحيح

[3] - رواه الدينوري في المجالسة 3/ 47 رقم 650

لقد وَقَعتِ الفِتنةُ بين المُسلِمينَ بعدَ مَقتلِ الخَليفةِ الراشِدِ عُثمانَ ﷺ، واختَلَفَ أصحابُ النَّبيِّ ﷺ في هذه الفِتنَةِ، وكُلٌّ قد اجتَهَدَ، فأصابَ مَن أصابَ ونال أَجرينِ، وأخطَأَ مَن أخطَأَ ونالَ أجرًا واحدًا.. وكان عبد الله بن عمرو وقتها جالسا عندَ مُعاوِيَةَ؛ فدخل رَجُلانِ يَختَصِمانِ في قتل عمار بن ياسر رضِيَ اللهُ عنهما، بعدَ مَوقِعَةِ صِفِّينَ سَنَةَ 37هـ، وكُلُّ واحِدٍ منهما يقولُ: "أنا قَتَلتُه"

يريد كل منهما أنْ يُثبِتَ أنَّه قاتِلُه، ولم يَفهَما أنَّ قتْلَ عَمارٍ ﷺ كبيرةٌ من أكبَرِ الكبائِرِ، لَزِمَ لَمَنْ اقترفها أنْ يَستغفِرَ ما بَقِيَ من عُمُرِه لا أنْ يَفتخِرَ بهذا! فقال لهما عبدُ اللهِ بنُ عُمرٍو رضِيَ اللهُ عنهما متهكما منهما: "لِيَطِبْ أحدُكما به نَفْسًا لصاحِبِه"، أي فلْيتنازَلْ أحدُكم لصاحِبِه بقَتْلِ عَمارٍ؛ فليس هذا بالخيرِ حتى تَتَسابَقا وتَتَخاصَما لأجْلِه، بل هي كبيرةٌ من الكبائِرِ، لأنه قد سمع رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ عن عمار: "تقتُلُه الفِئَةُ الباغِيَةُ" وهو في هذا يلمح ويعرض بطائفة معاوية ﷺ، الذي التفت إلى عمرو وقال له: أَلَا تُغني عنَّا مجنونَك يا عَمرُو فما له مَعَنَا؟ إذ كيف له أنْ يكونَ مَعَنَا ويقولَ مِثلَ هذا الحديثِ؛! فقام عبدُ اللهِ بنُ عمرٍو يُبيِّنُ الحقيقةَ، ويُوضِّحُ الصورةَ التي خَفِيَتْ على مُعاوِيَةَ بنِ أبي سُفيانَ نفسِه، فقال له: "إنِّي لستُ معكم، ولستُ أُقاتِلُ" ولكن أباه عَمرًا شكاه يوما إلى النبي ﷺ فقال له: "أَطِعْ أباكَ ما دامَ حَيًّا ولا تَعْصِهِ"، وهذه وَصِيَّةُ رَسولِ اللهِ بأنْ أُطيعَ أبي؛ فأنا لا أعْصي أمْرَ رَسولِ اللهِ ﷺ، وكان أبوه وقتها مع مُعاويةَ ضد علي، ولم يَمنَعْه هذا من قَولِ الحَقِّ، وإظهارِ حَديثِ عمار عن الفئة الباغية.

وحاول عمرًا ﷺبذكائه، أن يحور الرؤية والتصور، ويجد تأويلا جديدًا للحديث فقال لعبد الله: إنما قتله من أخرجه.

ومهما يكن من تأويل وتبرير، فالحق واضح لا يحتاج لتحايل، وليس المقام هنا تأييد علي على معاوية، وإنما الشاهد، كيف نطق هذا الصحابي الجليل بالحق، ولم ترده عنه العصبية لأبيه؟ إنها الرجولة في اتباع الحق وطلبه وإظهاره.

عرف إمام عصره، وقمة العلماء في عهده، الأستاذ الأكبر الشيخ: محمد مصطفى المراغي شيخ الأزهر الأسبق بالاجتهاد الصائب، والاهتداء الثاقب في أحكام فقهية مشتهرة، وكان مما رآه أن يكون الحساب الفلكي بديلا عن الرؤية الشخصية في إثبات أوائل الشهور العربية، فنهض لمخالفته فريق من كبار العلماء أطالوا الجدل حتى تعبوا وأتعبوا، وكان في طليعتهم والد العلامة الأستاذ أحمد شاكر، وهو الشيخ البحاثة: محمد شاكر وكيل الأزهر وأحد العلماء الكبار.

وكان ولده الشيخ أحمد ممن اعتقد بدءاً بصحة فتوى والده الكبير، فكتب مقالات تؤيد منحاه عن ثقة وإيمان، ثم بدا له بعد التحقيق والتثبت ما يخالف وجهة نظره ونظر والده، فلم يفقد أمانته العلمية قيد أنملة، بل خرج على الناس برسالة صغيرة كتبها في حياة أبيه، يعلن فيها انتصاره لرأي الإمام المراغي، ويقول فيها:

"ولقد كان للأستاذ الأكبر الشيخ المراغي منذ أكثر من عشر سنين حين كان رئيساً للمحكمة العليا الشرعية، رأي في رد شهادة الشهود، إذا كان الحساب يقطع بعدم إمكان الرؤية، كالرأي الذي نقلته هنا عن تقي الدين السبكي، وأثار رأيه جدلاً شديداً، وكان والدي، وكنت أنا وبعض إخواني ممن خالف الأستاذ الأكبر في رأيه، ولكني أصرح الآن أنه كان على صواب، وأزيد عليه وجوب إثبات الأهلة بالحساب، في كل الأحوال، إلا لمن استعصى عليه العلم"

لقد تجرد شاكر من داء العصبية في هذا الموقف في أمرين، الأول هو العصبية لنفسه لأنه تبنى نفس رأي أبيه ونزل عليه، والثاني من العصبية لأبية، وما تفرضه الأبوة من مناصرة وتأييد.

ولم يكن هذا الموقف وحده هو ما يدلل على خلق الشيخ شاكر، الذي يمقت التعصب على حساب الحق، فقد كان له موقف شهير حينما أقدم على تحقيق كتاب الرسالة للإمام الشافعي، حينما كان غالبية القضاة الشرعيين في مصر يتعصبون للمذهب الحنفي، ويعتقدون أن صاحبه هو إمام الأئمة بلا نزاع، وكان التعصب المذهبي وقتها شائع بين طلبة الأزهر وعلمائه، ممن يغفلون أن الأئمة كلهم منهج واحد وطريق واحد وجبهة واحدة، ولكن شاكر وهو القاضي الحنفي المذهب، يقدم في حركة جريئة، ليضرب هذا العرف في الصميم، ليحقق رسالة الإمام الشافعي، ويضع لها مقدمة من مائة صفحة يقول فيها: "إنه يعتقد غير غال ولا مسرف، أن الشافعي لم يظهر مثله في علماء الإسلام في فقه الكتاب والسنة، ونفوذ النظر فيهما ودقة الاستنباط مع قوة العارضة ونور البصيرة والإبداع في قمة الحجة وإفحام المناظر، فهو صحيح اللسان ناصع البيان، في الذروة العالية من البلاغة، تأدب بأدب البادية، وأخذ العلوم والمعارف عن أهل الحضر، حتى سما عن كل عالم قبله وبعده"

ثم قال في ختام حديثه «وقد يفهم بعض الناس من كلامي عن الشافعي، أني أقول عن تقليد وعصبية، لما نشأ عليه أكثر أهل العلم في قرون كثيرة، من تفرقهم شيعاً وأضراباً علمية، مبنية على العصبية المذهبية، مما أضر بالمسلمين حتى صاروا يحكمون بقوانين تخالف دين الإسلام، خنعوا لها واستكانوا، في حين كان كثير من علمائهم، يأبون الحكم بغير المذهب الذي يتعصبون له، ويتعصب له الحكام في البلاد.

وقد نشأت في طلب العلم، وتفقهت على مذهب أبي حنيفة، ونلت شهادة العالمية من الأزهر الشريف حنفياً، ووليت القضاء منذ عشرين سنة، أحكم كما يحكم إخواني بما أذن لنا في الحكم به من مذهب الحنفية، ولكني بجوار هذا بدأت دراسة السنة النبوية أثناء طلب العلم من نحو

ثلاثين سنة، فدرست أخبار العلماء والأئمة، لم أتعصب لواحد منهم، ولم أحد عن سنة الحق فيما بدا لي، فعن هذا قلت ما قلت، واعتقدت ما اعتقدت في الشافعي رحمه الله ورضي عنه» [1]

كان السلف الصالح نموذجا يحتذى به في التمسك بالحق مع الاعتراف بالخطأ:

فها هو الصحابي الجليل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ، يتراجع عن رأيه الذي ظهر له فيه خطأ، بعد أن نبهته امرأة لذلك، حين عزم على تحديد مهور النساء وعدم المغالاة فيه، فقد ورد في سنن البيهقي وغيره عن الشعبي قال: (خطب عمر بن الخطاب ﷺ الناس فحمد الله تعالى وأثنى عليه وقال: ألا لا تغالوا في صداق النساء، فإنه لا يبلغني عن أحد ساق أكثر من شيء ساقه رسول الله ﷺ أو سيق إليه، إلا جعلت فضل ذلك في بيت المال ثم نزل فعرضت له امرأة من قريش فقالت: يا أمير المؤمنين أكتاب الله تعالى أحق أن يتبع أو قولك؟! قال بل كتاب الله تعالى فما ذاك، قالت: نهيت الناس آنفا أن يغالوا في صداق النساء والله تعالى يقول في كتابه: ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾[2] فقال عمر ﷺ: كل أحد أفقه من عمر مرتين أو ثلاثا، ثم رجع إلى المنبر فقال للناس: إني كنت نهيتكم أن تغالوا في صداق النساء، ألا فليفعل رجل في ماله ما بدا له)[3]

ان كثيرا من الناس تأبى عليهم بيئاتهم التي تربوا، فيها أن يعترفوا بالخطأ، فهو شاق جدا عليهم، بل يعدونه سبة ونقيصة لا يقبلون بها، وقد تخرج من أفواههم أصعب الكلمات إلا كلمة الاعتذار، لأنهم نشأوا يعتدون بأنفسهم، ويجملون ذواتهم.

[1] - راجع أعلام النهضة الإسلامية المعاصرة د- محمد رجب البيومي
[2] - النساء: 20
[3] - سنن البيهقي.

"كم من بيوت خربت، وكم من قضايا رفعت وأضاعت الوقت والجهد والمال، وكم من عداوات دامت طويلا وأثرت على أجيال متعاقبة وتسببت في قطيعة أرحام طويلة ممتدة، وكم من دماء أهريقت بين الرجال أو الأسر، وكان يكفي لوأدها في مهدها كلمة واحدة فقط، وهي كلمة الأسف أو الاعتذار، والتي لو قيلت بعد مرور وقت لن تجدي نفعا، ولن يكون لها أية قيمة أو أثر، فلِم تتكبر عنها النفوس التي تعلم أن العودة للحق خير من التمادي في الباطل؟"[1]

وفي دنيا العلم والجدل والمناظرة حول مسائل المعرفة والثقافة والأدب، نجد كثيرًا من هذه الوقائع المدهشة التي ثبت فيها أناس أعلنوا بمواقفهم طهارة نفوسهم، ونكث آخرون حينما أعلنوا اعتدادهم بأنفسهم، والذين اعترفوا بالخطأ في مثل هذه المشاهد أعلنوا بموقفهم عن رجولتهم العظيمة، التي لا تزيد الناظر إليهم إلا توقيرا واحتراما وإجلالا.

"إن بعض الناس يعدون التراجع انهزاماً، فهم ينقلون المسألة من الموضوعية الواسعة إلى الذاتية الضيقة، ومتى اعتقد المجادل أن الأمر في المسألة يتعلق بذاته لا بموضوعه، فقد تعذر الوفاق، وانفرجت مسافة الخلاف، هو إذن داء قديم قد أعضل، وإننا لنقرأ عنه في كتب السابقين ما يدهش ويروع فوق ما نشهد الآن في نقاش المحدثين مما يؤلم ويسيء، وإذا أردت اعترافاً حقيقياً يدل على ذلك التطاحن الشخصى، فاستمع إلى أبى حيان التوحيدي إذ يقول: (سمعت الشيخ أبا حامد الإسفراييني يقول لطاهر العباداني: لا تعلق كثيراً لما تسمع مني في مجالس الجدل، فإن الكلام يجرى فيها على ختل الخصم ، ومغالطته ودفعه ومغالبته، فلسنا نتكلم لوجه الله عز وجل خالصاً، ولو أردنا ذلك لكان خطونا إلى الصمت أسرع من تطاولنا في الكلام، وإن كنا فى كثير من هذا نبوء بغضب الله تعالى، فإننا مع ذلك نطمع فى فضل الله وسعة رحمته). هذا اعتراف من إمام

[1] - من مقال بموقع الألوكة لياسر الحوري تحت عنوان الاعتراف بالخطأ خلق الأقوياء لا الضعفاء

كبير، يعد رأس الشافعية في عصره، وهو يدل على شجاعة نادرة حيث انتصر صاحبه على نفسه فى ساعة من ساعات الإخلاص النزيه، فقال:

إن نقاشه فى مجالس المناظرة، لا يهدف إلى تجلية الحقائق، قدر ما يهدف إلى مراوغة الخصم ومغالبته، كأن المسألة ليست مسألة حقائق مدعمة بالأسانيد، ولكنها حومة من حومات المصارعة، بين أبطال دربوا على الملاكمة البدنية، ليقول كل واحد منهم: أنا ها هنا أتصدر الميدان ! ثم تزيد عظمة الرجل حين يصرح أنه لا يتكلم لوجه الله خالصاً ولو أراد ذلك لكان خطوه إلى الصمت أسرع من تطاوله إلى الكلام، وهي لا شك لفتة بطول للنفس حينما قبلت الاعتراف على نفسها بهذا الخطأ والتجرد من الانتصار للذات."[1]

ثم انظر هنا لمثال آخر يشع جمالا ورفعة ونفسا حوة شريفة، ورجولة مفرطة من حبها للحق وتجردها من الأنانية والكبر.

روى عن أبي بكر الأنبارى، إذ حدث عنه أبو الحسن قدار قطني فقال: حضرت أبا بكر الأنباري رحمه الله في المجلس إملاءه يوم الجمعة، فصحف اسماً أورده في إسناد حديث، أما كان – شك من الراوي أبي الحسن – حيان بالياء، فقال الأنباري: حبان بالباء أو العكس، قال أبو الحسن: فأعظمت أن ينقل عن أبي بكر في فضله وعلمه وجلاله وهم، وهبت أن أوقفه على ذلك، فلما انقضى الإملاء تقدمت إلى المستملي، وذكرت ما دار بخاطري وعرفته صواب القول لينقله إلى أبى بكر، ثم حضرت الجمعة الثانية، فسمعت أبا بكر ينادي تلميذه المشعل ويقول له بصوت يسمعه جميع الطلاب في حقلة الدرس: عرف الجماعة أنا صحفنا الاسم الفلاني حين أملينا الحديث في

[1] - من المثل الإسلامية – د.محمد رجب البيومي

الجمعة الماضية، ونبهنا فلان – وأشار إلى – إلى الصواب، وقد رجعنا إلى ما نثق من المصادر، فوجدنا الشاب على حق فيما قال!

وعلى النقيض تماما مما سجله تاريخ الأدب فقد نقل أبو بكر الأنباري عن العالم اللغوي المعروف بابن الأعرابي هذا الخبر فقال: قال محمد بن عمر الجرجاني مصنف ابن الأعرابي في شعر الكميت وأنا حاضر، فأنشد:

فبانوا من بني أسد عليهم** جار من خزيمة في القبول

فقرأها بالنون في بانوا، وهي باتوا بالتاء، فقلت له: إنما هي باتوا، فلوى شدقه، فقلت: إن بعد هذا البيت يقول الكميت:

وقالوا بالأيا من مناهم** فيا بعد المبيت من المقيل

فقال: لا يلتفت إلى هذا .

وفي قوله شطط كبير وعزوف عن الحق وتكبر عن الإنصاف والاعتراف بالخطأ، لأن قول الشاعر (وقالوا) في البيت الثاني من القيلولة، فيدل على أن قوله في البيت الأول (فباتوا) من البيات لا البين، ومن عجب أن الدليل واضح بين على صدور الخطأ واضحا وضوح الشمس في رابعة النهار، ولكن صلف النفس وتكبرها يحجب الحق دائما، لكن التاريخ يبقى ليسجل هذه المآسي ويروي سيرة أصحابها.

حينما تخدعنا السطور

ما أيسر أن تقبع خلف مكتبك لتصف سطورًا عن البطولة والمروءة، ليصفك الناس بأنك مثال ما تكتب عنه، وشارة ما تسطره يمينك.

إن صناعة الرجال ليست بالأمر الهين البسيط، ولا تأتي بها الكتب، أو تخلقها سطور الأدب والبيان، بقدر ما يوجدها مصلح ملهم، وقدوة إمام.

كان أحد الأئمة قد شغله هذا المعنى وأدركه، حينما قال له أبوه: يا بني ألف كُتبًا لأتباعك، فقال له: يا أبت لقد انشغلت بتأليف الرجال.

ثم يقول: "إنَّني لا أؤلف كتبًا يكون مصيرها تزيين الرفوف وأحشاء المكتبات؛ وإنما مهمتي أن أؤلف رجالًا، أقذف بالرجل منهم في بلد فيُحْييه، فالرجل منهم كتاب حي ينتقل إلى الناس، ويَقتحم عليهم عقولهم وقلوبهم، ويبثهم كل ما في قلبه ونفسه وعقله، ويؤلف منهم رجالًا، كما أُلِّف هو من قبل".

كثيرًا ما ينخدع الناس في بعض أصحاب السطور، فيتصورنهم شجعانًا وهم جبناء، ويتخيلونهم كرامًا وهم أهل خسة، وترسمهم عقولهم ملائكة وهم شياطين، وعدولا وهم ظلمة، ومن هنا كانت المواقف والمحن هي الكاشفة، التي تجّلي الحقيقة واضحة بينة، ليظهر كل إنسان بحقيقته وأصله أمام الأعين غير مكذوب أو مخدوع في أمره.

وأمامنا اليوم بطل من أبطال المداد، أبت المواقف والشدة والمحنة إلا أن تبرهن على بطولته في دنيا الجهاد.

كان ظاهره كباطنه، وسريرته كعلانيته، وما يكتبه على صفحات الورق، يكتبه على صفحة الواقع غير مبدل أو محرف.

لقد نشأ الإمام ابن تيمية صغيرًا وهو يرى الفزع في قومه وأهله فرارًا من التتار المتوحشين، الذين يقتربون بهولهم يوما بعد يوم.

كان ابن تيمية وقتها في الثانية والثلاثين من عمره، حينما دق هذا الزحف الغاشم أبوابه على الشام عام 699هـ، لم يفر ولم يجبن، وإنما نظر إلى دوره وواجبه حتى يؤديه، وكما أسهم في نصيبه من جهاد العلم، فليسهم بنصيبه في جهاد العدو.

كان رحمه الله من ذلك الطراز الذي لا يفرق بين السيف على عاتقه، والقلم بين أصابعه.

ونحن اليوم نُعلّم المتحدثين والكاتبين والقراء، ماذا يتناولون من حياة هذا الرجل إذا أرادوا أن يتناولوا ويتحدثوا، إنها صورة الرجل الكامل صاحب المروءة والإقدام والجلد والشجاعة، إنها صورة بطل من أبطال العلماء بل أبطال الأمة، الذين وافقت أعمالهم أقوالهم، فكان مثالا في صدق الجهاد كما كان صادق المداد.

وإني لأعلم أن بعض المريبين يثيرون اليوم شكوكهم ويرمون شبهاتهم، حول بعض آرائه الفقهية التي لم يفهموا قصده فيها، حتى يُعموا أعين الناس عن هذه البطولة الفذة، وإدراكهم لهذه النموذج الرباني من العلماء، فإذا جاءت سيرته تناسى الناس كل شيء من عظمة الرجل ولا تبقى في النهاية إلا الريبة والشكوك.

جمع ابن تيمية الناس حوله، واتفق أن يذهب معهم إلى لقاء قائد المغول حتى يثنيه عن دخول دمشق، فدهش التتار وقائدهم من جسارة الرجل، ورباطة جأشه، فهابه هيبة كبيرة، وتأجل

دخولهم لدمشق، إلا أنهم عاثوا في الأرض فسادًا كبيرًا، فعزم أن يذهب إليه مرة أخرى، فأولم لهم القائد وليمة، فأكل الناس إلا ابن تيمية، فلما سأله عن ذلك، قال: كيف آكل من طعامك وكله مما نهبتم من أغنام الناس وطبختموه بما قطعتم من أشجارهم.؟!

وجاءت اللحظة الحاسمة لحظة دخول دمشق، وقد أخذ الناس يفرون ويهربون، لكنه وقف يحث الناس على الجهاد، ويمنعهم من الفرار، ويرغبهم في إنفاق المال لحماية الأمة، ويحيى فيهم النخوة والشجاعة، ظل يشعل الثورة في النفوس، حتى اجتمع جيش مصر والشام، فإذا به يمتطي الجواد ويخرج للميدان فارسًا مقاتلا، ليضرب المثل في اقتران العلم بالعمل.

يحكي التاريخ أنه كان في معركة (شقحب) وكان من أبطالها البارزين.

فيا من تهينون رمز العلم والجهاد، لماذا تغفلون عن هذه الصفحات المضيئة من حياة هذا الفذ العظيم، الذي كادكم وغاظتكم مكانته في قلوب المسلمين، وتأثيره على كل من سلك طريق العلم، وضرب بما صنع آيات الرجولة الفذة في أحلك المواقف التي تتطلب الرجال الشجعان.

لقد كان رسول الله ﷺ على المستوى العملي.. القمة في تحقيق معاني الشهامة والمروءة، فلم يكن يكتف بما يخرج من فمه من كلمات الهداية والأمر والنهي، وإنما كان على المستوى الشخصي أوفى ما يكون الرجل في تحقيق معنى هذه الكلمة، ولقد كان هذا سمتا طبع عليه حتى قبل التكليف بالرسالة، فها هي أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها تواسيه حينما أتاه الوحي، فأبرزت له معالم الخير في نفسه، وسمات الإصلاح في شخصه الرجولي فقالت له: (كلا أبشر، فو الله لا يخزيك الله أبدا؛ إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق)، وهو دور الزوجة العظيمة حينما تساند زوجها في رسالته، وتدعم ثقته في نفسه، وتذكره بما قد يغيب عنه، وتعزز فيه سماته القيادية التي تؤهله لحب الناس والمكانة من الله.

وفي حياة الرحالة الإسلامي الكبير (عبد الرشيد إبراهيم) ما يلفت إلى هذا المعنى، فعندما ترك قازان، نظر إليها حزينا وهو على ظهر السفينة، فهي البلدة التي أحبها، وكُتب عليه فراقها.. ثم يتعرف على رجل طرق بابه ودعاه للإفطار معه، وتناول الشاي فسأله الشيخ عبد الرشيد عن اسمه وبلده، فعرف منه أنه إمام قرية من ناحية جيستاي بولاية قازان، وبدأ الحديث بينهما فقال له عبد الرشيد: يا سيد منذ متى تقوم بالإمامة؟ فأجابه منذ ثمانية عشر عاماً.. فقال عبد الرشيد: أرجو ألا يفهم كلامي على غير ما أقصد، فخلال السنوات الثماني عشرة، ماذا قدمت للحي الذي تؤم الناس فيه؟

ما هي خدماتك؟ لقد قدم لك أهل الحي طيلة ثمانية عشرة ما يكفي لمعيشتك وللإنفاق على عيالك، على كل حال كنت في وضع لم يطلع عليه أحد، لعلك كنت في أوقات طيبة، فما هي الخدمات التي قدمتها للحي مقابل خدماته.؟ حدثني عن المنافع التي جلبتها لهم!

فأجاب الإمام: لقد صليت على جنائزهم، وسجلت أبناءهم، وعقدت زواجهم، هذه مهمتي..!

فقال له عبد الرشيد: أنا لا أسألك عن الأمور التي قمت بها لمصلحتك، بل أقول ماذا عملت من أجل مصالح الناس؟ لنفرض أنه لم يكن في الحي مدرسة قبلك، فهل افتتحت مدرسة؟، أو بذلت النصح لهم في المساجد ، أو منعت عنهم فساد الأخلاق، أو كان أهل قريتك فقراء فشجعتهم على الكسب والارتزاق، فحسنوا أوضاعهم المعيشية؟ حدثني عن مثل هذه الخدمات.!

فقال الرجل: يجب الاعتراف بالحق، حتى الآن لم يحدث شيء من هذا، ولكنك أرشدتني.. أؤيدك في هذا الرأي بصدق.. سأقوم من الآن بوعظ الناس في المساجد، وأحضهم على الكسب والبحث عن الرزق بإذن الله.. لقد محضتني النصح فجزاك الله خيراً، لقد شرحت صدري بكلامك الطيب)[1]

استغرق هذا الحوار نصف ساعة، تفتحت فيه أعين الرجل على آفاق كان يجهلها، وعرف ما غاب عنه من دورة الحقيقي تجاه من يصلحهم.. ولم يوجهه الداعية الكبير إلى دورة الوعظي عبر الكلام

[1] - العالم الإسلامي في رحلات عبد الرشيد إبراهيم- تحقيق دكتور صالح مهدي السامرائي

فقط، وإنما وجهه إلى دوره الإصلاحي الفعلي الواقعي في حياة قومه الذين ينتظرون منه حماسة وصيحة تنهض بهم في كل شؤون الحياة.

وعلى ذات المعاني كان الإمام الجليل (أبو الأعلى المودودي) من أرق الناس أفئدة وعطفاً على الفقراء والمساكين والمحتاجين، إذ لما أعلن عن قيام باكستان في 3 يونيه 1947م راح حزب المؤتمر الهندي يعبئ نفوس الهندوس والسيخ ضد الإسلام والمسلمين، ويصور لهم تقسيم الهند على أنه قطع لأوصال الهند وذبح لآلهة الهندوس، فإذا بهم يشنون غارات بربرية على أقاليم المسلمين، خاصة إقليم البنجاب، ويُعملون أسلحتهم في رقاب المسلمين على نحو لم تشهد له البشرية مثيلاً، وظلوا من أغسطس لنوفمبر يرتكبون المذابح المروعة، ويسفكون دماء الكبار والصغار من المسلمين، ويقطعون الرقاب ويبقرون البطون، ولم يفلت منهم أحد.

وقضى التقسيم على أن تضم باكستان الأقاليم التي يسكنها مسلمون فكان إقليم (جورداسبور) من نصيب باكستان، لكن (نهرو(كان طامعًا في كشمير، وكان الطريق الوحيد الذي يربط كشمير بالهند يمر من (جورداسبور)، ومن ثم أعلن بعد 3 أيام من التقسيم ضم (جورداسبور) إلى الهند، وبعد هذا الإعلان راح الهندوس يهجمون بوحشية على المسلمين في قراهم، مما أدى لفرارهم إلى باكستان، ولجأ منهم أكثر من ألف مسلم.

حينئذ كان دور الإمام (أبي الأعلى المودودي) كبيراً بين صفوف اللاجئين، فقد أقام معسكرًا لهم، ورتب فيه الإقامة والمأكل والمشرب والرعاية وتدابير الأمن، وكان يقسم الطعام بنفسه بينهم، وكان يعطي لنفسه نصيبًا مثلهم تماماً رغيفين في اليوم، كما نظم دوريات الحراسة حتى بدا المعسكر غاية في الترتيب والتنظيم.

وحدث أن حضر إليه أحد الضباط الكبار لأخذه للمنطقة الآمنة، لكن الإمام رفض أن يذهب وحده ليحمي نفسه ويترك هؤلاء المساكين يصارعون الموت، وفي ذلك الوقت حضر إليهم أحد أنصار الجماعة الإسلامية ومعه مجموعة حراسة من باكستان وأخذ الأطفال والنساء إلى لاهور، وبعد أيام استولى الجيش الباكستاني على المعسكر، ورحل المودودي ورفاقه إلى لاهور ووصلوها ليلا في أغسطس 1947م.

ولما وصل المهاجرون إلى لاهور، كان هناك مبنى مخصصًا لهم، لكنه أخذ منهم، فقرر الإمام عدم الاعتماد على ذلك، ونصب الخيام في الميدان العام وأقام الجميع فيها، وكان الشتاء على الأبواب والأمطار تغرق الشوارع، فاقترح البعض أن يعطوا للأستاذ بيتا يأوي إليه هو وعياله فرفض، وألح عليه رفاق الهجرة أن يقبل ذلك حتى لا يعرض نفسه وأهله للخطر، لكنه أصر على الرفض، وقال: كيف أسكن في منزل ويسكن غيري في الخيام تحت السيول والأمطار، ونحن سواء ، ليكن كل منا مع الآخر في اليسر والعسر وفي الفرح والهم، ومكثوا تحت سيول الأمطار شهراً، إلى أن وجدوا بعض البيوت ذات الإيجار الزهيد في حي (أتشره) فانتقلوا إليها، ثم أقامت الجماعة الإسلامية معسكرا لإمداد المهاجرين، ووجه الأستاذ نداءه إلى كافة المسلمين ليقدموا إليهم ما استطاعوا من معونة، فجاءه الناس من كل مكان بملابس وبطاطين وأغطية وأموال وأدوية وحلي وطعام وكل ما يلزم للحياة.

إن الدعوة ليست منبراً لعرض الآراء والنظريات.. والداعية ليس (مذياعا) يردد الأفكار المجردة فحسب، وليس كتابا يسطر معاني الحكمة، بل إن الدعوة والداعية.. يجب أن ينتقلا نقلة نوعية تجعلهما يعيشان هموم الناس، ويحملان بقسط وافر من هذه الهموم..

وشباب الدعوة عليهم واجبات عظمى تجاه المواطنين بكافة شرائحهم وأشكالهم، يحتكون بهم في كل مكان ويعاملونهم في حياتهم اليومية ..لابد للشباب الرسالي أن يكون قائد الفكر والنهضة في الأمة، بل قائد الإصلاح والمتصدر لمشكلات الناس لا بد لهم أن (يسهموا في تعليم الأميين حتى يقرؤوا، وفي علاج المرضى حتى يصحوا، وفي تقوية المتعثرين حتى ينهضوا، وفي مساعدة المتبطلين حتى يعملوا، وفي معاونة المحتاجين حتى يكتفوا، وفي توعية المتخلفين حتى يتطوروا، وفي تذكير العصاة حتى يتوبوا، والأخذ بيد المنحرفين حتى يستقيموا، وكشف المنافقين حتى يختبئوا، ومطاردة المرتشين حتى يرتعدوا، وإنصاف المظلومين حتى ينتعشوا.. وما أكثر الميادين التي تحتاج إلى جهود الشباب، وعزائم الشباب، وحماس الشباب! انزلوا إلى الشعب واختلطوا به، وعيشوا همومه، وشاركوه متاعبه، اربتوا على أكتاف المهمومين، امسحوا دموع اليتامى، ابتسموا في وجوه

البائسين، خففوا الحمل عن كواهل المتعبين، أغيثوا الملهوفين، اجبروا كسر المكسورين، داووا جراح القلوب الحزينة، بموقف عملي، أو بكلمة طيبة، أو ببسمة صادقة)[1]

ويوم يتحقق هذا التلاحم بين الفكرة والشعب، تجد الفكرة من ينصرها ويدعمها ويشد من أزرها، لأنها صارت محببة إلى القلوب قريبة من الأفئدة.

أمة تهين أبطالها

تعد القدوة من أهم الوسائل في تكوين الرجولة وتربية الناشئة على معانيها، ويأتي التراث بما يحمل من سير الأبطال والعظماء أهم معالم هذه القدوة المنشودة، فأوقن بشدة أن أول محاولة لنهوض هذه الأمة وتقدمها وانطلاقها في الدنيا قائدة عزيزة مرموقة، حينما نجتهد في علاج نفسيات منتسبيها، الذين أصابهم داء الدونية وضعف الثقة بالنفس، والاعتزاز بما لديها من هوية وتراث وثقافة وفلكلور وطقوس وعادات يجب احترامها وتقديرها والاعتزاز بها.

إنك اليوم تجد أمة تعبد البقر وتعبد الصراصير والأفاعي في القرن الحادي والعشرين ولها من الخرافات المدوية ما يعجز العقل عن تصديقه أو تصوره، ومع هذا تبث الاعتزاز بهذه الهوية وهذه الطقوس في نفوس بنيها في التعليم والإعلام والكتب والبرامج والمنتديات، لأنها التراث والجذور التي تمثل أصالتهم وبعدهم الحضاري الذي لا يمكن أبدا أن ينسلخوا عنه ويتنكروا له أو يتبرؤون منه.

ومن ثم ينموا في نفوس الناشئة، اعتزاز هائل بكثير من المشاعر الوطنية والعقدية، التي يظنون أنهم لا يبارون فيها.

[1] - الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف – د. يوسف القرضاوي

انظر إلينا.. لقد لعب المستعمرون وقادة الغزو الفكري وأذنابهم على هذا الوتر، فكان أول شيء لابد من غرسه في أجيال الأمة، أن يحقروا لهم ماضيهم ويشعرونهم بالخجل منه، وأن يقزموا في أنفسهم شخوصه ورموزه، حتى لا يكون لهم هم حين يكبرون إلا غرض واحد، وهو كيف يتخلصون من عار وتخلف ورجعية هذا التراث.؟!

حتى الاقتداء بالرموز فإنهم لا يعرفون شيئا عن أفذاذ أمتهم وأبطالها، الذين يمثلون القدوة في الرجولة الشريفة، والذين نستلهم منهم مواقف المروءة والشجاعة والبطولة، ولكنهم يعرفون بجدارة كثيرًا عن أبطال الغرب وقادته وعظمائه، وهم الذي لو قسنا كثيرا منهم أمام سيرة بطل من أبطالنا، ما بلغ نصف ولا ربع ما بلغ بطلنا من المجد، وعظيمنا من الفخار والتألق.

قرأت يوما عن حسين أحمد أمين، وهو ابن الباحث والكاتب الكبير أحمد أمين، حينما كان يأتي لإخوته وهو صغير فيقول لهم: إنه قرر أن يأخذ لنفسه مثلا أعلى، فمن كان يختار يا ترى؟

كان يختار تارة نابليون، وتارة كارل ماركس، وأحيانا تولستوي.

وأنا أتعجب من صبي في مقتبل العمر، كيف توارد إلى ذهنه أمثال هؤلاء ليكونوا مثلا عليا، بينما خفي عليه عظماء أمتنا ورجالها وقادرتها الأفذاذ؟ خاصة وأنه ليس كأي شاب، فهو ابن أحمد أمين باحث التراث وحارث من حراسه.

وحينما تطالع أوراق الرئيس الراحل أنور السادات، تراه كم كان منبهرًا بكمال أتاتورك، وكيف كان يحكي عن كل سلبياته على أنها إنجازات وإضاءات، كإطلاقه لشعر المرأة حاسرة كاشفة متبرجة، وطرده للسلطان العثماني والقضاء على الخلافة الإسلامية، وغير ذلك من عدائه الفج

للروح الإسلامية، وظلت روح أتاتورك مهيمنة على نفس السادات إلى أن صار رئيس الجمهورية، فكان يجاهر بالعلمانية وفصل الدين عن الدولة عيانا بيانا.

لم يجد السادات من يملي عليه صور العظماء الحقيقيين ليتربى على شيء من تاريخهم، فيعرفهم ويمتثل لذكرى بطولتهم، ولكنه وجد أتاتورك معلقا في حائط بيتهم.. ولو أنه وجد غيره وقص عليه والده شيئا من ذكره، لا شك أن ذلك كان سينعكس على تفكيره ووعيه وتكوينه، كما انعكس فكر أتاتورك وشخصه.

وعلى هذا المضمار وقف المقاومون لهذه الانسلاخ وتطمين الأمة على عظمائها وإعادة بناء الثقة في قادتها وتراثها ورجالها العظام، فكان العقاد بمؤلفاته، وكان كامل كيلاني بقصصه، وغيرهم كثير بإسلامياتهم، وحديثهم عن شخصيات العرب وأبطال المسلمين.

ما زال التاريخ مليئا بالصدمات الغريبة والمدهشة، التي تزلزل المسلمات التي استقرت في أذهاننا، وتؤكد أن كثيرا من التاريخ تم تزييفه للحقيقة، وأن المؤرخ إذا كان مجرد راوية للقصص والحوادث دون تمحيص وبحث ودراسة ومقابلة ومقارنه، فلن يعدو إلا أن يكون مجرد مروّج لكثير من الأكاذيب، التي ألفت وتم الترويج لها، لأغراض سياسية أو مذهبية.

من يصدق اليوم أن يكون هذا الرجل الذي تعلمنا طوال حياتنا أنه يلي الرتبة الثانية بعد الشيطان، وأنه من أخبث من عرف تاريخ المسلمين، ووقعت كل العقول الإسلامية في هذا التصور الشرير لهذا الرجل، أسيرة تصورات ودعايات سلفية غير منصفة، قادها بعض المتعصبين الذي يرفضون الخلاف ويكفرون المخالفين، من كان يتصور أن هذا الرجل الذي قرأنا عنه وتعلمنا أنه من أبشع الشخصيات التي نضح بها تاريخ المسلمين، أن يكون رجلا نبيلا وشهما وعالمًا كريمًا، ومثالا فريدا للرجولة والكرم والنبل والفداء والشجاعة؟!

هناك دومًا حقيقة أخرى تتراءى لنا لو أننا فقط أعملنا أذهاننا في شيء من البحث الجاد والمعرفة الدؤوبة.

نعم فالفكر السلفي المعاصر عند كثير من المتعصبين له، لا يعترف بالآخر ولا يؤمن بالرأي الآخر، إذ يرى أن كل ما يخالفه حياد عن الحق، وانحراف عن جادة الصراط والصواب، ومن ثم لا يقبله ولا يعترف به، لأنه يعتقد أنه صاحب العقيدة الحقة التي يقيس بها كل شيء، ويرفض بحرفية النصوص، ما يرى أنه خالفها، ومن ثم وقع كثيرون تحت مقصلته وقمعه الفكري للمخالفين.

هذا الفكر الذي بات يصور لنا المعتزلة على مر الزمان، بأنهم فجرة كفرة، من أحزاب الشيطان، ولما تتبعنا سيرة القوم، وجدنا أنهم فرقة من المسلمين، كان لهم منهجهم العقلي الخاص الذي يخدمون به الإسلام، ويستدلون بآياته وأحاديث نبيه ﷺ، ولم يكونوا أبدا مثل الخوارج أو الملحدين أو طوائف الشيعة المغالية، القوم كانت لهم آراء فكرية وعقدية وربما فقهية، في ضوء العقل الذي لا يتصادم مع الشرع، وإنما جعلوا من هذا العقل مركبا لخدمة الشريعة، لكن بعض الفترات أو بعض الآراء التي شكلت فيما بعد فتنا كبرى، قد طغت عليهم في الوصف وصُبغوا بها، حتى لا تكاد تذكرهم إلا بكل سوء، وليس هذا هو الحق والإنصاف، فما حدث في فتنة خلق القرآن، كان حال طائفة منهم في وقت لم يجمعهم كلهم في زمنه، وعيب هذه الفئة منهم في بعض هذه الفترات، أنهم رخصوا في سفك الدماء وتصفية المعارضين، ولم يقبلوا باختلاف الرأي، ومخالفة الفكر والنظر.

لقد دأبت الروايات السلفية على شيطنة أحمد ابن أبي داؤاد، لكنه مع ذلك يسجل له التاريخ كثيرا من مواقف المروءة والبطولة والنجابة والنبل، تجعلنا بنظرة أخرى نُكبره ونُقدره، لكننا للأسف لا

نعرف شيئا من هذا التاريخ، لأننا لا نقرأ ولا نبحث، وقدر للشيخ علي الطنطاوي أن يكون أول من كشف حقيقة الرجل التي لا نعلمها ولا نعرف وجهها الاخر.

لقد ذكر في كتابه (رجال من التاريخ) كثيرا من مروءته ونجابته ورجولته، وشفاعته للمظلومين، لقد سخر نفوذه لرد المظالم، ورفع الأذى، وإقامة الحق، ولطالما استنقذ بها أناسا من تحت سيف الجلاد، ونحن لا نبرئ ساحته جملة، ولكننا نحب أن نذكر أنه كان فيه من سمات الخير ما نجهلها، فعلى قدر ما كان يحفز العداوة ضد الإمام أحمد بن حنبل، فإنه في غيره حاول أن ينجيهم من غضب الحاكم والنجاة من سيفه البتار.

ذكر ابن خلّكان عدة قصص شفع فيها ابن أبي دؤاد لمن أراد بعض الخلفاء العباسيين قتلهم، فأنجاهم بعد أن عُرضوا على السيف والنطع.

بل إن ابن كثير في البداية والنهاية حين ذكر أحمد بن نصر الخزاعي (وهو من رؤوس أهل الحديث)، وأنه أخذ البيعة من العامّة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (كل هذا بسبب محنة خلق القرآن)، فظفر به الخليفة الواثق، وحُمِل إليه مقيّدًا، وناظره في خلق القرآن، قال بعض من حضر المجلس اقتله يا أمير المؤمنين، ودمه في رقبتي يا أمير المؤمنين، إلا أحمد بن أبي دؤاد، فإنه قال: بل يستتاب يا أمير المؤمنين، فلعل به عاهة أو نقص عقل، وهذه في رأيي حيلةٌ احتال بها ليدفع القتل عن الخزاعي رحمه الله، غير أن الواثق عجل بالسيف فضربه بنفسه فقتله، ثم أمر من يحتزّ رأسه فينصب للعامّة على رمح، وكثيرًا ما كان يكلم المعتصم في شؤون الناس وعطاءاتهم وحقوقهم.

كانت الدولة وقتها قسمين، تركية وعربية، والجيش جيشين، أتراكا وعربا، وكان زعيم الأتراك على عهد المعتصم الأفشين، الذي اعتد على أبي دلف (وكان من أكبر زعماء العرب) ذنوبا حكم

عليه فيها بالقتل، ولما بلغ الخبر ابن أبي دؤاد ذهب إليه، وما كان من عادته أن يزوره، فأرادوا إدخاله البهو الكبير حتى يفرغ الأفشين فيستقبله، فأبى ودخل مجلسه، وأبو دلف مقيد في وسطه، والسياف على رأسه، والأفشين يقرعه ويشتمه، فراح ابن أبي دؤاد يستعطف الأفشين ويلين قلبه ليعفو عن أبي دلف، وهو لا يزداد إلا عنادا وعتوا، فلما رأى الجد منه، وعلم أنه إن خرج قتل أبو دلف، إذا به يقدم على أمر عظيم لا يقدم عليه غيره، حيث قال له: إلى متى أستعطفك وأنت تأبى؟! إني رسول المعتصم إليك، يأمرك ألا تحدث بأبي دلف حدثا، وإن مسه سوء أو قتل، فإنه قاتلك به، وقال للحاضرين: اشهدوا على أني بلغته رسالة أمير المؤمنين، وتركه وهو بوجه الزعفران، وذهب من فوره إلى المعتصم، فقال له: لقد بلغت رسالة ما أرسلتني بها، وأخبر الخبر، فقال له المعتصم: نعم ما فعلت، وكف يد الأفشين عن أبي دلف.

وهناك حكايات كثيرة ذكرها المؤرخون والرواة عن نبل الرجل وشهامته وإغاثته للمظلومين، وإنقاذه لمن أهدرت أرواحهم مما يدلل على نبله وسموه، ومما يجعله قدوة لمن أراد أن يعاين مواقف الرجولة والشهامة.

رجولة مسافر

لم يكن هناك شيء يخفيه ذلك الشاب الأسمر الذي يدرس في ألمانيا، ولم تكن له حياته مستورة لا يعرفها أحد، بل كان كل ما يدعيه من قيم ومظاهر، تتفق تمامًا مع ما يخفيه من خواطر وضمائر.. وتلك لعمري علامة البطولة والرجولة الحقيقية، حينما يصمد صاحب المبادئ على نهجه، لا يضره ما حوله من غرور ومتاع وشهوات.

إنه الأديب والكاتب والمفكر الكبير (عمر فروخ) الذي كان يرافق أستاذه الألماني المشرف في كثير من رحلاته، وتصادف أن دخلا مطعمًا سياحيًا لتناول الغداء، واتفق وقتها أد دخلت فتاة كانت جميلة جدا، لدرجة أن التوت لها الأعناق، وتعلقت بها الأبصار، وجلست واتخذت مكانا يغيب عن أعيننا.

وبعد قليل جاءت المضيفة التي تتولى الخدمة، وقالت: إن الفتاة التي دخلت منذ قليل إنكليزية، ومعها سيارة بمقعدين، وقد قالت لي: سلي هذا الشاب الأسمر إذا كان يريد أن يقضي هذا اليوم بعد الظهر معي؟

فقال لها صاحبنا: أشكرك لا أستطيع.

وما أن ابتعدت المضيفة قليلا، حتى قال له أستاذه وهو في قمة استغرابه وتشككه وتحديه وغضبه: أتمنى أن أراك سكرانًا.! فقال له عمر: قل لي: أتمنى أن أراك وزيرًا للمعارف أو أراك عالما كبيرًا أو قل لي: أود أن أراك ذا مكانة كبيرة في قومك.

قال أستاذه: لا،لا،لا. بل أريد أن أراك سكرانًا حتى يسقط هذا القناع الذي مازال على وجهك منذ عامين، واعتبر صاحبنا هذا الكلام تحديًا لسلوكه وأخلاقه، فتذكر وقتها قول أصدق القائلين:" فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه"

وصفق بيديه فرجعت المضيفة، وقال لها: أريد ربعًا وهو كأس فيه ربع لتر من البيرة، ولم يكن قد شربها من قبل ولا من بعد، فشربها ثم طلب منها قدحًا صغيرًا من الخمر، وهو مما يسبب سكرا قبيحًا كما يعرف الألمان، لكن كل ذلك لم يفعل فيه أو يغير أي شيء، تجرع المحرم ليثبت له أن المبادئ لا يتغير لونها وصفتها مهما تغيرت الدنيا من حولها.

ربما لا يعجبك ولا يعجبني تصرفه وشربه للخمر، لكن هكذا أوحت له حمرة التحدي وقتها.

فلما حان وقت رحيله إلى بلده، صحبه أستاذه إلى محطة القطار ليكون في وداعه، وأخذا يتحدثان إلى أن يحين تحرك القطار، وما أن صدحت الصافرة إيذانا بالتحرك والمسير، دمعت عينا أستاذه، فقال له: لماذا تبكي؟ أنا ذاهب إلى الشرق أحمل علمك واسمك، فقال له: إن ما خبرته منك في عامين، كنت أقرأ مثله في الكتب فقط.

ولم تكن ذات عمر فروخ هي التي أدهشت أستاذه الغربي وعظم في عينه حتى بكى لرحيله، وإنما تطل علينا تلك الصفات والطباع القيمية التي التزم بها وعاهد الله على مسارها، وهي الأخلاق التي يدهش لها كل غربي مع أي مسلم، شريطة أن يكون هذا المسلم من أهل الإباء وتطبيق معالم النخوة والرجولة والشهامة.

في حواري مع الأستاذ (ضو التريكي أبو النور) رئيس (المركز الإسلامي للثقافة والاندماج) بمدريد أخبرني: أن الأسلوب والمعاملة من متطلبات الدعوة إلى الإسلام في المجتمعات الغربية، ففي كثير من الأحيان لا نحتاج إلى محاضرات، ولكننا نحتاج إلى معاملة وخلق جيد نمارسه في المجتمع ليقبل على الإسلام بسببه، وقد حدث معي موقف بسيط جداً أذكره لك، فقد ركبت الحافلة يوماً، ووجدت مكاناً خالياً فجلست فيه، وفي المحطة التالية صعدت امرأة ومعها طفل يبدو عليه الإعياء والتعب الشديد فجلست أمه، أما هو فجلس على الأرض لأنه لم يكن هناك مكاناً خالياً، وإشفاقا عليه قمت وتركت له مكاني، وبقيت واقفاً حتى نزل شخص من الخلف، فذهبت وجلست مكانه.. وتفاجأت برجل يجلس بجواري كان يتابع المشهد من بدايته، سألني وقال لي: ألم تكن حين قمت للصبي تريد النزول من الحافلة؟
فقلت له: لا.. فتعجب ثم سألني مرة أخرى هذا يعني أنك قمت لتترك مكانك للصبي؟ فقلت له: نعم.. ثم أعاد علي السؤال ثلاث أو أربع مرات، وهو يحسب أني لم أفعل ما فعلت رحمة

بالصبي المريض، فهو مندهش أن يصدر مثل هذا الموقف الأخلاقي من مسلم، وهم بطبيعة الحال يعرفوننا من خلقتنا وهيئتنا.

لقد كان الرجل منبهراً وكأنه وقف على كشف إنساني، أو نظرية جديدة من نظريات الأخلاق والفضيلة.

وهذا التصور السلبي عن المسلمين، ناتج عن خلفية سيئة تسبب فيها الإعلام الغربي وبعض تصرفات المقيمين الأول من الجالية المسلمة، وقد وجدت هذه الحادثة فرصة لتكون مدخلا إلى هذا الرجل في حديثي إليه عن الإسلام، فقلت له: لا تستغرب يا سيدي فديننا ونبينا يأمرنا بهذا ويقول: ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا ..فالأخلاق ثم الأخلاق هي الطريق الأمثل للدعوة وتوضح حقيقة الإسلام أمام ما يواجهه من حملات التشويه.

وهذا الموقف الشهم الذي قدمه الأستاذ (التريكي) لا شك أنه غير من الصورة المستقرة في ذهن الراكب عن الإسلام والمسلمين، لقد شاهد الراكب المراقب موقفاً مفعماً بالنخوة والرجولة والإنسانية العالية، في زمن ومجتمع تشبع بالنفعية والمادية وإيثار الذات، فلم يكن من بين الركاب من شعر بمحنة الصبي غير صديقنا المسلم.. ولقد كانت الدهشة الكبرى من مُشاهد ليس طرفاً في الموقف، ومثل هذه المواقف الإنسانية تسهم في تكوين انطباع قوي مشرق عن أخلاق الإسلام والمسلمين، يؤهل هذه المجتمعات الغربية للقبول به والترحيب بوجوده.

كان الأستاذ عبد الوهاب مطاوع، رجلاً بمعنى الكلمة، يحمل صفات الشهامة والمروءة وتحمُّل المسؤولية في المواقف الصعبة، ولم يكن حبه في مساندة الآخرين بالآراء والقلم والخبرة وحدهم، وإنما تعدَّى ذلك لأن يساند الغير بالجهد الجسدي إذا استدعى الأمر ذلك، ولعل الموقف الذي بين أيدينا يحكي ما كلفه ذلك من جهد بدني في سبيل مساندة الآخرين، وعلى قدر ما فيه من الطرافة والضحك والاعتراف بالجهد والتعب، إلا أنه ولا شك يلقي الضوء على شهامة نفسه ومروءة ذاته.

ففي شبابه قام برحلة إلى فينيسيا، وفي نهايتها استعد للرحيل، ووصلت الباخرة المصرية للميناء فحمل إليها حقائبه، ولمح فتاة يبدو من هيئتها أنها مصرية، تحمل حقيبتين ثقيلتين تجهدانها، وبعدما تأكد من مصريتها من شكلها وملامحها، اتجه إليها وعرض عليها مساعدتها في حمل إحدى الحقيبتين.

يقول: "انتهى التعارف وجاء دور المساعدة، فاخترت بطرف عينى أصغر الحقيبتين نسبيًا، وانحنيت لأرفعها، فإذا باحتجاج صارخ من عمودي الفقري يعجزني عن تحريكها.. أحسست بالحرج.. وسألتها مبتسمًا عما فيها؟ فإذا بها كتب وزنها ٢٧ كيلو جرامًا أما الحقيبة الأخرى التي استهولتها، فليس فيها سوى ملابس خفيفة الوزن نسبيًّا.! ضاعت فرصة الاختيار وأصبح التراجع عارًا، فانحنيت على الحقيبة ونفخت عروقي كما يفعل الرباعون واستجمعت شجاعتي، وقررت أن أرفعها بطريقة الخطف، ثم رفعت الحقيبة، فكدت أفقد توازني، ومرت لحظات عصيبة قبل أن أضبط حركتي وأستطيع السير، ومشيت إلى جوارها عدة خطوات مائلاً إلى الجانب الأيمن، ونقلتها إلى يدي اليسرى فمشيت خطوات أخرى مائلاً إلى الجانب الأيسر، وتناقلت الحقيبة بين يديَّ طوال الطريق، حتى وصلنا إلى الميناء بعد عذاب، وحملنا الحقيبتين إلى الباخرة وجلستُ ألتقط أنفاسي، وجلست الفتاة إلى جواري تستريح، حتى استردت نشاطها سريعًا.

ونهضت فسألتها بسذاجة: إلى أين؟ لم أندم في حياتي على سؤال وجهته لأحد كما ندمت على تسرع لساني بهذا السؤال، فأجابتني بأنها ستعود إلى محطة السكة الحديد، حيث تنتظرها صديقتها مع باقي الحقائب لتواصل نقلها إلى الباخرة، وأحسست بالحرج لتوقعها مساعدتي لها، وأحسست بأن شهامتي في الميزان، لكني هونت على نفسي الأمر بأن أثقل الحقائب قد تم نقلها، ولن تبلغ أي

حقيبة أخرى بعض ثقلها، وقلت لنفسي: لا ينال الإنسان الذكر الحسن بغير عناء، فنهضت متثاقلاً إلى محطة السكة الحديد، مصممًا على أن أواصل مهمتي إلى النهاية، وفي فناء محطة السكة الحديد، كاد يغمى عليَّ حين رأيت صديقتها تقف في الفناء وحولها « دائرة » من الحقائب والصناديق، أصغرها أكبر حجمًا من الحقيبة التي ناء بها ظهري، وفكرت جديًّا في التنازل عن حكاية الذكر الحسن، هذه والنجاة بنفسي، لكني لم أستطع، وانتهى الأمر بأن أمضيت ثلاث ساعات طويلة كليل المعذبين في رحلات مكوكية، بين محطة السكة الحديد والميناء، تغيرت عليَّ خلالها الفتاتان عدة مرات، ولم تفكر إحداهما في أن تدعني في حراسة ما بقي من الحقائب، وتخرج الاثنتان معًا في نقلة من النقلات إلى الباخرة، حتى انتهت المهمة بعد عناء شديد، ودخلت الباخرة وأنا أكاد أحبو على أربع."[1]

ويحكي أحد القضاة عن موقف تعرض له مع أحد مشاهير الدعوة الإسلامية وأئمتها في العصر الحديث فيقول:

"كنت في بلدتي، وفي عودتي إلى القاهرة في وقت متأخر في سيارتي ومعي زوجتي وقد فرغ البنزين من السيارة.. فتوقفت على الطريق الزراعي في مكان لم أر على مقربة منه قرية ولا ضيعة، وكان الظلام حالكاً ورهبة السطو تسيطر على مشاعري.

وكلما مرت سيارة أشرت لها بالوقوف، ولكن أية سيارة لم تستجب وكانوا معذورين فالوقت متأخر، والمكان منقطع عن العمران، وهوية الذي يستوقف السيارة غير معروفة، والحذر في مثل هذا الموقف أولى وأجدر، وأخذت السيارات تمر واحدة بعد الأخرى على فترات منتظمة تدعو إلى القلق، وأخذت الدقائق تمر كذلك في بطء يثقل وقعه على الأعصاب، وبعد أن انتصف الليل

[1] - صديقي ما أعظمك ص 28

وأيقنت أنني سأبيت أنا وزوجتي حيث كنا حتى الصباح، وبعد أن يئست من استجابة أي سيارة لإشارتي قلت: فلتكن الإشارة الأخيرة لأية سيارة تأتى، وحصل ما تمنيت، فوقفت سيارة ونزل منها رجل يرتدى الزى الإفرنكى، ملتح، توحي ملامحه بالاطمئنان الكامل وتحقق الأمل.. وتقدم منى في أدب محياً، وسألني هل هناك ما أستطيع أن أفعله.؟ قلت: البنزين انتهى، وكانت السيارات في ذلك الحين، ما تزال تستعمل البوق (النفير) فخلع الكاوتش الذي في بوق سيارته، ويملأه منها ويفرغه في تانك سيارتي، حتى قدرت أن هذا يكفي وظننت أنه وقد قدم هذه المكرمة، وفي هذا الموقف الحرج، سيتركني وينطلق بسيارته، ولكنه طلب متلطفاً أن أسير أولاً، لعل في سيارتي شيئاً غير فراغ البنزين، وكان يقوم بهذا العمل كله بنفسه، ورفيقه في سيارته، يرقب كالصقر الحذر، وقبل أن ينصرف عرفني بنفسه، ومن وقتها أدركت ما توفرت فيه من صفات تُوحي بالثقة الكاملة فيه."

وفي الزمن القديم كانت المروءة خلقاً متفشياً بين الناس، ومسارعة الناس لخدمة غيرهم والسعي على حاجتهم أمرًا طبع عليه أغلب المجتمع الذي كان سليماً معافاً ينأون به عن هذه الأمراض، ويحافظون على سموه وخلقه، فمما يروى أن رجلا صالحا كان يمتطي فرسه في الصحراء، فإذا به يبصر شخصًا جالسًا على الرمال الساخنة يشكو العطش ويقترب من الهلاك والموت، فدنا منه الرجل الصالح وسقاه، واهتم بحاله وحاجته، فطلب منه الرجل التائه أن يركب خلفه على الفرس حتى يبلغ مكانًا مأهولا، فقال له الرجل الصالح: لا.. بل تركب أنت وأسير أنا، فلقد اقتربنا من العمار، وأنت بحاجة إلى راحة كي تسترد باقي عافيتك.

وما إن ركب الرجل على الفرس واستقام عليه وملك زمامه، إلا وأطلق له العنان مبتعدا عن الرجل الصالح، الذي وقف مندهشًا مما يحدث، وبعد أن وعى الرجل أن الشخص الضال ما هو

إلا لص، تحايل عليه حتى سرق فرسه، ناداه متوسلا أن يقف ليسمع منه كلمة واحدة، جرى وراءه صارخا: قف ناشدتك الله والرحم، الفرس لك ولكن اسمع مني كلمة واحدة!، فتوقف اللص على مسافة تضمن له مأمنًا من أن يلحق به الرجل وقال له: قل ما تريد.. فقال له: بالله عليك لا تحدث الناس بما فعلت، حتى لا تضيع المروءة بين الناس.!

ولو أن هذا اللص في نفسه شيء من الكرامة والضمير، وبعد أن سمع هذه الكلمات كان الأجدر به أن يقتل نفسه أو ينزل من على الفرس ويفر هاربا من هول ما سمع من كلمات لم تكن متوقعة إلا من رجل يريد أن يُحي مظاهر المروءة والرجولة ويخاف عليها أن يتضيع من حياة الناس.

ميمون وزيتونة يتفوقان

الفيلم الهندي (زارا وفير) الذي انتج عام ٢٠٠٤م بطولة شاروخان وبيرتا زينتي، كان فيلما مؤثرًا ورغم أنه محوره رومانسيًا، إلا أنه يحمل بعض القيم المهمة في دنيا المروءة والشهامة، ويغصب عينيك في بعض مشاهده أن تزرف الدموع.

قصة الفيلم تقوم حول شاب قبضت عليه السلطات الباكستانية واتهمته بالتجسس لصالح الهند، وفي التحقيق رفض أن يدلي بأي شيء عن تفاصيل وجوده في باكستان، حفاظًا على شرف الفتاة التي أحبها أن يمسها أحدهم بسوء، أو أن تأتي سيرتها بما يفسد سمعتها أو تلوكها بعض الألسنة.

قبل الفتى العاشق أن يسجن ويحكم عليه بالسجن المؤبد وتهمة التجسس فداء لمعشوقته التي أحبها من كل قلبه.

والفيلم في أحداثه خاصة النهاية، مبهر ومخدوم بعنصر الدهشة والغربة التي تثير الوجدان والعاطفة، خاصة في موقفين متميزين وهما حينما اكتشفت المحامية، أن زارا مقيمة في بيت حبيبها وأنها رحلت إلى

الهند كي تكون بجوار الرجل الذي تجد معه سعادتها، والموقف الثاني حينما قدمت المحكمة الباكستانية اعتذارًا للرجل الذي حافظ على سمعة وشرف فتاة باكستانية.

الموقف كان شهمًا ومثاليا وإنسانيًا من الدرجة الأولى، ويعلم من يشاهد القصة، روعة هذا التسامي الذي لا يرقى إليه، ولا يجسده إلا شاب تجرع المروءة، وتربى على المثالية والأخلاق العالية.

لست من هواة الأفلام، ولست ممن يكتبون مروجين للسينما الهندية، لكنني استمعت إلى هذا الفيلم قدرًا مع أحد الأصدقاء.. وقد دعاني للحديث عنه واستدعاء أحداثه، ما قرأته مؤخرًا من موقف مشابه لا أعلم مدى صحته، ولم أقف له على مصدر معتمد، وحتى إن كانت القصة من قبيل الخيال، فهو الخيال الذي نبت في أرضنا وفي ظلال هويتنا ومن روح ثقافتنا، وهو لزاهد عارف كان أعمق في موقفه وتصرفه وأحداثه وأخلاقه ومثاليته وروعته ومروءته.

"يُرَوى أن المطر تأخر نزوله حتى أوشكت الأرض على الجفاف، فهب المسلمون ليصلوا صلاة الاستسقاء فى المسجد الحرام، و كان من بينهم عبد الله بن المبارك، وانصرف المسلمون من المسجد بعد الصلاة ولم يكن في السماء سحابة واحدة تبشر بنزول المطر، وتأخر عبد الله في المسجد، و بينما هو منصرف مع المنصرفين، لمح غلاماً أسودا يرتدى قطعتين من الخيش إئتزر بإحداهما، و وضع الأخرى على كتفه.

و يروى ابن المبارك لصاحبيه ما حدث قائلاً: فكأنما تعلقت به عيناى فلم أستطع أن أصرفهما عنه، فرأيته ينسل من بين صفوف الناس متجهاً نحو الكعبة، فتبعته دون أن أدرى لماذا تبعته، و أخذت أطوف مع الطائفين خلفه، و فجأة انتقل إلى أحد الأركان فانتبذ له مكاناً خفياً و أنا أرقبه دون أن يشعر بى، ثم أخذ يرفع يديه داعياً الله فسمعته يقول: إلهى.. ما كنت أدعوك لولا رقةً غلبتنى على عبادك هؤلاء الذين خرجوا يستسقونك بألسنتهم، و هم يحملون في قلوبهم ما من أجله منعت عنا غيث السماء ، اللهم إن اغترارهم بحلمك، و رجاءهم في رحمتك قد أنسياهم الخوف من غضبك و عذابك، اللهم فاجعل لهم

لا عليهم، يا واسع الرحمة، يا غنياً عن العالمين يا إلهى.. إني ما دعوتك يوماً لنفسي إلا استجبت لي فضلاً منك و كرمًا، وها أنذا أدعوك اليوم لعبادك هؤلاء من أمة نبيك و حبيبك محمد ﷺ ، فإن لم تستجب لي خشيت على نفسى من الاغترار بأنك اصطفيتني وحدى عبدًا لك من دونهم أجمعين، ... الهى ... يا حليما ذا أناة ، يا من لا يعرف عباده منه إلا الجميل، إن كنت تحبنى كما أحبك فاسقهم الساعة.. الساعة.

و لم يكد يردد الغلام كلمة "الساعة" حتى تجلت السماء عليه بالغمام، و هطل المطر غزيراً.

و لم يستطع عبد الله بن المبارك أن يملك دموعه آنذاك، فأخذ يبكي حتى استمع الغلام إلى بكائه و نحيبه، فالتفت وراءه فرآه، فلم يلبث أن انتفض مذعوراً كأن عقربا قد لدغه، و انطلق يعدو مسرعا حتى خرج من المسجد، و تبعه ابن المبارك من على بعد حتى عرف أنه غلام لتاجر كبير يدعى عبد المولى المدنى، و أن اسمه ميمون، فعرض عليه أن يشتريه، فأخبره التاجر أنه غلام صالح لا يصلى إلا في الكعبة، و لكنه ضعيف لا يصلح و لا يقدر على شيء، و لكنه فقط يتبرك به، فرد عليه ابن المبارك: لا بأس فأنا لا أريد منه خدمة و لا منفعة، و أضاف التاجر يصارحه: و هو على الرغم من صلاحه، إلا إنه عبد شهوانى فيم يتعلق بالنساء، و لا يؤتمن على الحرمات، فلما بدت الدهشة على ابن المبارك، قال له التاجر: إن شئت دعوت لك الجارية السوداء "زيتونة" التي دأب على مراودتها عن نفسها حتى شكته إلى.

لم يصدق ابن المبارك هذا الكلام على الغلام، و اعتقد أن فى الأمر شيئا، و صمم على شراء الغلام بعشرين دينارًا كما طلب صاحبه.

وفي الطريق سأله ميمون عندما رأى فرحته بشرائه: سيدى ما حملك على شرائي، و أنا ضعيف البدن كما ترى لا أطيق الخدمة، و قد كان لك سعةً في غيرى؟ فأجابه ابن المبارك: بل أنت أخي يا ميمون، وأنا لن أستخدمك، وسأشترى لك منزلا، وأزوجك و أخدمك أنا بنفسي.

فبكى ميمون قائلا: لا حول و لا قوة إلا بالله، و ظل يرددها قائلا: لم تفعل هذا إلا و قد عرفت سرى، فأخبرني بالله ماذا عرفت عنى؟ فرد ابن المبارك: عرفت إنك مجاب الدعاء. فسأله ميمون: هل سمعت دعائى أمس في المسجد الحرام؟ فرد ابن المبارك: نعم. فسأله ميمون: وإلى أين أنت ماض بي الآن ؟ فرد ابن المبارك: إلى بيت الفضيل بن عياض، و هناك موجود معه سفيان بن عيينة، فسأله ميمون: وهل أطلعتهما على سرى؟ فأجاب ابن المبارك: بل أخبرتهما بسر الله فيك. فرد ميمون: سامحك الله، و طلب منه أن يدخلا المسجد الحرام أولاً لكى يصلى ميمون ركعتين عليه من البارحة، و بعد أن انتهى ميمون طلب منه ابن المبارك أن يقوما إلى دار الفضيل لأنه ينتظرهما، فرد ميمون: يا سيدى ينتظرني هنا أمر أكبر من لقاء الفضيل، فهل لك أن تحتسب العشرين دينارا التي دفعتها ثمنًا لى؟ فسأله ابن المبارك: تعنى أنك تريد منى أن أعتقك؟ فرد ميمون: كلا يا سيدى، فسيمنعني الله عنك، فاندهش ابن المبارك و سأله ماذا تعنى؟ فرد ميمون الانصراف! فسأله ابن المبارك في استغراب: إلى أين ؟ رد ميمون: إلى الآخرة .. الساعة.

فقال له ابن المبارك: كلا.. كلا لا تفعل يا ميمون.. دعني أسر قليلاً بك .. و أستمد من نورك و أنال من بركاتك .

و رد عليه ميمون: لا مناص يا سيدى، فما عدت أحتمل الحياة.. إنما كانت تطيب لي حيث المعاملة سرٌ بينى و بين ربى سبحانه و تعالى، فأما إذا ما اطلعت عليها أنت و صاحباك، فسوف يطلع عليها غيركم، و لا حاجة لى فى ذلك.

و هنا طلب ابن المبارك منه أن يخبره عن الطريق الذى سلكه إلى الله لكى يصل إلى ما وصل إليه من كرامة، فقال ميمون: غادرت البصرة دون أن يعلم أبى أو أحد من أهلي و حللت مكة، فاتفقت مع رجل من أهلها فزعم إني عبده و باعني للتاجر الذى اشتريتني منه، و اندهش ابن المبارك وسأله: لماذا فعلت ذلك؟ فأجاب: لأقهر نفسى و أذيقها المذلة والهوان، و لكى لا أعبأ بالدنيا وأكون من الثلاثة

الذين يدخلون الجنة أول الناس كما جاء في الحديث الشريف و هم: الشهيد، وعبد مملوك لم تشغله الدنيا عن طاعة ربه، و فقير ذو عيال. و يكمل ميمون: و لما سمعت هذا الحديث و أنا فى البصرة، قلت: لأكونن أنا العبد المملوك الذى لم يشغله رق الدنيا عن طاعة ربه، و قد تحملت من سيدى فى البداية ألوانا من المتاعب و المشاق، و صنوفاً من المحن التي كابدتها صابرا محتسبا غير متبرم و لا متضجر لوجه الله تعالى، و لما سأله ابن المبارك عن مراودته للجارية السوداء، أجاب ميمون: كانت محنتي هذه هي مفتاح الصلة بينى وبين الله عز و جل، فقد ذلل لي بعدها كل صعب، وانكشف لي بعدها كل حجاب، فقد كنت أنا وميمونة وحدنا في حجرتها فى نصف الليل والجميع نيام، و راودتني عن نفسها، فقلت لها: إنني أخشى الحى الذى لا ينام، استرى نفسك يا زيتونة – و كان ذلك اسمها – و اعلمى أنى لن آتى الحرام ابدًا ولو قطعتني قطعا، فهددتني وأقسمت إن لم أستجب لها لتقولن لسيدها أنني قد راودتها عن نفسها فقلت لها: افعلى ما شئت ففعلت.

فاندهش ابن المبارك وسأله: و لكن لماذا اعترفت على نفسك ولم تكذب الجارية؟ فرد ميمون: أردت أن أصون سمعتها وعرضها عسى أن تهتدى في النهاية إلى طريق الله. فسأله ابن المبارك: أتصون سمعتها و تلوث سمعتك؟ فأجابه ميمون: أردت بذلك وجه الله تعالى الستار جل و علا، فكان ذلك مفتاح القرب منه والوصول اليه، و الآن .. دعني يا سيدى أمضى الى ما أنا ماض إليه، ثم قام فصلى ركعتين خفيفتين كأنها صلاة الوداع ، ثم اضطجع على الأرض جاعلا وجهه تجاه الكعبة و هو يقول: الهى .. إن كنت تحبني بعد كما أحبك، فأقبضني إليك الساعة.. الساعة.. الساعة.

يقول ابن المبارك: فدنوت منه وحركته، فإذا هو قد مات.. إنا لله و إنا إليه راجعون

و صدق رسول الله ﷺ إذ يقول: رب أشعث أغبر.. لو أقسم على الله لأبره . صدق رسول الله ﷺ"[1]

[1] - من مقال د. عبد الهادي مصباح في صحيفة المصري اليوم على جزئين بتاريخ 2007/11/4 و 2007/11/11

همومك تحملها وحدك

هل تعرف أتعس أنواع الرجال الذين تبتلى بهم المجتمعات ويشقى بهم الناس وتئن منهم الحياة؟

هم نوع وصنف من الناس يحب أن يَرمي حموله وهمومه على غيره، كل يوم في تعاسة، وكل يوم في هم وغم، وكل يوم في مشكلة، ويأتيك ويقول لك: احمل عنى وشاركني، وياويلك لو كنت أخاه أو قريبه أو صديقه، فإنه يرى أن واجبك الأول والمقدس، أن تحمل همومه وتعطيه ما في جيبك، حتى يصدق عليك فعلا أنك أخ أو قريب أو صديق.

وإن لم تفعل.. فأنت ندل وجبان وفاقد للرجولة ولا مروءة لديك، ويظل يشنع عليك ويسيء إليك كلما حلت سيرتك أو لم تحل، فإنه يبادر إلى تشويهك وكأنه يهدد بفضحك إن لم تحمل عنه ما رزئ به من الهم.

أعرف أسرة بليت بزوج لابنتهم، وكانت حياته عبارة عن –كوكتيل– من الأزمات والمشكلات، وكان يرى أن واجب هذه الأسرة أن يحملوا عنه كل شيء حتى تربية أولاده، ومصروف بيته، وإرسال –القفف– مليئة كل أسبوع بالزاد والزواد، فلما لم يجد ما أراد، شنع على أصهاره واتهمهم بفقد الإنسانية والرجولة وكل قبيح، حتى إذا مرض من أولاده أحد، طالبهم بعلاجه وتطبيبه لأنه ابن بنتهم.

والحق أن أمثال هذا النوع من الناس ليسوا رجالا، فالرجل الحقيقي هو الذي يتحمل مسؤولية نفسه ولا يصير عبئًا على أحد، ويوم أن تحاول أن ترمي جزعك على أحد، فاعلم أنك تخدش جدار الرجولة.

قال أبو هريرة ﷺ: دخلت السوق مع ﷺ فاشترى سراويل، وقال للوزان: "زن وأرجح " فوثب البائع إلى يده ﷺ يقبلها، فجذب يده وقال: "هذا ما تفعله الأعاجم بملوكها، ولست بملك، إنما أنا رجل منكم" ثم أخذ السراويل فذهبت لأحمله فقال: "صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله " [1]

إنها المسؤولية في أروع صورها، تحمل عبء نفسك وكن رجلا صلبا قويًا.

إن الرسول الكريم ﷺ يعلمك المسؤولية ويعلمك كيف تحمل هم نفسك وتتولى شؤونك بلا اعتماد على أحد، ودون أن ترهق من حولك حتى ولو كانوا يجلونك ويحبونك ويرفعونك فوق رؤوسهم.

وهو نفس المنطق الذي تعلمه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ حينما تفقد المرأة المسكينة وأطفالها الجياع، وأسرع إلى بيت الدقيق فأخرج عدلاً من دقيق، وكبة شحم، فقال لغلامه أسلم: احمله عليّ فقال أسلم أنا أحمله عنك. فرد فقال: أنت تحمل وزري يوم القيامة، لا أم لك.!

هكذا عمر يتولى شؤون نفسه ويحمل على عاتقه مسؤوليته التي لن يتحمل وزرها غيره يوم القيامة.

ولا نقصد بكلامنا أن نقف في وجه المروءة والنجدة والنصرة للضعيف والمحتاج والمظلوم، فنخلق مجتمعا أنانيًا لا يهتم الفرد فيه إلا بنفسه، لكننا نرمي إلى شيء آخر بعيدًا كل البعد عن هذا الظن، حينما نجسد بكلامنا توصيفًا دقيقة لنوعية من الناس فسدت رجولتهم حينما مرضت نفوسهم، وصاروا عبئا على من حولهم.

[1] - رواه أبو يعلى و الطبراني و الدارقطني

إن أمثالهم تعلموا أن مساعدة الناس واجبة، وأن الشراكة في حمل الهم مروءة ونجدة، لكنهم لم يتعلموا معها أن الرجولة الحقة، أن تتحمل مسؤولياتك ولا ترميها على كاهل الناس ليحملوها عنك.

قرأت منذ أيام أن الفنان عبد السلام النابلسي كان مريضًا، وحينما كان يخرج للعمل في التمثيل ويذهب للنوم أو يلح عليه الوجع، كان يذهب لحجرته ويعلي صوت الراديو حتى لا يسمع الأخرون آهاته.

كل الاحترام لهذه الأرواح التي كانت تحافظ على كرامتها وتحافظ قبلها على السلامة النفسية لمن حولها، فلا يحملهم ما يشعرهم بالأسى عليه.

ومن سيرة الأستاذ عبد الوهاب مطاوع ومن ملامح رجولته كذلك، ما عرف من عادته في إخفاء الهموم، التي لا يشرك معه فيها أحدًا حتى من أسرته وأقرب الناس إليه، يقول: "دخلت غرفة العمليات مرات عديدة، وفي كل مرة كنت وحدي تمامًا بلا أهل يقفون بالباب ويترقبون كلمة تطمئنهم على مصيري، وهذا لا يرجع ـ كما يقول في كتاب (ترانيم الحب والعذاب) إلي قلة الأهل والأصدقاء، ولا إلي شجاعتي كما قالت الطبيبة الأمريكية، بعد أن سألتني قبل بدء الجراحة عمن ينتظرني بالخارج؟

لا تفسير لدي سوى أنني أحب الانزواء بهمومي وحدي دون الآخرين، وهو يرجع إلى الطبع الذي يجعلني استكثر على نفسي أي عطاء يقدمه لي الآخرون، كانت طفولتي مليئة بالعطف والرعاية، ولكن منذ السادسة عشرة، واجهت الحياة وحيدًا بعيدًا عن أسرتي، ولا شك أن هذه الفترة التي طالت لأكثر من ثمانية عشر عامًا قبل الزواج، هي التي جعلتني أعتاد مواجهة الحياة وحدي، وأختفي بهمومي عن أقرب الناس إلي!"

إنها المسؤولية التي لا يتجشم حملها إلا الرجال، الذين يتحملون مصائبهم دون أن يزعجوا من حولهم، وتلك رفعة نفس ما أروعها.

قال الغزالي في الإحياء: "فالأحرى بالعبد إن لم يحسن الصبر على البلاء والقضاء وأفضى به الضعف إلى الشكوى أن تكون شكواه إلى الله تعالى فهو المبتلى والقادر على إزالة البلاء وذل العبد لمولاه عز والشكوى إلى غيره ذل وإظهار الذل للعبد مع كونه عبدا مثله ذل قبيح"[1]

وقال ابن الجوزي رحمه الله: "وَقَدْ كَانَ السَّلَفُ يَكْرَهُونَ الشَّكْوَى إِلَى الْخَلْقِ، وَالشَّكْوَى وَإِنْ كَانَ فِيهَا رَاحَةٌ إِلا أَنَّهَا تَدُلُّ عَلَى ضَعْفٍ وَذُلٍّ وَالصَّبْرُ عَنْهَا دَلِيلٌ عَلَى قُوَّةٍ وَعِزٍّ."[2]

قال سيدنا يعقوب:﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾[3]

وهذا أيوب – عليه السلام – يشكو حاله إلى ربه، فيقول: ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾[4] فسَمِع الله شكواه، واستجاب دعاه، وكشف بلواه: ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾[5]

وللسلف الصالح أدبياتهم التي تحث على هذا المعنى وتوصي به، وتجعل منه علامة للعارفين، قبل أن يكون من معاني الرجولة والمسؤولية الذاتية في نفس صاحبه.

يقول القائل:

لا تشكُ للناسِ جرحاً أنتَ صاحبهُ * لا يؤلمُ الجرحَ إلا منْ به ألمُ

[1] - إحياء علوم الدين
[2] - الثبات عند الممات لابن الجوزي
[3] - سورة يوسف: 86
[4] - الأنبياء: 83
[5] - الأنبياء: 84

يقول أحد الشعراء الحكماء:

وَإِذَا عَرَاكِ بليةٌ فاصبِرْ لَهَـا *** صَبْرَ الكريمِ فَإِنَّه بكَ أَعلــمُ

وَإِذَا شَكَوتَ إلى ابنِ آدمَ إِنَّمَا *** تَشْكُو الرَّحِيمَ إلى الذي لا يَرْحَمُ[1]

وقيل كذلك:

إِذَا أَرْهَقَتْكَ هُمُومُ الْحَيَـاةِ *** وَمَسَّكَ مِنْهَا عَظِيمُ الضَّـرَرْ

وَذُقْتَ الْأَمَرَّيْنِ حَتَّى بَكَيْـتَ *** وَضَجَّ فُؤادُكَ حَتَّى انْفَجَـرْ

وَسُدَّتْ بِوَجْهِكَ كُلُّ الدُّرُوبِ *** وَأَوْشَكْتَ تَسْقُطُ بَيْنَ الْحُفَرْ

فَيَمِّمْ إِلَى اللهِ فِي لَهْفَــةٍ *** وَبُثَّ الشَّكَاةَ لِرَبِّ الْبَشَـرْ

وهذا عمر ﷺ يقول: "ما في الشكوى إلى الخلق إلا أن تحزنَ صديقك، وتشمِّت عدوك"[2]

وقال الأحنف: "شكوتُ إلى عمي في بطني فنهرني، ثم قال: يا بن أخي لا تشكُ إلى أحدٍ ما نزل بك، فإنما الناس رجلان، صديق تسوءه بهذه الشكوى وتؤلمه، وعدو تسره"[3]

قد يَفْقِدُ المرءُ بينَ الناسِ عزَّتَـهُ *** إذا شَكَا أَمْرَه أو سبَّ مِحْنَتَهُ

فَكُنْ كَلَيْثِ الشَّرَى مَا بَاع هَيْبَتَهُ *** وَلَا تشكَّ إلى خلقٍ فَتَشْمتَـهَ

والشكوى لغير الله حمق وجهالة، قال ابن القيم: "الجاهل يشكو الله إلى الناس، وهذا غاية الجهل بالمشكو والمشكو إليه، فإنه لو عَرَف ربه لما شكاه، ولو عرف الناس لما شكا إليهم، ورأى بعض السلف رجلاً يشكو إلى رجل فاقتَه وضرورته، فقال: يا هذا، والله ما زدتَ على أن شكوتَ مَن يرحمك.

وفي ذلك قيل:

---

[1] - غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب؛ السفّاريني

[2] - محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء؛ الأصفهاني

[3] - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان؛ ابن خلكان

وَإِذَا شَكَوتَ إلى ابنِ آدمَ إِنَّمَا ** تَشْكُو الرَّحِيمَ إلى الذي لا يَرْحَمُ.[1]

قال ابن تيمية في العبودية:" وكل مَن علق قلبه بالمخلوقين أن ينصروه أو أن يرزقوه، أو أن يهدوه؛ خضع قلبه لهم، وصار فيه من العبودية لهم بقدر ذلك"

إن الوقوفَ على الأبوابِ حرمانُ ** والعجزُ أن يرجوَ الإنسانَ إنسانُ

متَى تؤمِّل مخلوقاً وتقصــدُه ** إن كان عندكَ بالرحمنِ إيمــانُ

ثِقْ بالذي هو يُعطِي ذَا ويَمنَعُ ذا ** في كلِّ يومٍ له في خلقِه شــانُ"[2]

ومع هذا كله، فلا مانع أن تبثَّ شكواك، وتبوح بحاجتك إلى أصحاب المروءات، وذلك في الأمور الدنيوية المقدور عليها.

ولا بُدَّ من شَكْوَى إلى ذي مُروءَة ** يُوَاسِيكَ أَوْ يُسْلِيكَ أو يَتَوَجَّع![3]

مع حسنِ توكلك، وقوة اعتمادك على خالقك ومولاك!

وأحيانًا قد لا يجد الإنسان حلاًّ إلى أن يبوحَ بشكواه إلى أهل الخبرة والاختصاص ويعبر عن هذا أحد الشعراء:

شكوتُ وما الشَّكْوَى لنفسيَ عادة ** ولكن تفيض النفسُ عند امتلائها.[4]

وقال آخر:

أُصَعِّدُ أَنْفَاسِي وَأَحْدُرُ عَبْرَتِي ** بِحَيثُ يَرَى ذَاكَ الْإِلَهُ وَيَسْمَعُ

إِلَى اللهِ أَشْكُو لَا إِلَى النَّاسِ إِنَّمَا *** مَكَانُ الشَّكَايَا لَا يَضُرُّ وَيَنْفَعُ

كما أن الله تعالى يحب أن يسمع عبده يشكو إليه، ويَمقُت منه أن يشكوه إلى خلقه، قال ابن القيم: "بل أراد منه أن يستكين له، ويتضرع إليه، وهو – تعالى – يَمقُت مَن يشكوه إلى خلقه، ويحب مَن

[1] - الفوائد لابن القيم
[2] - الآداب الشرعية والمنح المرعية، ابن مفلح
[3] - نظم العقيان في أعيان الأعيان، السيوطي
[4] - الجليس الصالح الكافي والأنيس الناصح الشافي، أبو الفرج النهروانـ

يشكو ما به إليه، وقيل لبعضهم: كيف تشتكي إليه ما ليس يخفى عليه، فقال: ربِّي يرضى ذل العبد إليه"[1]

لَبِستُ ثوبَ الرجا والنَّاسُ قد رَقَدُوا ** وَبِتُّ أَشكُو إلى مَوْلايَ مَا أَجِدُ

وَقُلْتُ: يَا أَمَلِي فِي كلِّ نائبةٍ ** ومَن عليه لكشفِ الضرِّ أَعتَمِدُ

أَشكُو إليكَ أمورًا أنتَ تَعلَمُها ** مَا لِي عَلَى حملِها صبرٌ ولا جَلَدُ

وَقَدْ مَدَدْتُ يَدِي بالذلِّ مبتهلاً ** إليكَ يَا خيرَ مَن مُدَّت إليه يدُ

فَلا تردَّنَّها يا ربُّ خائبةً ** فبحرُ جُودِكَ يَروِي كلَّ مَن يَرِدُ[2]

فهل يتعلم أولئك الذين ينوحون ليل نهار ببلواهم على الناس، فيرهقون أنفسهم بزي الضعف والاحتياج، ويرهقون من حولهم بمشكلاتهم وأناتهم، فيملهم الناس ويفترون من وجودهم؟!

فنان الرجولة

"عبده الحامولي" كلنا نعرف هذا الاسم الكبير لمطرب ومجدد في الموسيقى العربية، وأبرز الأسماء في عالم الطرب في القرن التاسع عشر، وأمتد أثره إلى مطربي القرن العشرين، والذي كانت حياته عبارة عن رحلة مثيرة، تقلبت به فيها الأطوار من حال إلى حال، بين الشدة والضيق، إلى السعة والشهرة والمكانة.

وبعيدا عن هذا كله نلفت إلى خلة عظيمة في نفس هذا الفنان، الذي كان يتفجر مروءة ونجدة وسموا وشهامة، فكان رجلا فريدًا تحدثت الأجيال بمواقفه، ونقلت لنا فرائده.

ذكر شيخنا الراحل دكتور (محمد رجب البيومي) طرفًا مما تردد وقيل في أخبار هذا الفنان الشهم الأبي في كتابه (قطرات المداد) مواقف كلها قمة في الرجولة والشهامة، وما أجدرنا هنا أن نتعرف عليها ونتأمل أحداثها، إذ يذكر:

[1] - عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين؛ ابن القيم

[2] - موارد الظمآن؛ عبد العزيز السلمان

أن هذا الفنان الأريحي الشهم غنى في حضرة الخديوي إسماعيل ذات ليلة، فبلغ الطرب بالخديوي منتهاه ورجاه أن يسأله ما يشتهي، وقد توقع اسماعيل أن يطلب مبلغاً من المال يربو عما يستحوذ عليه كل حين! ولكن الحامولى نظر إلى الخديوي نظرة عميقة، وسأله اتمنحنى يا مولاي ما أريد، فبادر إسماعيل بالموافقة في تلهف، فقال الحامولى: كل ما أريده أن تنقذ "نشأت باشا" مدير القليوبية السابق من محنته وتعيده إلى مكانته؟ ولم يكن الخديوي الناقم على المدير، يتوقع مطلبًا كهذا، فصاح في غضب: ولكني أمقته وسأرديه. فرد الحامولي في إباء: لن أطلب غير ذلك. فالرجل حين رجاني كان يعلم أني أهل للرجاء، ولن يغنى عن إنقاذه ما آخذ من الذهب وإن كان كالجبال.. فسكت الخديوي برهة ثم نزل على إرادة مطربه، فأعاد نشأت إلى مكانته بعد أن كان من الموت على أمتار.

هذه الصلة الوثيقة بين الفنان وولى الأمر، لم تكن لتحول دون الاصطدام، في مأزق خطير تجلت به همة الحامولى ورجولته، وكشف عن معدن نادر لا يكاد يوجد بين الناس إلا في القليل، فقد تزوج الحامولي بالمطربة الشهيرة (ألمظ)، وأعلن في الناس أن زوجته منذ اقترنت به، لن تغنى أمام أحد من الناس جل أو هان، وكان إسماعيل ممن يعشقون غناءها، ويقدرون موهبتها البارعة في الترجيع والتطريب، فأشار باستحضارها على عجل في أحد مجالس طربه، وأرسل قوة بوليسية لاستدعائها على الفور، مهما قاومت الصعاب، وقد أفهمه جلساؤه في لباقة، أن الحامولى قد حرم عليها الغناء تحريماً لا سبيل إلى تحليله، فاستهان الخديوي بمشيئة الزوج وأرسل حملته المزعجة لاختطاف الزوجة، وفوجئ الرجل الشهم بالموقف الصعب، فتصدى للقوة وحده، وحال دون أمنيتها مستخفاً بالتهديد والوعيد، فلما تأزم الموقف أوصد باب المنزل ثم رمى بنفسه من شباك خلفي، واتصل سريعاً بإسماعيل باشا صديق وزير المالية، وأفهمه أن ذهاب ألمظ إلى القصر، لا يعنى غير انتحاره دون انتظار، وكأن الوزير قد أشفق على صاحبه، فركب عربته إلى الخديوي، وأخذ يصور له نفسية الحامولي وتشدده حتى مال به إلى التسامح. فأمر بإحضار القوة البوليسية ورفع الحصار عن المنزل، ولكن أثر الحادث قد ترك عقابيله في أعصاب الفنان الكبير، فأسلمه إلى الأرق وهدده بالإعياء، وقد كان في شجاعته هذه مثلاً يروى في استهوال، إذ كان الخديوي إذ

ذاك، حاكماً بأمره لا يقف أمامه وزير أو كبير، وكانت أحكام المصادرة والنفى والسجن والقتل، تصدر عنه في تجبر لا يعبأ بحق أو يتقيد بدستور.!

أما مروءته السمحة فقد اشتهرت بين العامة اشتهارا جعلها موضع العجب والإعجاب، إذ أنه كان يبدد جميع ما يحصل عليه من الهبات تفريجاً لغمة محتاج، أو استجابة لصيحة لهيف، وإذا كان الرجل قد كسب الثروة الهائلة من حفلاته المتتالية، فإنه لم يبق منها على كثرتها شيئاً في يده، وقد ودع الحياة وليس بمنزله من المال ما يفي بنفقة الجنازة ومحفل التشييع! وأصحابه يذكرون أن بعض السائلين قد اعترض طريقه ذات يوم وليس في جيبه ما يفي بمعونته من العطاء، فخلع خاتمه الذهبي ومنحه إياه، وكانت تقدر قيمته بألف جنيه، ولكن همامته النبيلة، لم تشأ أن يرجع السائل مجروح النفس، فدفع إليه الخاتم عن مسرة وارتياح! وللجود مذاق هنيء لا يستمتع به غير نفر من طراز هذا الإنسان، ولن يستكثر أحد ذلك عليه أو يميل به إلى المبالغة والتهويل، فالحامولى يكسب مقداره في مجلس واحد فلا عليه أن يجود.

وحادثته مع سليم سركيس كانت من القصص الشهيرة، فقد كان الفنان الكبير صديقاً للصحافي الشهير، يصاحبه كثيراً في مغداه ومراحه، وربما كان يحمله على إحياء كثير من حفلات الأعراس حسبة لوجه الإخاء، وللحامولي في هذا المجال فتوة نادرة يتحدث بها عارفوه، حتى أنه صمم في بعض السنوات أن يغنى مجاناً في جميع الحفلات، ليرتفع بالفن المبتذل إذ ذاك عن مستوى الكسب والإتجار، ولذلك خاض ميدان التجارة برأس مال قدره عشرون ألفاً من الجنيهات، ولكن الفنان المثالي لا يمكن أن يجلى في ميادين الخديعة والاحتيال، فما تصرم العام حتى خسر ماله جميعه، واضطر إلى الارتزاق من موهبته اضطرارا أحس له مضاضة محرقة وألما كاويا، وقد اتفق بعض الوزراء ذات ليلة مع الحامولي أن يحيي زفاف نجله بألوف الجنيهات الذهبية، ومهد لذلك فاستأذن القصر الخديو وأقام سرادقاً كبيراً المشاهدين، وتحدثت القاهرة بما سيتاح لها هذه الليلة من إبداع الحامولى وتحليقه، وما أزف الموعد حتى تقاطر الناس من كل فج يتقدمهم علية القوم من الأمراء والوزراء وأرباب المناصب والوجاهات، فاحتلوا الصفوف الأولى وتركوا ما خلفها للجمهور المحتشد يموج بعضه في بعض، وحضر الحامولي يتقدم فرقته وإلى جواره صديقه

الأستاذ سليم سركيس، فامتعض أحد الوزراء لمرأى الصحافي، إذ كان قد نقده في صحيفته نقداً عده غير لائق بمستواه كما يزعم، فأسر إلى زميله صاحب العرس أن يبادر بطرد سركيس وإلا اضطر الوزير إلى الانسحاب، وقد ظن الرجل المسألة هينة، فتقدم إلى سركيس يأمره بمغادرة المكان، وشاهد الحامولي حرج صديقه، فرمى من جيبه بالجنيهات التي أخذها مقدمة لأتعاب السهرة، وأمر فرقته بالتأهب للانقضاض، فارتج المكان ارتجاجاً رهيباً، وحدث من الهرج والصياح ما جعل صاحب العرس يضرع إلى الحامولي أن يبقى في مكانه على أن ينتظر معه سركيس، فرفع الحامولي رأسه وقال فى اعتداد: وعلى أن يذهب سركيس فيطرد الوزير الشاذ من الاحتفال، وطارت الأنباء إلى المتغطرس الشموخ، فانسحب متضائلاً قبل أن يواجه بالإبعاد، وكان ما أتاه الفنان درساً قاسياً صفع وجوه المستوزرين من أبناء الذوات.!

هذا الموقف الكبير يصور الحامولى فى اعتزازه وكبريائه أبهر تصوير وأحلاه، كما يبرز تقديره الحى للوفاء وحرصه النبيل على كرامة الأصدقاء، وهو من هذه الناحية لم يدخر وسعاً في الترويح عنهم، والتفنن في إسعادهم بما يريدون، فإذا وفق في ذلك إلى بعض ما يريد، كان سروره بالمحل الأرفع، كان الأستاذ خليل مطران يعاني هماً شاغلاً لنكبة حلت به، فزاره الحامولى في الظهيرة، ولمح ما يعتلج وراء ابتسامة من وجد، فاقترح عليه أن يذهبا معاً إلى حديقة الأزبكية ويغنيه وحده هناك! فوافق الشاعر ومضيا حتى إذا جلس في ظلال بعض الغصون رفع الحامولى عقيرته يغنى بقول القائل:

ودواهي العيون شر الدواهي ** أيقظتنا للحب وهي سواهي

واستعانت على القوى بهواها ** فاستعنا على الهوى بالله

قال مطران وكان الهجير مشتعلاً والبستاني يرش الماء، فخيل إلى لفرط التأثير من خلابة الصوت وعذوبة موسيقاه، أن الحر زفرات عشاق، وأن الماء دموع تتساقط، وطربت طرباً عظيماً، فلما شاهد الحامولى طربى وخلوصى بعض الوقت من الضيق، كان ذلك أشهى لنفسه من أعظم أجر يتقاضاه .

ونشير هنا إلى طرفة بديعة ذكرها الأستاذ أحمد محفوظ في كتابه (خفايا القاهرة) عن الحامولي، وهي في رأينا تنطق بفكاهة الفنان وخفة روحه قبل أن تنطق بأريحيته ومروءته وشهامته، وترسم حبه للشعب وحدبه على الضعاف حدياً يشيع في أحناء نفسه ويتغلغل في طواياه.

قال الأستاذ محفوظ عن بعض معاصرية: كان الحامولى يعبر زقاقاً ضيقاً في مدينة الإسكندرية فألفى امرأتين تختصمان لأن إحداهما قد آذت الأخرى برش الماء في الزقاق، لأنها اعتزمت أن تقيم حفلاً فقيراً لابنها في مساء الغد، فهي تسكن التراب بالماء لتمهيد الأرض، ولكن الأخرى لم يرضها هذا فصاحت فيها: يا شيخه هوستينا هو يعنى أنتي حاتجيبي عبده، فتقول الأولى: ما يبعدش على الله، ويسمع الرجل الكريم هذا الحوار فتدفعه الأريحية إلى القدوم نحو المرأة الفقيرة الراجية، ويدفع لها ثلاثين جنيهاً ذهباً لتعد العدة، لأنه سيحضر إليها عبده، فتجن المرأة فرحاً وتصدق الرجل وتقيم السرادق الفسيح.

ويجتمع عبده الحامولى بأصدقائه، ويعلن أنه سيغني في المساء في (باب سدرة)، وتعلم الإسكندرية كلها هذا النبأ، ويهرع الناس غنيهم وفقيرهم إلى هذا الحى الفقير، وبر عبده بوعده للأم، وتشهد الإسكندرية ليلة لم تشهد مثلها في حياتها الطويلة.

وبعد.. أفتكون هذه المكرمات النادرة في حاجة إلى تعليق؟

تصوير الألم

عانت الكاتبة الأديبة (هالة القحطاني) من المروءة المعدومة في هذا الزمان وهي تقص حادثة مرت بها فتقول: " منذ أربع سنوات، وفي ساعة الذروة من الصباح الباكر، وقت خروج الموظفين، والطلاب إلى أعمالهم، ومدارسهم، توقفت سيارة بشكل فجائي على الطريق السريع الحيوي، لتصطدم تباعاً تسع سيارات، الواحدة تلو الأخرى، في ارتطام دوَّى صوته مثل طلقات، ليتوقف بعدها السير على الطريق بأكمله، سادت لحظة جمود، وصمت، ثم تعالت أصوات الأطفال في عدد من السيارات، كنت من ضمنهم في السيارة السادسة مع ولدي، حين استوعب الجميع

الأمر، خرج من كل سيارة سائقها ليطمئن على مَنْ خلفه ومَنْ أمامه، ذُعر ابني، وأخذ يبكي من هول الصدمة مثل أي طفل، ومثل أي أم أيضاً تمالكت نفسي، وأخذت أتفحصه، وأُطمئنه حتى شتَّت هدوئي عدد من الضباع، التفوا حول السيارة، يتنقل الواحد منهم تلو الآخر من النوافذ، كمَنْ يبحث عن فريسة ليلتقطها.

لم أشعر بألم الصدمة على قدر ما شعرت بألم مخيف من نوع آخر، وكأن السيارة سقطت من على جبل في وادٍ سحيق، وتُركت للذئاب حين ظهر عدد من الجوالات توثق الحادث، وكأنه حدث نادر يستحق التصوير، أدخل عدد منهم برأسه من النافذة (يحوقل)، ويلتقط صورة (على السريع) قبل أن ينتقل إلى السيارة التي أمامي، ويفعل مثلما فعل، وهكذا دواليك، وعدد آخر ينقل الحدث بالفيديو، صوت وصورة، لتهون بكل سهولة مصائب هؤلاء الناس في أنفسهم، مع أن الوضع برمته كان مأساوياً للغاية، ولا يهون حتى على الشياطين!

تحوَّل الأمر مع الوقت إلى كارثة أخلاقية، يمارس فيها الشخص التصوير بكل وقاحة، ليحصل على السبق في نشر أعراض الناس، ومعاناتهم، ودمائهم للملأ، دون حياء، أو مروءة! ومع ذلك حين تسألهم الآن، فإنك تجد مَنْ يتشنج ليبرر تصرفه بأنه يصور من أجل أن يكشف قصور وتأخر الجهات المسؤولة، سواء كان الإسعاف أو الدفاع المدني، دون أن يعترف بأنه أحد أسباب إعاقتهم عن الوصول.. كنت وما زلت، ضد تصوير لحظات الألم والموت، حتى لو كانت لقطات خاطفة في نشرات الأخبار، لأن الألم ليس من الذكريات الجميلة!) [1]

[1] - من مقال شوية دم – للكاتبة هالة القحطاني بجريدة الشرق السعودية

ويحضرني في هذا قول أحد الصحفيين الكبار، والذي يوافق فيه قول أمير الصحافة محمد التابعي: "إنني أفضل أن أكون إنسانا ملتزما بالقيم والمبادئ والمثل العليا والأمانة الصحفية، على أن أكون أشهر صحفي في العالم، لا يكون ملتزما بالقيم والمبادئ والمثل العليا والأمانة الصحفية "

أيها الصحفي المخدوع ببريق الشهرة وانبهار المجتمع بما كتبت وقصصت.. ربما لا تلتفت لكلام التابعي ودروسه، وتعتبرها هلوسة لا يقبلها الزمن ولا الأيام، ربما تنحيها خلفك لأنها تعيق مستقبلك الذي لا تراه يقوم إلا على الفضائح والتجريس والتجريح والتعريض، ربما تفعل ذلك، لكنني على يقين كبير أنك يوما ما ستندم أشد الندم، حينما يحيا ضميرك الميت بقدرة الله، أو يستيقظ من ثباته العميق، لتعض أناملك وتمزق نفسك حزنا واستقباحا على ما فعلت وما كتبت، تماما كندم الأستاذ "موسى صبري" وهو يحكي لنا عن ألمه النفسي الذي مزقه حينما نسي إنسانيته لحظة أمام سبق صحفي، يحقق له النجاح والتفوق، يقول في مذكراته: لعلني تألمت من عمل صحفي جلب لي التهنئة، عندما طاردت سيدة بريطانية قدمت من انجلترا، خلال مرحلة العمل الفدائي في منطقة القنال، وقد ارتكب ولدها الجندي في القوات البريطانية جريمة استحق عليها الحكم بالإعدام، لست أذكر الآن نوع هذه الجريمة، ولكن كل ما أذكره أنني طاردت هذه السيدة في أحد فنادق مصر الجديدة ومعي مصور (آخر لحظة) لكي نصورها وأحصل منها على حديث، وكانت هي في قمة آلامها لا تريد أن تواجه الصحافة، لقد جاءت للقاء أخير مع ولدها، قبل أن ينفذ عليه الحكم رميا بالرصاص، وحاولت السيدة التهرب من الصحافة وسط إجراءات أمن مشددة، لكنني تحايلت على الاختفاء في ركن مستتر من سلم الفندق، ولما اقتربت مني وكان الوقت ليلا، ظهرت أمامها فجأة ومعي المصور، وأطلقت صرخة فزع وصرخت: ابتعدوا عني؟ احترموا قلب الأم، ولكنني وفي نشوة الانفراد بالصورة الصحفية، لم أبتعد ولم أحترم قلب الأم،

والتقطت الصور ثم هربنا من مطاردة الأمن وعدت إلى أخبار اليوم سعيدًا بهذا النجاح، وتلقيت التهنئة عندما انفردت آخر لحظة بصورة هذه الأم وهي صارخة فزعة، ولكنني في لحظة صفاء بعد ذلك أصابني ألم عظيم، وماذا لو لم ننفرد بهذه الصورة التي عجزت عنها وكالات الأنباء العالمية؟ ماذا لولم تنشر أصلا؟ إن الثمن هو ضربة إلى قلب أم جاءت من آخر الدنيا لتقول للابن: وداعا.. بل لعلها تصورت أننا وحوش."[1]

لحظات كثيرة في حياتنا نغفل فيها عن ضمائرنا، ونعطي الإحساس بقلوبنا إجازة من موازين تصرفاتنا وأفعالنا، تسيطر علينا شهوتنا من الأنانية والأثرة والرغبة في النجاح والسيطرة وحب الظهور وجمع المال، ولكي نلبي هذه الرغبات نفعل أو نرتكب حماقات نندم عليها بعد فوات الأوان، وهو الوقت الذي يستيقظ فيه الضمير الذي أغراه العمر ورحيق الشباب؛ عن حقيقة الحياة وماهية الدنيا.

نعرج ثانية على ما كتب الصحفي الشهير موسى صبري مذكراته، التي حكى فيها مشوار كفاحه ونجاحه الصحفي، منذ أن كان يطرق أبواب الصحف يستجدي العمل من أصحابها، إلى أن صار أبرع وأشهر صحفي عرفته مصر، وفي نهاية المذكرات كان لابد له من وقفة مصارحة ومكاشفة معه نفسه بعد هذا المشوار الطويل، فكتب في نهاية المذكرات هذا التساؤل الذي قال فيه:

"هل أنا الملاك الذي هبط إلى بلاط صاحبة الجلالة متجرداً من كل الأخطاء والخطايا، مقدما دائما في سلوكه وسطوره كل ما هو جميل وظاهر ونقي؟! ألم تطارد صدري حراب الندم على تصرف

[1] - خمسون عاما في بلاط صاحبة الجلالة- موسى صبري

خاطئ، أو كلمة ظالمة، أو اقتناع أناني، أو تسخير للكلمة في غير هواها الشريف الشفيف؟ إنني أحاول أن أجلس على كرسي الاعتراف، لكي أمارس المواجهة الصعبة.. حساب النفس"

وهذا دوماً حال الإنسان بعد مسيرة العمر الطويل الحافلة بالأعمال والأحداث والمواقف، حيث يبدأ في الاسترخاء والخمول والهدوء، ويستعيد أمامه شريط الذكريات في خياله مرة أخرى بعد مرور السنين وربما العهود، ومع هذا السكون والخمول الجسدي، تبدأ ومضات الضمير والإحساس والألم النفسي، تنبعث شيئاً فشيئاً وتتوهج وتشتعل، كلما رمتها الذاكرة بموقف قاس لم يكن فيه صاحبه على المستوى اللائق بكلمة إنسان وبكلمة رجل، وكل ما كان يحدث في الحياة وتنتشي له النفس من ظلم وكبر وغطرسة وأنانية وبطش وإيذاء، سيتحول كله إلى جمرات أليمة، تقذف الضمير وتفتك بالقلب وتحرق صاحبها ليل نهار.!

انظر هنا فهذا أمير الصحافة الأستاذ محمد التابعي، الذي لم يفته أن يضع الموازين الإنسانية لمن يعملون بهذه المهنة .!

لم يفته أن يعلم من بعده أن الإنسانية فوق كل شيء وقبل كل شيء، لقد اشتغل بالصحافة عقودا طويلة، وعرف فيها عشرات الزعماء والسياسيين، وكان بعضهم يفضي إليه بأسرار كثيرة أو يكشف أمامه خفايا ضعفه، فلم يكن يستغل هذا ليروي عنهم ما عرفه واكتشفه وأظهروه له، لأنه كان يعتبر ذلك خيانة للأمانة، ولم ينس أبدا أنه إنسان أمام السبق الصحفي أو النجاح الإعلامي.. يقول التابعي: لقد قابلت ملك الأفغان أمان الله مرتين في سويسرا وزيوريخ، وكان كسير الخاطر محطم الآمال، ويمشي تحت وابل من المطر لكسر الوقت حسب تعبيره، كتبت عنه مرتين ورويت الحديث الذي دار بيننا، إلا جزءا خاصًا بزوجته السابقة الملكة ثريا، وهذا أبقيته حتى اليوم في صدري وكتمته ولم أنشره، لأنني لم أستطع أن أنسى قبل أن أكون صحفيا أنني إنسان، والملك

فاروق، لا أستطيع أن أكتب وأروي عنه لأنني إنسان، لقد قاومته وحاربت طغيانه، قدر ما استطعت وهو ملك وحاكم بأمره، وكتبت عنه بعد خلعه وطرده، كتبت ولم أرحمه وأسهبت في سرد قصص مخازيه وفضائحه، ومع ذلك فإنني لم أنس في كل ما كتبت أنني إنسان، فلم أذكر مثلا لماذا بكى يومئذ في دار بالإسكندرية عام 37؟ لم أكتب وأذكر التفاصيل لأنه بكى ساعتئذ كإنسان لا كملك.

هكذا شرح التابعي وعلم سالكي المهنة ولفتهم لأهم دروسها وواجباتها، أن لا ينسى أحدهم يوما أنه إنسان وأنه رجل، وشرف الرجولة لا يمكن أن يتخلى عنه أبدا مهما كان الإغراء والهوى يدفعه للعمل، لينسى هذه الرجولة وينحيها جانبا.

الخوف ليس عيبًا

الخوف أحيانا لا يخرم المروءة ولا ينفي الرجولة، و كثيرًا ما أتأمل هؤلاء السطحيين الذين يتهمون الدعاة والمصلحين والمفكرين بالخوف والجبن، حينما يفرون من الظالمين الطغاة، ويهاجرون إلى بلد آخر يأمنون فيه على أرواحهم وأنفسهم ودينهم من الفتن والعذاب.!

إن السيرة النبوية تخبرنا أن المسلمين فروا إلى الحبشة نجاة بأنفسهم من بطش الكافرين، ثم فروا كذلك من عنتهم إلى المدينة المنورة، حفاظا على أرواحهم ودينهم، وحتى يؤسسوا دولتهم الوليدة.. فهل يُعد هؤلاء في نظر السطحيين جبناء أو مجردين من الشجاعة، أو دخلوا الجحور، ولا ينضمون إلى قوافل الرجال؟! هل حينما يأمن الإنسان على نفسه ويحافظ عليها، ويوفر طاقته لملحمة قادمة يُعدها له القدر مع عدوه، يكون خائفًا جبانًا؟

لقد جاء الخوف في القرآن في نحو (124) موضعًا، وموسى عليه السلام لم يجد حرجًا أن يصرح عما في نفسه من الخوف لربه سبحانه وتعالى، حينما قال وأخاه: (قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ[1])

والله سبحانه وتعالى حينما رد على نبيه موسى لم يستنكر فيه وأخيه صفة الخوف، لأن الله تعالى يعلم أنها شيء طبيعي كائن في نفس الإنسان، ومن هنا رد تعالى عليهما بقوله: (لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى)[2]

وهذا الكاتب الذي يوجد في مجتمع لا تعجبه كثير من إجراءات حاكميه وأساليبهم وسياساتهم وقراراتهم، ثم يحجم عن نقدها والتنديد بها خشية البطش والتنكيل وحفاظًا على قلمه، أيكون وقتها إنسانًا جبانًا، أم أنه يؤثر السلامة حتى لا تضيع حياته؟

إن بعض القاصرة عقولهم رأيته يومًا ينعت العقاد العملاق بالإنسان الجبان.! لأنه فر إلى السودان خشية أن ينتصر الألمان بعد أن هاجم النازية ووضعته في قوائم المطلوبين للعقاب عام (1943م)، ومكث في السودان بضعة أسابيع قبل أن يعود إلى مصر.

وهناك من يفرق بين الجبن والخوف، وهناك من يجعل الجبن هو الخوف الدائم من كل شيء، أو الهروب من مواجهة أمر مهم ومحتم في الحياة، ومنهم من جعله أكبر مراتب الخوف.. وليس معنى قولنا هذا أننا ندافع عن الخوف الذي يتزيا به الإنسان وهو يشاهد كرامته تهدر وتضيع أمام عينيه، أو ينتهك عرضه وهو مستسلم عاجز، وإنما نزكي هذا الخوف الذي يحفظ للمرء حياته أمام ظالم أو طاغية، لا يراعي حرمة للدماء والنفس الإنسانية، مادام في الأمر فسحة للانتظار والصبر والعمل والأمل في الفرج القريب.

هناك مواقف كثيرة لا ينفع معها وأمامها الجبن، وربما تخاف كثيرًا أمام مواقف لا ينفع أن تفر منها كالخوف من الموت، فمهما خفت منه فأنت ذائقهُ، وللخوف صور مختلفة، فأحيانًا يكون الخوف ضعف إيمان، وأحيانًا يكون خوفًا على النفس، وهناك خوف على الغير، وهناك خوف على

[1] - طه :45

[2] - سورة طه: 64

الدعوة، وهناك خوف على المبادئ.. المهم أنه موجود، لكن ليس في كل الحالات نعذره ونزكيه ونلتمس له المبررات، وفي نفس الوقت نقرر بأنه صفة إنسانية أصيلة، وللجاهلين أن يعذروا من يفر بنفسه من مواقف حرجة، لو أنهم وُضعوا فيها لذابوا في أماكنهم وابتلعتهم الأرض من تحتهم.

لقد أعلن الإمام الطبري مخالفته للمعتزلة ورد على القدرية والروافض وتبرأ ممن سب الصحابة، وكتب في فضائل أبي بكر وعمر رضي الله عنهما عندما سمع انتشار سبهما في طبرستان، وكان سلطان البلدة يؤيد هذا السب، ويكره ما كتبه الطبري حتى أرسل في طلبه لحبسه، فخرج الطبري فارا من البلدة، وكان الطبري يعرف بالشجاعة ولا تأخذه في الله لومة لائم، ولا يبالي ماذا يلاقي في سبيل قول الحق وإظهاره، ومع هذا لا يمنع أن يتحرى المرء النجاة لنفسه!

وهو نفس ما فعله سيعد بن جبير رحمه الله حينما فر من الحجاج بن يوسف الثقفي.!

وقد كان سعيد علما من أعلام السلف، وإماما من كبار أئمة المسلمين، وأحد ورثة عِلْمِ الصحابة عمومًا، وحبرهم ابن عباس خصوصًا، كان كلمة إجماع في عصره، ولم يؤثر عن أحد من أهل العلم، أو رواة الحديث، أنه قد جرحه بأدنى كلمة، فهو مجمع على توثيقه بين الناس، هذه طائفة من ثناء الناس عليه:

• كان ابن عباس رضي الله عنهما إذا أتاه أهل الكوفة يستفتون يقول: أليس فيكم ابن أم الدهماء؟! يقصد سعيد بن جبير

• وجاء رجل إلى ابن عمر رضي الله عنهما ليسأله عن فريضة فقال له: ائت سعيد بن جبير، فإنه أعلم بالحساب مني، وهو يفرض منها ما أفرض.

• قال إبراهيم النخعي: ما خلَّف سعيد بن جبير بعده مثله.

• قال أشعث بن إسحاق: سعيد بن جبير جهبذ العلماء.

• قال أبو قاسم اللالكائي: هو ثقة، إمام حجة على المسلمين.

• قال على المديني: ليس في أصحاب ابن عباس مثل سعيد بن جبير، قيل: ولا طاوس؟ قال: ولا طاوس، ولا أحد.

• قال ميمون بن مهران: لقد مات سعيد بن جبير وما ظهر على الأرض أحد إلا وهو محتاج إلى علمه.

• قال خصيف: كان أعلمهم بالقرآن مجاهد، وأعلمهم بالحج عطاء، وأعلمهم بالحلال والحرام طاوس، وأعلمهم بالطلاق سعيد بن المسيب، وأجمعهم لهذه العلوم سعيد بن جبير.

لقد كان سعيد من أنصار ابن الاشعث الذي خرج على الحجاج، فلما ظفر الحجاج فتن الناس في دينهم فاضطر الكثيرون للفرار من العراق، ومنهم سعيد بن جبير، وطلب بن حبيب، ومجاهد بن جبر، وعطاء بن أبي رباح وعمرو بن دينار، وهم وجوه الناس وعلماؤهم، وانتقل سعيد بن جبير إلى أصبهان، وعاش هناك في الخفاء، وكان حريصًا على ألا يعرفه أحد، وذلك سنة 83هـ، ومع ذلك لم يترك الحج والعمرة كل سنة؛ فعلم الحجاج بوجوده بأصبهان؛ فأرسل في طلبه، فهرب منها ودخل العراق مستخفيًا، وأخذ في التنقل من مكان لآخر، والحجاج يشتد في طلبه، وذلك طيلة اثنى عشر سنة كاملة، وفي النهاية استقر في مكة ليسهل عليه الحج والعمرة، واستقر معه باقي إخوانه العلماء، وكان والي مكة خالد القسري، يغض الطرف عنهم، حتى قام الخليفة الوليد بن عبد الملك بعزل عمر بن عبد العزيز عن ولاية المدينة، وعين مكانه عثمان بن حيان الذي أخذ في القبض على أصحاب ابن الأشعث في المدينة، وإرسالهم للحجاج بالعراق ليقتلهم؛ فاضطر عندها خالد القسري لتقليد نظيره، فقبض على سعيد بن جبير وأصحابه، وقد عُرض على سعيد الهرب من مكة فقال: والله لقد استحيت من الله من كثرة الفرار، ولا مفر من قدر الله.!

فهل مثل هذا العالم العظيم يمكن أن ينعت بالجبن والخور، أم أنه الحفاظ على النفس والخوف عليها من الفتنة؟!

ونبي الله الكريم موسى عليه السلام حينما فر من فرعون وملئه، أليس ذلك حفاظا على نفسه وتأمينا لحياته من بطش فرعون؟

قال تعالى:﴿فَفَرَرتُ مِنكُم لَمَّا خِفتُكُم فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكما وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرسَلِينَ﴾[1]

[1] - الشعراء- ٢١

ورسولنا الكريم ﷺ حينما هاجر متخفيًا عن أعين القرشيين، ألم يكن ذلك إلا إقرارًا لهذا المبدأ القويم في حفظ النفس والانتصار للدعوة، حينما نوفر لها الأرواح والنفوس لتكون عدتها في جولة قادمة؟!

والمسلمون في مؤتة حينما انسحب بهم خالد ﷺ في جنح الظلام حتى لا تشعر الروم بهم، هل كان جبنًا وخوفًا أم حفاظا في المقام الأول على جيش المسلمين، وفرارًا لجولة أخرى يكون المسلمين فيها أكثر استعدادًا لعدوهم؟!

وإمام المسلمين محمد الخضر حسين، الذي كافح الاستعمار الفرنسي في تونس، ثم فر إلى الآستانة حينما حكموا عليه بالإعدام، وأنا أصر على كلمة فر لأنني لا أرى عيبًا في هذا.. كما فر من الشام إلى مصر، لما أحس بوطأة المستعمرين هناك، أي فر مرتين وهو وقتها علم الدنيا وسيد الهداية، ونصب بعدها شيخا للأزهر فلم يعيره النابهون وقتها بأنه جبان فرار.

وانظر إلى هذا البطل من أبطال العرب وأمرائهم، وهو صقر قريش الذي مكن لدولة الإسلام في الأندلس، وخلف دولة كبرى لم يقدر عليها أعداؤها، حتى لقبه عدوه اللدود أبو جعفر المنصور بصقر قريش وقال: الحمد لله الذي جعل البحر حاجزا بيننا وبينه.. هل تعلم أنه لولا فراره من جند العباسيين، لما قامت هذه الدولة الكبرى، ولما قام هذا البطل العربي الكبير؟

بل هناك من جعل الهروب سمة وصفة وطنية وهو الزعيم الكبير خطيب الثورة العرابية، الذي كان يتفنن في الهروب ويبدع فيه، فبعد هزيمة التل الكبير، كان على عبد الله النديم أن يتوارى عن الأنظار، فقفز إلى مركب متجهة إلى الغربية بصفته درويشًا ومعه خادمه، و رغم قيام شرطة الخديوي توفيق بمداهمة المركب والبحث عنه، إلا إنه أفلت منهم.

استخدم نفس الشخصية الخيالية أبي زيد السروجي في مقامات الحريري للتنكر، فكان عليه أن يصبغ شعر ذقنه بالصبغة الحمراء ليلًا، وأن يبدل لكنة لسانه كي يتنكر بشخصية رجل مغربي تارة، أو يمني تارة أخرى، ورغم أن عدة مواقف كادت تؤدي بالقبض عليه، إلا إنه أفلت منها بأعجوبة.

وعجز الخديوي توفيق والإنجليز عن القبض عليه، فوضعا مبلغا كبيرا من المال لمن يدل عليه، إلا إن النديم قال لخادمه الذي لا يعرف القراءة ولا الكتابة: إن الحكومة عرضت لمن يقبض عليك مبلغ 5 آلاف ولمن يقبض علي مبلغ 1000 جنيه، ولأن الخادم خاف على نفسه، لذا استمر الخادم مثل النديم يبتكر الحيل في التنكر والتخفي، ويقوم باعوجاج لسانه كأنه غريب، وبعد فتره سمح له النديم بأن يذهب لأسرته ويتخفى عن الأنظار.

وهكذا كان الفرار في حياة الأخيار.. ترى لو كانوا جبناء فهل كانوا يقفون ابتداء مواقفهم الكبيرة التي انتصروا فيها للحق وأيدوا بها ما يرونه صحيحا؟

لو كانوا جبناء لسكتوا مبكرين ولم يتفوهوا بشيء.

رجولة إحسان

في حياتنا الأدبية والثقافية يُعرف عن الأستاذ (إحسان عبد القدوس) أنه كاتب الجنس وأديب الفراش في السينما المصرية، لكنه ليس كل ما يرسم لك هو حقيقة إحسان عبد القدوس، ويعطيك مالا تعلمه من دنيا الرجل، إلا إذا بحثت عنه في حياته، وقد تعجب حينما تعرف أن في حياة إحسان وتاريخه، صفحات عظيمة، وسنوات طويلة، من البطولة والنضال والوطنية والكفاح والأزمات والانتصارات.

فإحسان رغم تنوره ودعوته للتحرر، إلا أنه رغم هذا يحتفظ برجولته، تلك الرجولة التي تعني المروءة والشهامة والقيام بالمسؤولية، التي لا تؤهله أبدًا أن يعتمد على المرأة ويتقبل أن تعوله وتقوم بدوره في تحمل أعباء الحياة، وتبدى هذا حينما كان وزوجته يعانيان شظف العيش، وشدة الفقر والاحتياج، وكان لها في ذات الوقت إرثا عن أسرتها يمكن أن يكون كافيًا ليوفر لهما حياة كريمة، تبعث على الاستقرار المادي، ولكن إحسان الرجل، يرفض رفضًا مطلقًا أن تعوله زوجته أو تنفق عليه، ولو بقدر يسير من هذا الميراث، وقد حاولت مرارًا أن تقنعه بضرورة مشاركة المرأة ماديا للرجل في الحياة، ولكنها أبدا لم تفلح.

لقد كان رجلا شهما نبيلا تجري في دمائه أصول الشرق وتقاليده.

والرجولة في حياة إحسان لها حديث طويل، فهو ابن تلك المرأة التي جعلت منه رجلا، وأهلته ليكون رجلًا، فحينما أمسك بالقلم في بداياته الأولى، أيقن أنه صاحب قضية، وأن قلمه لابد أن يكون قلمًا حرًا نزيهًا جريئًا، وليس قلماً مأجورًا أو عميلاً خائنًا، ومن ثم كانت أول طلقات مداده، صرخة في وجه المحتل الغاشم، وتنكيلاً بصلفه وغروره.

ففي عام 1935 اشترك إحسان في مظاهرات الطلبة، حينما كان في مدرسة فؤاد الأول الثانوية، يهتف مع من يهتفون بائتلاف الزعماء وعودة الدستور، وكانت يومها جالسة بمكتبها بالجريدة، حينما دخل عليها وقد احتقن وجهه وعلى خده الأيمن آثار كرباج ذي ثلاث شعب، قد أزرفت

خطوطه واحتبس خلفها الدم، وسألته ما هذا فقال لها: عسكري إنجليزي، فقابلته بهدوء ولم تعترض على ذلك أو تهتز أمامه، بل حفزته وشجعته ليشترك في نشاط الطلبة السياسي والوطني.

وفي سن الـ25 من عمره، على موعد مع عالم البطولة، ففي مقاله الشهير (هذا الرجل يجب أن يذهب) والذي هاجم فيه اللورد (كيلرن) سفير بريطانيا على خلفية حادث 4 فبراير، لقد كان إحسان يعلم جيدًا أنه سيضرب بكلمته هيبة الإنجليز، وسيصطدم بالملك الذي استسلم للمأساة، وبحزب الوفد الذي أتى به الإنجليز، وكان وقتها حزب الأغلبية كما سيصطدم بالإقطاعيين الذي يتعاطفون مع الاستعمار، الذي يحمي مصالحهم، وظهر المقال الخطير عام 1945 فكان صرخة مدوية أمام صمت كثيف من كل الأقلام التي أخافها وأسكتها الإرهاب.! فلما كتب إحسان.. كان مقاله السهم الأول، الذي انطلقت بعده كل السهام تجاه عدوها المرصود، بل كان الشرارة الأولى التي تولدت منها نيران الغضب في الصحف المصرية.

وبعد نزول العدد للسوق، كان إحسان يجلس مع مجموعة من أصدقائه يترقبون ردود الفعل على كل الأطراف، حتى دق جرس التليفون وكانت رئيسة التحرير روز اليوسف، والتي لم تزد في حديثها إلا ببضع كلمات:(مش بطال يا إحسان ..أخبار التوزيع كويسة) واستقبل إحسان حديث أمه بسعادة بالغة، حتى كاد يرقص من الفرح، فأمه الصامتة أمامه، الجادة في وجهه منذ عمل معها، ولما تفرضه عليها طقوس الإدارة تقول له: مش بطال، فلا شك أن هذا إنجاز كبير ونجاح عظيم غير مسبوق في حياته، وهو الإطراء الذي جعله يستطيع أن يواجه أي قوة في العالم، لو قدر له مواجهتها، وفجأة فتح الباب ودخل أفراد البوليس السياسي، ويذهب بكل شجاعة إلى سجن الأجانب ليبيت أول أيامه في السجن ثمنًا لوطنيته وحبه لبلده، وذهبت أمه معه ودارت مناقشة عنيفة بينه وبين أمه، التي أرادت أن تنسب المقال لها حتى تدخل السجن بدلا منه، ولكنه أصر حتى أودعته النيابة في السجن، وهنا تحرك قلب الأم المناضلة، فترسل لولدها الذي يشق طريقه في عالم النضال خطابها التاريخي، الذي لا مثيل له في دنيا الأبطال تقول فيه:

"إلى ولدي السجين، أحييك في سجنك تحية أم وتحية مواطنة حملت قبلك شرف الجهاد في قضية مصر، وقد اختلط في نفسي شعور الأم بشعور المواطنة، فما أدري بأيهما أعبر عن نفسي، وإن في

قلبي ليستعر جحيمان، جحيم الأم وجحيم المبدأ، وكلاهما قطع من العذاب، أحمد الله عليك إذن وأنت في أول طريقك في قضية مصر، وقد نزلت منزلًا كريمًا في سبيل مبدأ كريم، والسجن يا ولدي منازل الأحرار إذا دخلوه مدافعين عن حرية الرأي، مناضلين في سبيل الحرية فلا يرضون بإحناء الرأس وتلجيم الفم من أجل متاع دنيا لا تدوم، ثم أحمد الله على نفسي إذا أكرمني وأنا ما زالت على قيد الحياة، بأن أراك تحقق أملي فيك، وتستقيم على المنهج الذي ربيتك عليه، أن تكون لبلادك ولحرية الرأي وأنت لا تزال في السن التي يكون فيها غيرك لمغامرات الشباب وأحلام الشباب ومناهج العيش الهني"[1]

كان إحسان سعيداً بهذه التجربة، حتى أنه من فرط فرحه نسي أنه سجين، واعتبر أنه في مهمة استكشافية، تعرف فيها على السجن وعالمه، والمساجين وقضاياهم ومشكلاتهم وأجناسهم، حتى نسي بما رأى وشاهد عذاب السجن وآلامه، بل كان يخامر إحسان بعضًا من المشاعر الشاذة، وذلك حينما كان يرى زوجته الشابة، تأتي إليه كل يوم لتزوره وتحضر له الطعام وابنهما على كتفها، وخرج إحسان من عالم السجن إلى عالم الشهرة والمجد الممزوج بالنضال والكفاح، وأرادت الأم أن تكافئ هذه البطولة الوليدة والرجولة الصاعدة، فأعدت له حفلة كبيرة، و جعلته بدلا منها رئيسًا لتحرير روز اليوسف في هذه السن الصغيرة.

وهكذا نقله مقاله في مهاجمة الإنجليز، نقلة نوعية في حياته ليصبح اسمه معروفًا مشهوراً له بصماته وشأنه بين الكتاب والأدباء، وكيف لا يخرج إحسان إلى عالم الدنيا سيدًا شريفًا بطلا مكافحًا وطنيًا نزيهًا، وله مثل هذه الأم التي كانت تدفعه للمسؤولية دفعًا، و تزج به في عالم النضال زجًا ووضعته في فوعة شبابه على خط النار، دونما خوف أو وجل.؟!

لم يقف نضال إحسان عند هذا الحد، وإنما صعد نجمه ليكون الكاتب الوطني الأول الذي كشف اللثام عن كثير من قضايا الفساد وأهما قضية الأسلحة الفاسدة، التي كانت من أسباب هزيمة مصر في 48، مما جعل إحسان وقلمه من المقومات المؤثرة التي مهدت لثورة 52، لقد انحاز إحسان إلى رجل الشارع ضد الظلم والظالمين، حيث أعلن ذلك صراحة في مقالاته التي كانت

[1] - إحسان عبد القدوس يتذكر – د. أميرة أبو الفتوح

تحمل عداءً صريحا للسلطة، بل إنه نادى علنا بسقوط الظلم، ولكي يسقط الظلم، فلابد أن يسقط الظلمة أي القصر والحكومة والإنجليز، كما رفض إحسان النظام الملكي لأنه يراه ضد التطور، وقد أصبح ذيلا وتابعا للإنجليز المحتلين.. وازداد نشاط إحسان وحماسه الوطني، فصار يبحث عن الثوار ويتصل بأفرادهم، وهي بادرة خطيرة محفوفة بالمخاطر، لكنه فعلها وسار فيها كما اتصل ببعض الضباط، الذين كانوا يمدونه بتقارير وأخبار استطاع منها أن يكشف كثيرًا من قضايا الفساد، لقد كرس إحسان قلمه لفضح مخازي السلطة الخائنة، وتعريتها أمام الشعب حتى يزيد عدد الثائرين والساخطين، ليقترب الشعب يوما ما إلى الانفجار الذي يطيح بأعدائه،

كان إحسان في هذا الوقت كاتبا وطنيا كبيرا، يشعل النار على الإنجليزي المحتلين والممالئين لهم من الحكومات، وشاءت الأقدار أن يتعرض لاختبار عنيف، يبرهن به لنفسه قبل غيره على صدق وطنيته التي تجاوزت القلم إلى المواقف الواقعية.

تحكي الدكتورة أميرة أبو الفتوح رواية عن إحسان عبد القدوس في كتابها القيم إحسان عبد القدوس يتذكر فتقول نقلا عنه: " ذات يوم اتصل بي تليفونيا في ساعة متأخرة من الليل سعد كامل، وكان إذ ذاك من شباب الحزب الوطني المتحمس.. وكان حديثه سريعا، ولكنه واضح وحاسم، ورغم أن عباراته تفجرت في ذهني كالقنبلة، فلم أضيع وقتًا وأسرعت للقائه.

فقد هرب حسين توفيق، قاتل أمين عثمان، واستدعى سعد كامل الأستاذ إحسان للتشاور معه في كيفية اتخاذ التدابير اللازمة لإخفاء القاتل الهارب، ذلك القاتل الذي تعلن إذاعة القاهرة كل نصف ساعة، عن مكافأة قدرها خمسة آلاف جنيه، لمن يرشد عنه مع التهديد باعتبار من يأويه شريكا له في جريمة عقوبتها الإعدام.

ويتذكر الأستاذ إحسان هذا الحادث النادر في حياته فيقول: "كانت شوارع القاهرة قد بدأت تخلو – مع الليل ـ من المارة، وكنت أقود سيارتي بسرعة جنونية، ربما لأخفف بسرعتها من حدة الانفعال الذي كان يثور في داخل وأعطى نفسى فرصة بعدها للتفكير الهادي في المغامرة المجنونة التي أنا مقدم عليها"

لقد وجد الثائر إحسان عبد القدوس نفسه في موقف صعب، وأمام اختيار أصعب، فإما أن يتحمل مسئولية إخفاء قاتل هارب، تسعى السلطة الحاكمة بكل غضبها وراءه، لكي يثبت عمليا لكل الثوريين الشرفاء أنه واحد منهم، وأنه قادر ـ عند اللزوم ـ على مواجهة السلطة وتحديها بشكل سافر، وأنه رجل يمكن الوثوق فيه ويمكن له تحمل مسؤوليته الوطنية، وإما أن يتراجع خوفا من العواقب المؤلمة التي تنتظره اذا افتضح أمره فيكسب بذلك أمنه الشخصي، ويفقد بعد ذلك وضعه في صفوف الثوار فيتحول لمجرد تاجر، يضارب ـ بالكلام المنمق والشعارات المزيفة ـ في سوق الثورة.. كان اختيارًا صعبًا، وامتحانًا رهيبًا.

يقول: لم تستغرق المناقشة مع سعد كامل أكثر من دقائق قليلة، تم بعدها الاتفاق على كل شيء، رغم أنه كان يعارضني منذ البداية، لأن خطتي بدت له ولأول وهلة شيئا جنونيا أو انتحارًا مؤكدًا، ولكنه اضطر للخضوع لرأيي.

وأنا واثق أن البكباشي الجزار مساعد البوليس السياسي ورئيسه سيشدان شعر رأسيهما من الغيظ، عندما يعلمان الآن وبعد مضى أكثر من ربع القرن، أن حسين توفيق الهارب الذي كان الراديو يذيع أوصافه كل نصف ساعة، ركب سيارتي وجلس إلى جواري علنا، حتى وصلنا إلى بيتي، وكنت أسكن بشارع قصر العيني.. واستيقظت زوجتي من نومها لتجد معي "ضيفا.! ولم يستغرق الأمر بيني وبين وزجتي، أكثر من نظرة سريعة وفهم كل منا ما بقلب صاحبه.. ومدت زوجتي يدها لتسلم على القاتل الهارب وتقول له ببساطة: أهلا يا حسين، أرجوك تعتبر نفسك في بيتك."

ويضحك إحسان وهو يتابع قصته قائلا: « ولم يعتبر حسين نفسه في بيته فحسب، بل وجد نفسه شريكا لي في اقدس مكان، بالنسبة لكل زوج، لقد تحول إلى شريك لي -برضاي الكامل ـ في حجرة نومي .! كانت حجرة النوم هي المكان الوحيد الذي يمكن إبعاد الخادم والطباخ عنه، ومنعهما من دخولها بعذر مقبول لا يثير شكوك اي منهما ، والويل لنا لو ثارت الشكوك في نفس أحدهما.. فقد كانت المكافأة التي رصدتها الدولة للإرشاد عن حسين توفيق مغرية، خمسة آلاف جنيه بالكمال والتمام.! ولهذا اتفقت أنا وزوجتي من البداية، على أن يقيم حسين بحجرة نومنا،

على أن تتكفل هي – بكل قدرتها على التحايل، بإبعاد – العيون، عن الحجرة بالنهار، فاذا عدت إلى المنزل ليلا اضطررت إلى مشاركة القاتل الهارب في السرير، الذي ضمني مع حبى طوال عمرنا المشترك منذ تزوجنا حتى اليوم.. باستثناء الأيام التي عاشها حسين توفيق في بيتي.

وهكذا يندفع إحسان بكل ثوريته إلى المدى الذي لا يتصوره عقل ولا منطق، إحسان المحب الغيور المعروف بالحرص الشديد إلى حد التزمت والإصرار على الابتعاد ببيته عن دائرة الضوء الاجتماعي التي يعيش بنفسه فيها، يسمح بوجود رجل غريب في بيته مع زوجته، وفي أي مكان؟ في غرفة نومه طواعية واختيارًا.!

تحمل المسؤولية

أتساءل كثيرًا عن دوافع هؤلاء الأكارم في الحركة نحو إنقاذ المجتمع، وأنهم لم يستسلموا لنبرات الإحباط والتيئيس، وشعارات السلبية القاتلة مثل (عش جبانًا تمت مستورًا.. إلخ)؛ فقد تحرّكوا ولم يكترثوا بما سيحدث لهم؛ فقد كان همّهم الأول إنقاذ مجتمعهم وأبنائه.

ما الذي حرّك مؤمن آل ياسين؛ ليدعو قومه بالاستجابة للرّسل؟

ما الذي حرّك مؤمن آل فرعون، وهو المنعّم في القصور والسلطة، ما الذي حرّكه ليثبت الحق الذي جاء به الداعية موسى عليه السلام؟

من الذي حرك موسى عليه السلام ليسقي للمرأتين؟

ما الذي حرّك الناصحين في قصة أصحاب السبت لينصحوا قومهم – ممن يرتكبون الباطل ويتحايلون على أمر الله تعالى– وقالوا لهم: هذا حرام! رغم تثبيط السلبيين لهم، قائلين: (لم تعظون قومًا الله مهلكهم أو معذبهم) غير أنهم ردّوا بعزّة النفس: (معذرة إلى ربّكم)؟ فما الذي حرّكهم إذًا؟

ما الذي حرّك الرسول –عليه الصلاة والسلام– ليحضرَ في دار عبدالله بن جدعان (حلف الفضول) الذي أشرنا إليه سابقًا ويقف بجوار مظلوم لا يعرفه؟

ما الذي حرّك صلاح الدين الأيوبيّ نحو بيت المقدس المأسور الجريح يومًا من الأيّام؟

ما الذي حرّك عبدالحميد بن باديس، وعبدالقادر الجزائري، وعمر المختار نحو نصرة بلادهم والحفاظ عليها دون أمر من مسئول أو رئيس أو مدير؟

بل قل: ما الذي حرّك هدهدًا ليأخذ بيد أمّة تسجد للشمس والقمر من دون الله؟ ما الذي حرّك نملة لا نسمعها وربما لا نراها أن تنصح قومها (لا يحطمنّكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون)؟

تساؤلات طرحها بعض الكتاب إشارة منهم للتدليل على الإحساس بالمسئولية.. أن تحسّ بالمسئولية وأن تستشعر الأمانة فأنت إنسان، بل أنت المعنى الكبير للرجل!

"يروى أن مسلمة بن عبد الملك كان في جملة من الجند يحاصرون إحدى قلاع الروم، وكانت محصنة والدخول إليها صعباً إلا من نقبٍ فيها تخرج منه أوساط المدينة، فوقف مسلمة ينادي في الجند: من يدخل النقب ويزيح الصخرة التي تحبس الباب ويبكر حتى ندخل؟ فقام رجل قد غطى وجهه بثوبه وقال: أنا يا أمير الجند ودخل النقب وفتح الباب ودخل الجند القلعة فاتحين.. وبعدها وقف مسلمة بين الجند ينادي على صاحب النقب حتى يكرمه على ما فعل، وكان يردد من الذي فتح لنا الباب فما يجيبه أحد! فقال: أقسمت على صاحب النقب أن يأتيني في أي ساعة من ليل أو نهار، فطُرق باب مسلمة طارق ليلاً، فيلقاه مسلمة مستبشراُ: أنت صاحب النقب فقال الطارق: هو يشترط ثلاثة شروط حتى تراه. قال مسلمة وما هي؟ قال: ألا ترفع اسمه لدى الخليفة ولا تأمر له بجائزة ولا تنظر له بعين من التمييز، قال مسلمة: أفعل له ذلك، فقال الطارق: أنا صاحب النقب وانصرف وترك جيش مسلمة ذاهبًا إلى سد الثغور في أماكن أخرى"[1]

يذكر أن مسلمة كان يدعو بعدها قائلا: اللهم احشرني مع صاحب النقب.!

هذ سيرة بطل لا يعلمه أحد في التاريخ إلا أنه صاحب النقب، لكنه قبل هذا كان يشعر بالمسؤولية التي جرته إلى هذا المشهد البطولي فكان الآية في الرجولة والبطولة.

لقد علم النبي ﷺ حكام أمته معنى هذه المسؤولية التي قاموا عليها وطبقوها فضربوا فيها أروع المثل. قال ﷺ:" كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته"

[1] - ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق 273/7

وأمام من يهللون اليوم لمواقف الحضارة الغربية التي تئن الدنيا من ويلاتها اليوم، لا يمكن أن تماثل فيما قدمت في ماضيها وحاضرها ومستقبلها، ما قدمه تراثنا وحضارتنا ورموزنا الذين كان الحكام فيهم خداماً لرعيتهم يسهرون ليلهم ونهارهم على راحتهم ومعاشهم، ويقدرون المعنى الأمثل للمسؤولية.

واسمع لأذناب الغرب وهم يطنطنون بالحديث عن عطف وإنسانية (جورج واشنطن) محرر أمريكا ويروون أنه مر ذات يوم في بعض شوارع المدينة التي سميت باسمه فيما بعد ، فرأى جنوداً يتجمعون حول حجر يريدون أن يرفعوه ولكنهم يعجزون ، وكان هناك ضابط يقف أمام هؤلاء الجنود يأمرهم ولا يساعدهم، فوقف واشنطن وقال له: أيها الضابط ساعدهم على حمله فرفض الضابط وقال: إني لا أتنازل إلى هذا، فما كان من واشنطن إلا أن ألقى رداءه وساعدهم حتى استطاعوا رفع الحجر وحمله، ثم قال لهم: كلما احتجتم إلى مساعدة فاسألوا عن دار واشنطن.

إنه (جورج واشنطن) أبو الحرية الأمريكية الذي كان يملك ثلاثمائة عبد وجارية في مزرعته الخاصة، ولم يحرر منهم واحداً قط!

وإذا أراد العالم أن يضع ميثاقاً للعدالة ونموذجًا للحاكم العادل الشريف، فإنهم لن يأتوا بمثل ما قدمه عمر بن الخطاب ﷺ في سيرته وعدالته وفناء ذاته في خدمة رعيته.

قدمت إليه امرأة مسيحية من سكان مصر، تشكو واليه عمرو بن العاص الذي قد أدخل دارها في المسجد كرهاً عنها، فيسأل عمراً فيخبره أن المسلمين كثروا حتى ضاق بهم المسجد وفي جواره دار هذه المرأة وقد عرض عليها عمرو ثمن دارها وبالغ في الثمن فلم ترض، مما اضطر عمرو إلى هدم دارها وإدخاله في المسجد، ووضع قيمة الدار في بيت المال تأخذه متى شاءت، وفي عصرنا الحاضر لا تمنع القوانين مثل هذا التصرف لكن عمر لم يرض بذلك، وأمر عمر ﷺ أن يهدم البناء الجديد من المسجد ويعيد إلى المرأة المسيحية دارها كما كانت.!

ويأتيه يوما شابٌ مصري قبطي يحمل شكوى من ابن حاكم مصر، العربي الشريف عمرو بن العاص، وقد سابق ابنه محمداً يوماً، فسبقه القبطي، فضربه ابن (عمرو بن العاص) وهو يقول: (أتسبقني وأنا ابن الأكرمين، فيستدعي عمر الحاكم وابنه، ويناول القبطي الدرة ويقول له: (اضرب ابن الأكرمين) فيقتص القبطي من ابن حاكم بلده، ثم يقول عمر: (أدرها على صلعة عمرو، فما ضربك إلا بسلطان أبيه) ثم يلتفت إلى (عمرو بن العاص) وابنه ويعلنها مدوية خالدة (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً)؟!

ورأى ﷺ مرة في السوق شيخاً كبيراً يسأل الصدقة، فقال له: من أنت يا شيخ ؟ قال: أنا شيخ كبير أسأل الجزية والنفقة، وكان يهودياً من سكان المدينة.. فإذا بعمر ذلك الحاكم العظيم يقول له: ما أنصفناك يا شيخ، أخذنا منك الجزية شاباً ثم ضيعناك شيخاً، وأخذ بيده إلى بيته ففرض له ما كان من طعامه، ثم أرسل إلى خازن بيت المال يقول: افرض لهذا وأمثاله ما يغنيه ويغني عياله، ووضع الجزية عن فقراء أهل الذمة.!

هكذا كانت العدالة، ومع من؟ مع اليهود والمسيحيين الذين يدينون بغير الإسلام يا من تدعون للمواطنة، وحفظ حقوق الأقليات.!

وكان عمر وما أدراك ما عمر، يؤتى إليه في زمن (الرمادة) بخبز قد ثرد بالزيت، إلى أن نحروا يومًا من الأيام جزورا فأطعمها الناس، وغرفوا له طيبها فأتي به، فإذا فدر من سنام ومن كبد، فقال: أنى هذا ؟، قال: يا أمير المؤمنين، من الجزور التي نحرنا اليوم، قال: (بخ بخ، بئس الوالي أنا إن أكلت طيبها وأطعمت الناس كراديسها، ارفع هذه الجفنة، هات لنا غير هذا الطعام)، قال: فأتي بخبز وزيت، قال: فجعل يكسر بيده ويثرد ذلك الخبز، ثم قال : (ويحك يا يرفأ! احمل هذه الجفنة حتى تأتي بها أهل بيت بثمغ، فإني لم آتهم منذ ثلاثة أيام وأحسبهم مقفرين، فضعها بين أيديهم)[1]

ومَن مِن الحكام في زماننا من يفعل مثل ما فعل عمر! في هذا الموقف، يمنع أطيب الطعام عن نفسه ليفدي به رعيته، ويعتبر نفسه بئس الوالي إن قبل بهذا، وفي حياتنا اليوم حكام ينهبون

[1] الطبقات الكبرى لابن سعد

ثروات شعوبهم بلا شبع أو قناعة، ينام أحدهم منتفخ البطن من زحمة الطعام، بينما الفقراء في وطنه تفنيهم الأمراض ويسحقهم الجوع.! فما أبعدهم عن الرجولة.

يقول أسلم مولى الفاروق رحمه الله: خرجنا مع (عمر بن الخطاب) إلى حرة، وأقم حتى إذا كان بصرار إذا نار، فقال: يا أسلم، إني لأرى هاهنا ركبًا قصر بهم الليل والبرد، انطلق بنا، فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم، فإذا امرأة معها صبيان أيتام، وقدر منصوبة على نار، وصبيانها يتضاغون. فقال عمر: السلام عليكم يا أصحاب الضوء، وكره أن يقول: يا أصحاب النار. فقالت: وعليك السلام، فقال: أَدْنُو؟ فقالت: ادْنُ بخير أو دَعْ، قال: فدنا، وقال: ما لكم؟ قالت: قصر بنا الليل والبرد، قال: وما بال هؤلاء الصبية يتضاغون؟ قالت: الجوع، قال: فأي شيء في هذه القدر؟ قالت: ماء، أسكتهم به حتى يناموا، والله بيننا وبين عمر.

قال: رحمك الله، وما يدري عمر بكم؟ قالت: يتولى أمرنا ثم يغفل عنا؟! قال: فأقبل عليّ، فقال: انطلق بنا، فخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق، فأخرج عدلاً من دقيق، وكبة شحم، فقال: احمله عليّ.

فقلت: أنا أحمله عنك، فقال: أنت تحمل وزري يوم القيامة، لا أم لك، فحملته عليه، فانطلق وانطلقت معه إليها نهرول، فألقى ذلك عندها، وأخرج من الدقيق شيئًا، فجعل يقول لها: ذري علي وأنا أُحَرِّك لك، وجعل ينفخ تحت القدر، ثم أنزلها فقال: ابغني شيئًا، فأتته بصحفة فأفرغها فيها ثم جعل يقول لها: أطعميهم وأنا أَسْطَح لهم (أَي أَبْسُطه حتى يَبْرُدَ) فلم يزل حتى شبعوا وترك عندها فضل ذلك، وقام وقمت معه، فجعلت تقول: جزاك الله خيرًا، كنت أولى بهذا الأمر من أمير المؤمنين، فيقول: قولي خيرًا، إذا جئت أمير المؤمنين، وجدتني هناك إن شاء الله ثم تنحى عنها ناحية، ثم استقبلها فربض مربضًا، فقلت: إن لك شأنًا غير هذا، فلا يكلمني حتى رأيت الصبية يصطرعون، ثم ناموا وهدءوا، فقال: يا أسلم، إن الجوع أسهرهم وأبكاهم، فأحببت ألا أنصرف حتى أرى ما رأيت.

لقد كان إحساسه العميق بالمسؤولية يؤرق جفونه فلا تعرف النوم والقرار، وكان يعبر عن ذلك بقوله: (لو مات جدي بشط الفرات لخشيت أن يحاسبني الله عنها؟)

وقال: (لو أن بغلة بالعراق عثرت لظننت أن الله يسألني: لم لم تمهد لها الطريق)

ويُحكى أن ابنة (عمر بن عبد العزيز) دخلت علية تبكى وكانت طفلة صغيرة آنذاك، وكان يوم عيد للمسلمين فسألها ماذا يبكيك؟ قالت: كل الأطفال يرتدون ثياباً جديدة وأنا ابنة أمير المؤمنين أرتدي ثوبا قديما، فتأثر عمر لبكائها وذهب إلى خازن بيت المال وقال له: أتأذن لي أن أصرف راتبي عن الشهر القادم؟ فقال له الخازن: ولمَ يا أمير المؤمنين ؟ فحكى له عمر، فقال له الخازن لا مانع عندي يا أمير المؤمنين ولكن بشرط فقال عمر و ما هو هذا الشرط؟ فقال الخازن أن تضمن لي أن تبقى حياً حتى الشهر القادم لتعمل بالأجر الذي تريد صرفه مسبقاً، فتركه عمر وعاد إلى بيته فسأله أبناؤه ماذا فعلت يا أبانا؟

قال: أتصبرون وندخل جميعا الجنة أم لا تصبرون ويدخل أباكم النار؟

قالوا نصبر يا أبانا.!

هؤلاء هم القادة الأول والرجال الأعاظم في تاريخ الإسلام، وهذه سيرتهم في حكمهم العادل، الذي كان أحدوثة الأيام وأعجوبة الزمان.

تم بحمد الله

المحتويات

مقدمة بقلم الكاتب الكبير- خالد الأصور 2
مقدمة المؤلف 6
ماذا تعني الرجولة ؟ 9
الرجولة موقف 15
تربية الرجال 19
أخلاق الفرسان 26
نصرة المظلوم 33
الرجولة في القرآن 39
من يطيق الشهامة؟ 45
اللامبالاة 50
مروءة الجاهلية 58
شهامة لا يهدمها الجحود ؟ 66
أحسن إلى أعدائك 71
قسوة القلوب ! 77
محنة الرجولة 84
الرجولة تعلن نعيها ! 90
الرجولة الفشنك 98
ويؤثرون على أنفسهم 105
الاعتراف بالخطأ 110
حينما تخدعنا السطور 118
أمة تهين أبطالها 124
رجولة مسافر 129
ميمون وزيتونة يتفوقان 136
همومك تحملها وحدك 141
فنان الرجولة 147
تصوير الألم 151
الخوف ليس عيبًا 156
رجولة إحسان 162
تحمل المسؤولية 167